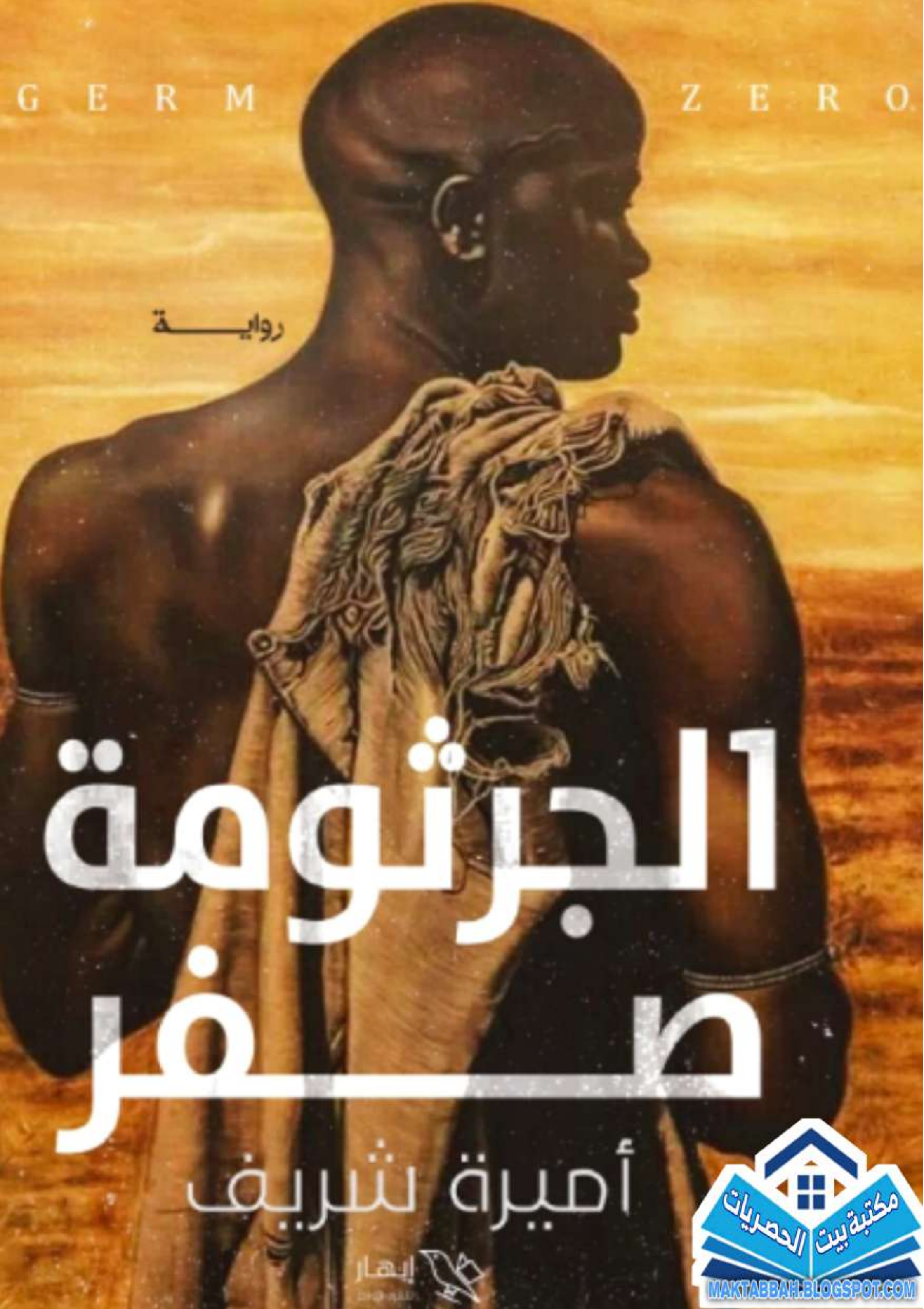
GERM ZERO
رواية
الجرثومة صفر
أميرة شريف
إبهار
مكتبة بيت الحصريات
MAKTABBAH.BLOGSPOT.COM

(1)

كأي يومٍ قدر لها أن تقوم بعملها مرسلة بأشعتها المتوهجة إلى تلك الكرة الأرضية - الممتنة للون الأزرق الغالب على طبيعتها - لتوزع أنشطتها المتنوعة كسببٍ من مسببات الحياة على سطحها لكنها كانت تتماشى مع مبدأ (سلاح ذو حدين) - كطبيعة هذا القدر الذي يمتثل لهذا المبدأ المحدود بقدرة الله عز وجل - فجعلت من أشعتها تلك سهامًا نارية، وجهتها إلى ذاك الحشد الذي يصطف أمام هذه الأبواب العالية، عل أحدهم يمتثل لطلب هذا الرجل الذي يتصدر الموقف، والذي كان فارع الطول، أبيض البشرة، ذو ملامح لحقت بمدارج الاستحسان عند الرؤية، يرتدي قبعة واقيه لتلك السهام، يليها ثياب أنيقة مميزة عن هؤلاء المصطفين خلفه، وقد بدا أنهم جُمعوا في حقبة مميزة خاصة بهم عنوانها (البؤس والشقاء) مستندة إلى بعض السمات البارزة - التي يبدو أنها كانت أحد الأسباب المباشرة للالتحاق بهذه الحقبة الخاصة، إن لم تكن في نظر البعض مجمل الأسباب - أبرزها اللون الأسود والخرق المنسدلة على أجسادهم العارية تمامًا عن أي نسب للثوب الكامل (الحافظ لكرامة الإنسان) فالصف الأول قدر له أن يحتفظ بقدرٍ يستر عورته، فاكتفى بالنصف الأدنى من الفرد لأنهم رجال، والوسط خرق متشابكة تكاد تفقد قدرتها على التماسك لولا أنهن نساء لما استطاعت أن تترابط بهذا الشكل لتحفظ لهن الحد الأدنى من الحياء ممتزجًا بالكرامة، أما الصف الأخير، فكان خليطًا من الصفين السابقين غير أنهم كانوا في مقتبل حياتهم أطفالًا غير أن الناظر إليهم يحسبهم راشدين من فئة الأقزام أو أطفالًا من ذوي الاحتياجات الخاصة، يعانون من فقد البصر والسمع والقدرة على الحديث لتجعل منهم صفًا استثنائيًا لطبيعتهم الطفولية، فقد كانوا هادئين ومنتظمين لأن الحركة قد أوكلت إلى تلك السلاسل الحديدية التي تربط الأيدي بالأيدي والأرجل بالأرجل - لتطوي معها آخر معالم الطفولة، وتزج بهم إلى مدارج العجز - والتي كانت تنتهي إلى يد الرجل في الأمام بعد أن سلبت الصفين الأول والثاني، الحرية والكرامة، وأعطتهم عوضًا عنهما العبودية والذل، أما الصف الأخير، فقد سلبت منه أنقى مراحل العمر، علها نُزعت مع الحرية، ووُضعت على لائحة أهواء الملاك لزمام الأمور.

كان هذا المشهد يمر أمام عيني هذا الشاب الذي يبدو أنه لم يتخط حاجز الثلاثين بعد، والذي وقف مائلًا بنصف جسده الأعلى إلى البوابة واضعًا ذراعيه في وضع متشابك، لا يُحرك ساكنًا غير هاتين الحدقتين البنيتين لتشرف ذهابًا وإيابًا على هؤلاء البائسين المصطفين كأنه يشاهد عرضًا مسرحيًا مشوقًا، لا يستطيع من إعجابه بإبداع الممثلين المنسجم مع الإخراج المحكم والتجهيزات اللازمة كالديكور، أن يسمح حتى للأفكار المتلاحقة في الذهن أن

تحضر لأنه بالفعل نُقل إلى عالمٍ آخر لينسى هويته وينغمس فيه، عل الطبيعة انسجمت مع حال هؤلاء، فأنتجت عرضًا مسرحيًا من إخراج البؤس والشقاء معًا لكنه كان عرضًا من مشاهد واحد، أبيض اللون، طويل القامة، يرتدي قميصًا أسود اللون وبنطالًا باللون نفسه، بجواره حقيبة كبيرة من القماش، يبدو أنها تحمل الكثير من الأغراض، مغطاة بقبعته الواقية، ظل الوضع السابق كما هو لبضع دقائق حتى تمكن الغضب من الرجل في الأمام وبدت علاماته على وجهه، فرفع عصاه التي كان يحملها ليضرب البوابة كأنه ينتقم منها لأنها لم تفتح بعد مع توعد من يمتلك أمر فتحها بالعقاب، وصاح قائلًا:

- أيها الوغد الأبله، سأقتلك، لا بد أنك نائم، تتسكع في البستان، سأقتلك أيها الأبله.

غير أن هذه الصيحات، لم تجدِ وحتى لم يستفق الشاب المتأمل لحال هؤلاء، فلم يعتدل من سكونه أو تحديقه غير أن الحدقتين البنيتين قد توقفا تمامًا عن الحركة - هذا التوقف الذي يصيب العينين في ظل حركة الحياة من حولها لتركن إلى حياةٍ أخرى أو ما نسميه شرودًا - غير أن الأمر لم يكن كذلك. فقد توقفت عن الحركة إثر انجذابها إلى شيءٍ آخر، يبدو أنه كان أكثر إثارة مما رآه قبلها ليطيل التحديق إليه، ربما لإعجابه بهذا المشهد، فانغمس كليًا فيه أو أنه أمر غير معهود، فأراد أن يدرك تفاصيله ليكون معهودًا له، لقد كان مشهدًا محيرًا، يخيل إليك حين تنظر من زاوية الشاب، أنه نهر عجيب، ربما للونه الأحمر الذي يتدفق من منبعه في شكل تموجات عبثية، تتلاقى مع أفرع تغذيها - مشابهة لها من جهتي اليمين واليسار - لتدفعها إلى الاستمرار في مسارها حتى تصل إلى منطقه جرداء عاجزة عن مد الفرع الرئيسي بأي رافدٍ آخر لتدعمه كي يستمر في طريقه بالقوة نفسها، فتنقله من الشباب إلى الكهولة حتى يصل في نهاية المطاف إلى مصبه غير أن الأمر لم يساير الطبيعة تمامًا أمام عيني الشاب، فإضافة إلى اللون الأحمر وجريانه في مناطق مماثلة للونها الأسود الذي لم يميز بين مرحلةٍ وأخرى، فإنه مع ذلك يهبط من الأعلى على هيئة قطرات متتابعة رغم خلوه من السدود لينغمس في ذرات من اللون الأسود، تملأ المكان بأسره ويتلاشى أثرها كأن شيئًا لم يكن، لا قيمة له ولا تأثير إلا في نفس الشاب التي ارتسمت علاماته على وجهه، وبدا جليًا في نظراته أنه حدث عظيم - ليس لأنه ظاهرة طبيعية، فهذا لا يمكنه أن يعدو مجرد وصف أو تشبيه لحدثٍ جارٍ -عل عينا الشاب قد نقلت صورة استصعب العقل استيعابها، فنقلها في بعثةٍ قصيرة إلى عوالم الخيال لتفعل ما يحلو لها علها تجد حلًا يخفف قليلًا حدة الصدمة، والدهشة، والتعجب - على أي حال إنها لا تعدو مجرد محاولات لطيفه لتخفف حدة الواقع غير أن الواقع بحقيقته مهما كان أثرها، لن تتبدل مهما حاول الخيال تصويرها دون فعلٍ واقعيٍ ليخفف أو يبدل هذا الواقع، فدروب الخيال ممتعة، أما دروب الواقع فقاسية! فسرعان ما ظهرت براءة الطبيعة من هذا الشذوذ على إثر فتح البوابة التي

يستند إليها الشاب، فظهر منها رجل طويل أسود اللون، بدا عليه علامات الشيب، وحين رآه صاح في غضب:

- أيها الأبله، أين كنت؟ وأين الحرس؟! ما هذه الفوضى؟!

ارتجف الرجل وبدت علامات الخوف على وجهه، فقال في ضعف الشيب ممزوجًا بضعف المكانة:

- اغفر لي يا سيدي، فالعمل على قدمٍ وساق، والسيدة أرادت أن...

قاطعه الرجل قائلًا:

- وأين الحرس؟ ولمَ الأبواب مغلقة؟!

- لا أعلم يا سيدي.

- تبًا! خذ.

أعطاه أطراف السلاسل الحديدية ثم أردف قائلًا:

- هيا أسرع وأدخلهم.

ثم جذب الرجل جانبًا حتى يتسع مجال لمرور الصفوف الثلاثة، واتخذ الشاب الموقف نفسه كأن قطيعًا من الأغنام لا يميز سيمر، ويجب على الذين يميزون تجنبه إلا أن الشاب ظل على حاله يترقب الصفوف الثلاثة حتى رأى حقيقة نهره - الذي رسمه خياله - فهمس في صوتٍ لا يسمعه أحد ولا حتى الواقف بجواره عله أراد أن يسمع خياله فقط لينتبه قائلًا:

- إنه نهر من صنع البشر! إنه نهر من دم!

ثم انحنى آخذًا قبعته ليضعها على رأسه، وحمل حقيبته ليتجه نحو البوابة في الوقت نفسه الذي اتجه فيه الرجل في الناحية الأخرى إلى المقصد نفسه، ويبدو أن خطواتهما كانت واحدة، فوصلا عند بداية الدخول في وقتٍ واحد ليتبادلا النظرات حتى قال الرجل في نبرةٍ متعالية:

- من أنت؟! لماذا جئت إلى هنا؟!

إلا أن الشاب لم يعبأ بهذا، وانطلق حتى قبل أن يتم الرجل حديثه إليه محدثًا نفسه دون صوت: «إنه شيطان! يتخفى في مظهرٍ بشريٍ، يجب عليَ تجنبه حتى لا يجرني إلى الخطيئة!»

فتبعه الرجل إلى الداخل، وصاح غاضبًا:

- أنت أيها الأبله، توقف، سأقتلك، تبًا!

توقف الشاب إثر مقابلته للعجوز - الذي يبدو أنه قد أتم مهمته وأسرع ليخبر الرجل - فانحنى العجوز قائلًا:

- سيدي مسرور لرؤيتك مجددًا، السيد (يعقوب) غادر منذ...

إلا أن الشاب لم يكترث لهذا أيضًا، ومضى في طريقه إلى هذا البيت الكبير حتى وجد نفسه أخيرًا أمام أبوابه، كاد أن يقرع الباب إلا أن الرجل قاطعه قائلًا:

- بني.

والذي يبدو أن العجوز قد أخبره بهوية هذا الشاب، فنظر إليه ليكمل الرجل تودده قائلًا:

- لم نلتقِ من قبل، لم أكن أعرفك، واسمح لي أن أقرع الباب.

ففعل حين أكمل حديثه قائلًا:

- السيد (يعقوب) لم...

قاطع الرجل فتح الباب، ظهرت سيده سوداء اللون، ترتدي ثيابًا رثة، وانحنت، فسألها الرجل قائلًا:

- أين السيد (يعقوب)؟

- إنه خارج البيت.

- أين البقية؟

- إنهم في غرفة الطعام يا سيدي.

- حسنًا، هيا يا بني، إنه وقت الطعام حتى يعود السيد (يعقوب).. الجميع..

لم يلتفت الشاب إلى حديث الرجل معه وواصل تقدمه نحو الداخل محدثًا نفسه: «حتى لو أن الشيطان تودد إليك ودعاك إلى تناول الطعام، إياك أن تقبل مهما كنت جائعًا، لا.. إياك أن تسمع ذلك! واصل تقدمك!»

تبعه الرجل في الدخول ليجوب بعينيه المكان - الذي يخلو تمامًا من الأثاث عدا منضدة في الوسط، تحمل مزهرية كما أن هناك مقعدين بجوارها - باحثًا عن الشاب، فوجده أمام إحدى غرف الجهة اليسرى ثم قال الرجل في صوتٍ منخفض:

- أنت لا تفلح أبدًا!

- كنت أشعر بذلك!

سأل (فلو) قائلًا:

- أين السيدة الثالثة؟

- السيدة (ورد)!

- إنها مريضة.

- يبدو أنها ستتركنا.

- أخشى ذلك.

توقف (فلو) عن تناول طعامه قائلًا:

- لا يحزنني ذلك، وأين السيد (يعقوب)؟

- لا ندري.

- سمعته يقول للحرس: هيا لنبحث عن هذا المجنون!

تحدث (فلو) قائلًا:

- ابنه ينتظره في مكتبه، يحزنني أنه لا يسمع.

- ابنه اللورد!

أجاب (فلو) قائلًا:

- لا لا أنا أعرفه، إنه شاب لم ألتقي به من قبل.

- يمتلك ابنًا آخر لكنه دائمًا يقول عنه أنه مسبب للمتاعب.

- ويلقبه بالمجنون، إنه الذي خرج ليبحث عنه ليلة أمس.

قال (فلو):

- ظننت ذلك، يرتدي ملابس العامة، وحينما حدثته لم ينطق بكلمة واحدة.

- يا إلهي! يوجد الآن في البيت مجنون!

- لا لا، ليس تمامًا لكنه يسبب المتاعب دائمًا للسيد (يعقوب).

- دعك منه، حدثنا عن رحلتك.

قال (فلو):

- رحلتي، هيا لتروا غنيمة رحلتي.

- حقًا!

- كنت تمزح إذًا!

نهض الخمسة مسرعين..

* * * *

(2)

في غرفة مكتب السيد (يعقوب).. يبدو أن الفوضى تعم المكان على إثر وجود ابنه - الملقب بالمجنون - والذي يجلس على مقعد مكتب والده الذي يتصدر الغرفة، يبدو أنه قد أطاح بكل شيءٍ عليه دون النظر إلى ما تحويه هذه الأوراق حتى لو كانت موضوعة على مكتب اليد اليمنى للملك عل صفة الجنون التي يوصف بها، هي من سولت له منطقية هذا الفعل ليتسنى له وضع حقيبته على المكتب - على الرغم من وجود أماكن عدة في الغرفة تستوعبها لاتساعها من جهةٍ ولخلوها من زحام الأثاث من جهةٍ أخرى إذ كانت تحوي إضافة للمكتب صفًا من المقاعد على الناحية اليمنى، وصفًا مماثلًا في الجهة اليسرى بمسافاتٍ متساوية، وفي المنتصف ثلاث مناضد صغيرة – ويبدو أن الطعام الذي تودد به السيد (فلو) إلى ابن السيد (يعقوب) لم يروق للشاب، فلم يقربه حتى، وظل كما هو على إحدى المناضد الثلاث الصغيرة، وظل الشاب شاردًا، لا يُحرك ساكنًا لعدة دقائق حتى انهمرت الدموع من عينيه ثم قال في صوتٍ عالٍ كأنما يحدث أحدهم:

- لا لا.. يجب عليَ أن أتابع، ينبغي ألا أسقط في منتصف الطريق، سأنال غايتي قريبًا، أجل كف عن هذا البكاء، كف عن هذا الضعف.

ثم نظر إلى رزمة من الورق، يبدو أنه أخرجها من حقيبته ووضعها جانبًا ثم أمسك بريشة ووضعها في الحبر ثم أخرجها مسرعًا وكتب على ورقةٍ بيضاء تعلو أمثالها:

«إلى ساكنة الفؤاد، إن الأحرف توشك على الإيقاع بي لتدون خطابًا متوجًا بأحرف الشوق، ممزوجًا ببعض كلمات العشق والهيام، ولا عجب في ذلك، فأنتِ معشوقتي إلا أنني مصر على أن أعترف بخطيئتي ووهني وقلة حيلتي، كدت أسقط اليوم وأنهار قبل لقياكِ، كدت أفتقد الطريق وأتوه في ظلمات الباطل لكني أتودد إليكِ تودد المحب لطلب العفو، لقد كان أمرًا استثنائيًا حالفني فيه العجز، فكما تعلمين، العهد بيننا على اللقاء في مخيلتي حتى يتم المراد ونلتقي مجددًا، لم أستطع مقابلتكِ عند ذاك النهر الأحمر، فلا يجوز ذلك في عرف المحبين، لا يمكننا أن نلتقي في حضرة البراءة المقتولة، والعويل المستمر، والآهات المتتالية، والصرخات المكتومة، وقلوب بائسة، أصابها خنجر القسوة، فباتت ممزقة، إذ لا يمكن للحب أن يغض النظر عن دناءة الفعل وأساليب الشياطين لتوقعنا في الخطيئة، ولا يجوز للخيال أن يصنع من الألم سعادة، ومن الظلم وسيلة لخداع الآخرين، أعلم تمامًا أنكِ تؤيديني في ذلك، ولا عجب فأنتِ الومضة التي أنارت لي الطريق.. لكني أطلب العفو لعجزي حيال ذلك، ولا أدري هل أصبحت مجنونًا حقًا أم لا! ربما أنا مجنون حبكِ! ربما لم أستطع تحمل الأمر، فقد أعجزتني هذه القيود قبل أن تعجزها تلك الطفلة التي خلعت ثياب الطفولة باكرًا، ربما أردت

أن أجمع عجزي بعجزها ونلتقي نحن الثلاثة في عوالم الخيال علنا نجد حلًا لتلك المعضلة، علني أردت أن أختطفها من أهوال هذا العالم المخيف إلى عالمنا، أو ربما هي من اجتذبت خيالي ليفعل ذلك، لقد بدت محيرة، لا يليق ثباتها مع هذا النهر الذي ارتسم على أحد ذراعيها، إلا أنه نهر هالك، تبرأ الطبيعة منه، إنه نهر من دمٍ، اعتزم أحد الشياطين على إخراجه من أسفل الجلد ليجد للدم مسلكًا سهلًا، ويرى فيه مدى قوته وبطشه وهشاشة هذه الطفلة كي يتسنى له إخضاعها، وما أيسر ذلك عليه وأقساه عليها! لست أدري من أين أتت الصغيرة بهذه القوة إذ كانت ساكنة هادئة، لا يبدو أنها تعاني! ربما استنفدت قواها من العويل والصراخ، فباتت تصرخ في أحشائها، تتوسل إلى بقية جسدها علّه يلتئم سريعًا فيخفف عنها، أو أنها مجبرة أيضًا على التألم دون صوتٍ كي لا يتضاعف، أو ربما رأيتك فيها، إنها تشبهكِ في إرادتكِ، عنادكِ، مواجهتكِ للمصاعب، رفضك المعلن لأساليب الشياطين، وثورتكِ تجاههم في أفعالك، وقوتكِ وإصراركِ على نيل حريتكِ وحقوقكِ مهما كلف الأمر.»

توقف الشاب عن الكتابة، وقال هامسًا حين رفع رأسه كأنما يراها تقف أمامه:

- لقد امتلأت الورقة قبل أن أكتب كل شيء، يبدو أنكِ محققة، أنا ثرثار جدًا، لا بأس فأنتِ لا تجيدين القراءة أو الكتابة، عندما نلتقي سأخبركِ بالبقية.

كتب في النهاية:

«إنه اليوم الثالث والخمسون منذ أن افترقنا.»

أخرج منديلًا من جيبه، وتأمله حتى قرأ (آدم يحب ١٢٣) وابتسم محدثًا نفسه: «هذا ما تعلمته مني.. (آدم يحب ١٢٣).. أجل ويجب عليه الآن أن يجد ١٢٣.»

طوى (آدم) الخطاب ووضعه على رزمة الورق ليمسك بالريشة مرة أخرى ثم رسم على ورقةٍ فارغة دائرة قسمها قسمين، وكتب فيهما بالترتيب «أخي اللورد/ السيد (يعقوب).»

ثم حدث نفسه قائلًا: «كل ما توصلت إليه من اللورد ومراقبتي له ولمعاونيه طوال هذه المدة، وجود مكان يسمى (القاع).. يجب علي إيجاده، لا بد أنهم ألحقوا حبيبتي به، أو ربما بأرض الأحلام، يجب على السيد (يعقوب) أن يخبرني كيف أصل إليهم.»

سكن (آدم) للحظات كي يفكر في الأمر ثم حدث نفسه مرة أخرى قائلًا: «يجب علي أن أكون حذرًا، أبي لن يخبرني بالحقيقة، يجب أن أبحث عنها، لا شيء في مكتبه يفيد، يجب أن أتقصى بقية العاملين في البيت، لا بد أن أعرف الطريق من هنا.»

نهض مسرعًا وأعاد كل ما أفرغه من حقيبته كما كان ثم نظر إلى المنضدة الموضوع عليها

الطعام، يبدو أنها لم تكن نظرة عابرة، إنها نظرة جوع، تلتمس أي شيء لتسد جوعها، اتجه تلقائيًا نحوها وأكل في نهم، وحين انتهى من ذلك، خرج مسرعًا تاركًا حقيبته كما هي.

توقف (آدم) فجأة عند باب الخروج من البيت على إثر حركة خلفه، والتفت ليجد الخادمة التي قدمت له الطعام، فقال:

- توقفي.

توقفت الخادمة واتجهت صوب (آدم) ثم انحنت قائلة:

- أمرك يا سيدي.

- ذاك الرجل الذي دخل معي البيت، ما اسمه؟

- إنه سيدي يا سيدي.

- أسأل عن اسمه! اسمي (آدم).. فما اسمه؟!

- إنها خطيئة يا سيدي.

- تبًا، ماذا؟!

- لا يجوز لنا أن نذكر أسماء الأسياد يا سيدي.

- لن أخبر أحدًا، لا شأن لي بدائرة العمل هنا، أعدك.

ارتبكت الخادمة، وبدا الخوف على وجهها، فأيقن (آدم) أنه لا فائدة من الحديث معها محدثًا نفسه: «لا بد أن أجد العجوز.»

وفتح الباب ثم انطلق ليجوب بعينيه المكان من حوله حتى لمح أحد الخدم متجهًا نحو الجهة اليمنى من البيت، تبعه (آدم) حتى وجده يتجه خلف البيت، كاد أن يواصل غير أنه أراد أن يبقى بعيدًا عن هذه الأعين، وظل يراقب الوضع، إنه الرجل الذي يبحث عنه، كما رأى سيدتين ورجلين آخرين برفقته، يجلسون وخلف كلٍ منهم خادم أسود بمظلة تقيه بأس الشمس، ويبعد عنهم قليلًا رجل أمامه منضدة صغيرة، وُضع عليها بعض الأوراق وسجلات وزجاجة حبر وريشة، وقد ظل المشهد رتيبًا صامتًا، لا يتحرك فيه سوى العجوز الذي يمر على الصفوف الثلاثة - الذين جلبهم السيد (فلو) - بالماء ليسقيهم، ومن ورائه خادمان يلتقطان الصحون الفارغة من أمامهم بعد أن حلت قيودهم وتم إيداعهم خلف حواجز تشبه حواجز الماشية. ظل (آدم) يتابع الوضع حتى قتله الفضول ليلتحق بهم علّه يعثر على ومضة ترشده إلى حيث يريد، ففكر أن يذهب إليهم ويتحجج بالعجوز الذي فتح لهم بوابة البيت،

انطلق نحو مقصده ثم صاح قائلًا:

- أيها العجوز.

انتبه الجميع له حتى وقف (فلو) قائلًا:

- إنه ابن السيد (يعقوب).

فهمست إحدى السيدتين للأخرى قائلة:

- إنه وسيم.

كاد (فلو) يتجه صوبه حتى تراجع عن الفكرة ملتفتا إلى أحد الجالسين ثم قال:

- يا (أشهب).. قابله أنت، يبدو أنك تعرفه.

امتثل (أشهب) - عرض منكبيه مع ضخامة بنيانه أيدت ملامح وجهه لتدعو إلى هيبته واحترامه، يبدو من أثر الشيب في رأسه أنه قد تخطى حاجز الخمسين عامًا - لطلب (فلو) واتجه صوب (آدم) قائلًا:

- مرحبًا يا سيدي.

مد (آدم) يده للمصافحة قائلًا:

- مرحبًا.

- هل أستطيع أن ألبي أي أمرٍ لك؟

- أجل، جئت كي أسأل العجوز عن والدي، أرغب في رؤيته لأمرٍ ضروري للغاية.

- يؤسفني أنه لم يترك لي خبرًا بمكانه، ربما يعرف السادة مكانه، هيا لنسألهم.

- حسنًا، أشكرك.

رافق (آدم) (أشهب) لرؤية الباقين، فنهضوا من أماكنهم عدا سيدة ظلت جالسة، فقدم (أشهب) (آدم) قائلًا:

- إنه ابن السيد (يعقوب).. وهذا...

أشار إلى أحدهم ليردف قائلًا:

- إنه السيد (فلو).. المسؤول عن البحرية وكل ما يتعلق بها في الجزيرة.

مد (فلو) يده للمصافحة، فبادله (آدم) الأمر حتى كاد (فلو) أن يجذب يده، فقال (آدم)

مسرعًا:

- التقيته منذ قليل، أشكرك على الطعام، وأعتذر عن سهوي عن حديثك لي، فقد كنت منهكًا شاردًا، أخشى أن يسقط مني الكلام قبل أن ألتقي السيد (يعقوب).

ابتسم (فلو) قائلًا:

- لا بأس، سررت بمعرفتك.

- وأنا أيضًا.

تحدث رجل - قصير القامة، ممتلئ قليلًا، عندما تراه لا تدري إن كان الدهاء يتصدر هيئته أم المكر! وأراد رفاقه الاختباء داخله حتى لا يفتضح أمرهم.. يبدو أنه في طريقه إلى سن الخمسين - قائلًا:

- أما أنا، فاسمي (داغر) ولا أحد هنا يستطيع الاستغناء عني مهما حاولوا هذا.

ثم مد يده للمصافحة، فقال (آدم):

- يتمنى المرء أن يبقى سليمًا لكن المرض يفسد أمنيته تلك، فلا يستطيع الاستغناء عن الطبيب مهما حاول.

أجاب (داغر) في دهشةٍ قائلًا:

- كيف علمت هذا؟! أنت ذكي للغاية!

ابتسم (آدم) فقال (أشهب):

- تمامًا، مثل السيد (يعقوب).. لا عجب في ذلك.

ثم أشار إلى السيدة الواقفة قائلًا:

- وهذه السيدة (شيار).. المسؤولة عن تأهيل الجراثيم للعمل في القصر الملكي.

ابتسمت السيدة (شيار) لتزداد جمالًا فوق جمالها المعلن في عينيها الخضراوين، وشعرها الأشقر، فانحنى (آدم) لها.. ثم أشار (أشهب) إلى السيدة الجالسة قائلًا:

- إنها السيدة (جيان).. المسؤولة عن إعداد مربيات الأمراء الصغار.

فرمقته بوجهٍ عابس ثم نظرت أمامها لتعيد شعرها الأسود القصير خلف أذنيها متظاهرة بأنها غير مكترثة لأمره، رغم أنها كانت مشتعلة غيظًا وحزنًا؛ غيظًا لأنها كانت تنظر بعين السخط والبغض إلى أي شخص تعطيه الحياة فرصة جيدة لحياة مترفة ويرفضها، وكانت

دائمًا ما تعلل ذلك بأنهم لو عاشوا حياة البؤس والشقاء التي قذفت بها إلى هذه الوظيفة التي فرضت عليها قيودًا كثيرة، أقساها ترك العائلة إلى الأبد والعيش داخل هذا البيت كما أنها لم تتزوج، لم تجرؤ على رفضها مطلقًا، وحزنًا لأن (آدم) صادفها في ذكرى قدومها إلى هذا البيت.. ارتبك (آدم) قليلًا، وبدأت (شيار) الحديث في ثبات - حيث أنها تكترث لوظيفتها كثيرًا لأنها محط احترام وتقدير من الجميع ومصدر حياة مترفة لأهلها - قائلة:

- الحظ يرافقنا لأننا نتعرف إليك في ذكرى قدومنا إلى هنا.

ابتسم (آدم) وكاد أن يتحدث لكن (فلو) بادر ممازحًا:

- عمركما (ثلاثة وثلاثون خريفًا).. يجب تذكر هذا.

ثم أردف قائلًا:

- الذكرى الثالثة عشرة لسن قوانين، لا يتبعها غير من يعمل في هذا البيت عدا السيد (يعقوب) والسيدة (ورد).. (لا زواج لا عائلة).

تحدث (أشهب) قائلًا:

- أما أنا، فاسمي (أشهب) المسؤول عن كل قطرة حبر تسيل على ورقة مثل المكاتبات والسجلات والوثائق.

ثم قال الرجل العجوز، الذي بدا أنه أتى تلبيةً لنداء (آدم):

- أمرك يا سيدي.

أجاب (أشهب) قائلًا:

- أيها السادة، لقد أتى السيد (آدم) ليسأل عن مكان والده، هل لديكم أي فكرة؟!

أجاب (داغر) مسرعًا كأنما جاءته فرصة ليقتص من غريمه، والذي بدا أنه اقتصاص ذكاء، لا أكثر:

- علمت أنه قد ذهب ليبحث عن المجنون.

اكتفى (آدم) بابتسامة..

يبدو أن أحدهم تفادى صدام الدهاء هذا، فبدا كلٌ في مكانه وألحق بهم (آدم) الذي يبدو أنه أخذ مكان (أشهب) في المنتصف، وكان خلفه العجوز واقفًا.. بدا (أشهب) واقفًا، يستعد لتوجيه كلمة لهذه الأعين الزائغة التائهة، تكاد تختلس النظر علها تجد شيئًا يحثها على

الاطمئنان، غير أن الأمر بدا غير مطمئن، فالأعين إما تنتهي إلى رجال، يحمل كلٌ منهم سوطًا في يده - وحين تسقط عينا أحدهم على هذا السوط، تبعثان إلى النفس رسالة مكللة بالتهديد والوعيد لمن يرفض أي شيء يُعرض عليه - وإما تنتهي إلى هؤلاء الجالسين أمامهم، يبدو أنهم لطفاء غير أن الناظر لا يمكنه أن يلحظ هذا إذ لا يمكن الفصل بين المشهدين، ولا حتى الجمع بينهما بحرفية مطلقة، إن قراءة المشهد كما هو - منعزل عما يحيط به - ينجرف بك إلى متاهات الباطل، والزيف، والحقائق الناقصة، الوجه الآخر للأمور، السطحية المطلقة، المكان الذي يجبروك أن توضع فيه وما يترتب عليه من مشاعر واتجاه ورؤيه، ومن ثم تصديق ما يرغبون أن تصدقه لينالوا غايتهم إذ لا يمكن للسوط أن يرتفع ويؤدي مهمته المعلنة للفزع والألم لهؤلاء البائسين ليتحقق الخضوع والاستسلام إلا بأمر هؤلاء اللطفاء!

ظل الوضع ساكنًا حتى انتهت خادمة من ردم النهر - المرسوم على ذراع الطفلة - والذي يبدو أنه بأمر السيد (أشهب) الذي اجتمعت الأعين عليه، تترقب ما يريد قوله بعدما أشار إلى الخادمة بالانصراف ثم لاحت ابتسامة هادئة على شفتيه - عله واثق من إعجاب الجمع بحديثه - قائلًا:

- مرحبًا بكم هنا، لكن هنا أين؟! ولماذا أنتم هنا؟! وماذا نريد منكم؟! ولماذا جلبناكم بهذه الطريقة؟! لا بد أن هذه الأسئلة تلح عليكم كثيرًا منذ أن وطأت أقدامكم هذه الأرض الطيبة، سأجيب هذه الأسئلة جميعًا لكن يجب أن أجيب التساؤل الأخير أولًا كي تتضح لكم الأمور وتطمئن قلوبكم، لماذا اتبعنا مثل هذه الطريقة لجلبكم إلى هنا؟! إن لم نفعل هذا لسقطتم في قبضة الطغاة، يتلاعبون بكم كما شاءوا ويمحون إنسانيتكم ويزجون بكم في مدارج العبودية والذل إلى أن ينتهي بكم الأمر إلى الهلاك ثم تعاد القصة من جديد، القصة أكثر رعبًا ودموية مما رأيتموه وعايشتموه منذ أن اقتلعوكم من أرضكم، إنها أفعال حقيرة، تبرأ الإنسانية منها ولا يمكننا أن نغض الطرف عنها، لذلك ننقذكم بهذه الطريقة.

كاد السيد (أشهب) أن يستكمل خطبته تلك حتى قاطعه صوت ذو نبرة تلتمس الأمل من كلماته تلك:

- سيدي، سيدي.

ظل (أشهب) يجوب المكان بعينيه، يتحسس مصدر الصوت الذي قاطعه حتى وقفت الطفلة (صاحبة النهر الأحمر) فرمقها (أشهب) حتى قالت:

- سيدي، شكرًا لأنك ستعيدني إلى أمي وإخوتي من جديد.

أجاب (أشهب) غاضبًا:

- ماذا؟! نعيدكم مرة أخرى! ترغبون في العودة إلى موطنكم! ثم تأتي الغارات من قبل الصيادين مرة أخرى، لكن هذه المرة من يضمن أن ننقذكم! أتدرون أين مثواكم إذًا؟! أنتم لم تروا شيئًا، تلك لم تكن قسوة التي اتبعوها معكم، أتظنين أن ما فعلوه بك قسوة؟! كلا أنتم لم تروا شيئًا.. إنهم وحوش تود أن تنفرد بفريستها، إنهم يرونكم كقطيع الماشية، يسيروه حسبما يريدون دون النظر إلى إنسانيتكم ومشاعركم وحريتكم، حقوقكم وأحلامكم وأمانيكم، هذا إن كنتم تعتقدون أننا نعرف موطنكم، أو أننا نستطيع مواجهة هؤلاء الطغاة، كلا، فنحن نخترق البحر بين الحين والآخر حتى نطمئن ألا يأتي الطغاة إلى جزيرتنا المستترة، بعدما جاءنا رجال ذات يوم، اقتحموا بيتنا، يرتدون زيًا عجيبًا وينطقون حروفًا، لم نبصرها إلا بعد حين، فلما تبين لنا أنهم يفتشون عن الرقع الخضراء والخيرات العامرة ليضموها إلى أوطانهم، أهلكناهم وبتنا نتحسس الخطر بين الحين والآخر في الماء من حولنا، والمصادفة جعلتنا نلتقي فوجدناكم لا تشبهوننا في اللون وإنما في اللغة، فحررنا بعضكم لتخيفهم حتى لا يهلكونا، أما نحن فلا نستعبدكم، ولن نبقي عليكم هنا مدة طويلة حتى إن جاءنا الطغاة، لا يتبين لهم أننا من نفعل هذا.. لكننا لن نترككم، فقد اكتشفنا جزيرة صغيرة، لا تبعد عنا كثيرًا، إنها أرض الأحلام، بعيدًا عن كل خطر.. لكن ستبقون معنا حتى نهيئها لكم، ومقابل هذا ستعملون معنا هنا جزاءً لنا على ذلك، وسيكون عملكم مهمًا، إنها وظيفة الجرثومة، ويالها من وظيفة! يطمح لها الجميع هنا، ولا بد أنكم ستحبونها، إنها مؤقتة حتى ننتهي من أرض الأحلام، والآن لن أرهقكم كثيرًا بكثرة الحديث، فقط أردت أن أطمئنكم، الآن ستدون عددكم لدينا ونودعكم هذا المسكن المؤقت.

أشار (أشهب) إلى كاتبه ليبدأ، ويبدو أن الأمر كان معتادًا للجميع، فقام حاملو السوط بتوجيه الصفوف الثلاثة إلى الوقوف والاستدارة، وامتثلت الصفوف دون أي اعتراض، فبعضهم مقتنع مؤيد ومرحب بحديث السيد (أشهب).. يمتلك أملًا وأحلامًا، بدأ يرسمها على أرض الأحلام، والبعض متردد مرتاب، ربما لم يستحسن الحديث أو ربما وطنه بمشاكله تلك أحب إليه من أرض الأحلام إلا أنه مستسلم، لا يمتلك جرأة الاعتراض، والبعض لا يكترث لما يحدث، فسيعيش مهما حدث وعلى أي حال، أما هؤلاء القلة المدركة لكل شيء يحدث حولهم - الذين يدركون الحقائق الخفية خلف الأحاديث الواعدة والأحداث الجارية - إن وُجدوا بينهم سيصبح عددهم واحدًا أو اثنين، ولو كانوا أكثر لما تركوا الأهواء تتقاذفهم حيث لا يدروا!

- الجرثومة ٥٦٦،

هكذا نادى الكاتب، فوجه إليه أول صف الرجال وقام أحد الحرس بإعطائه هذا القميص الأسود الذي كتب عليه (الجرثومة ٥٦٦) ثم وجه ليصنع صفًا جديدًا، وأخذ الكاتب ينادي بالترتيب ويعاد الفعل حتى قاطع (داغر) شرود (آدم) قائلًا:

- إنهم أقوياء، سيصبحون أفضل من هؤلاء الهرمين قبل موعدهم.

قال (آدم) في سرعة كأنه قد لمس خيطًا جديدًا:

- وأين يذهب هؤلاء الهرمون؟!

رمقه (داغر) قائلًا:

- إلى حيث يقبع أمثالهم.

أجاب (آدم) قائلًا:

- إلى أرض الأحلام؟!

- لا أعلم.

خيم السكون من جديد على المشهد، لا يتخلله سوى صوت الكاتب لينادي من يحين دوره حتى جاء دور الطفلة الأخيرة (صاحبة النهر) إنها (الجرثومة ٦٣٠) فقالت السيدة (شيان):

- تلك اللعينة متمردة يا سيد (فلو).

- ماذا؟!

- هذه اللعينة ستسبب الكثير من المتاعب.

- لا بد أن أنقلها مع البقية قريبًا.

تحدث (داغر) قائلًا:

- متى؟!

أجاب (فلو):

- ربما غدًا أو بعد غد، عندما يأتي السيد (يعقوب).

قال (آدم) محدثًا نفسه: «أخيرًا، لا بد أن أتتبع كل شيء هنا، من يأتي بك أيها السيد (يعقوب)؟!»

* * * *

(3)

لم يعد هناك أثر للشمس، فقد لملمت أشعتها وارتحلت لتؤدي مهامها الفعالة في بقاعٍ أخرى، حل مكانها ذاك الهادئ المطمئن، القريب إلى المحبين، والسائحين في الأرض خلف لقمة العيش، وأيضًا للشعراء المتغزلين، إنه القمر، الدال على السكينة، وتعطيل حركة الحياة على هذه الجزيرة، فيبدو أن قدومه إعلان واضح للهدوء التام، والارتكان إلى الراحة، فأصبح كل شيءٍ هادئًا في هذا البيت بعدما أودع الصفوف الثلاثة في حجرات تنقص عن عددهم بحجرة في الجهة اليمنى قريبًا من البيت لينفضوا عن كاهلهم أعباء المغامرة والسفر والمستقبل الغير مدرك المختصر في أرض الاحلام، والأقل من ذلك والاكثر، قد يكون ترحيبًا بالمستقبل المشرق بعيدًا عن قبضة الطغاة، والاكثر من ذلك قد يكون الأعباء النفسية المتزاحمة على هؤلاء منذ اقتلاعهم من أوطانهم، وعلى اختلافها وتعددها وكبرها وصغرها، فإن أصغرها كفيل بأن يُسقط أقوى جسد ويزج به في مدارج الإعياء المستسلم للنوم العميق إذ لا حيلة سوى هذا في مثل هذا الوضع، وما أسوأ هذا مع ذاك المتأصل في النفوس، ويبدو أن السيد (يعقوب) لم يعد بعد، وما زال يفتش عن المجنون، والمجنون (آدم) ينتهز الفرصة ويفتش غرفة السيد (يعقوب) بعدما انتقل إليها لأن الابن أحق بما يمتلكه أبوه، إلا أنه بدا أكثر تنظيمًا، فكل شيءٍ يزيحه عن مكانه يرجعه مرة أخرى كما كان، عله أراد ألا يفتضح أمره أو أنه رأى أن الهدوء أفضل من العاصفة ليستطيع التصرف بحكمة ويتمكن من غايته، انتهى (آدم) من تفتيش المكان المخصص للكتب والأوراق، وأخذ يجوب بعينيه المكان باحثًا عن موضع آخر للبحث إلا أنه لا فائدة من ذلك، فالغرفة على اتساعها، تحوي هذا السرير والمنضدة الصغيرة، يوجد حولها مقعدان وبضعة أرفف، تحمل بعض الكتب والأوراق، تعلو هذا الصندوق الذي يحتوي بعض الملابس، فما كان من (آدم) إلا أن يجلس على أحد المقعدين مفلتًا لجام التفكير ليأخذه حيث يشاء، قُرع الباب، فانتبه (آدم) ونهض مسرعًا، فتحه ليرى الرجل العجوز، يحمل طعامًا، فابتسم قائلًا:

- سيدي، جئت إليك بوجبة العشاء.

أجاب (آدم) مسرعًا:

- لا.. لا سأتناول مع بقية السادة وجبة العشاء تلك.. إنهم لطفاء، يمكنك إخبارهم برغبتي تلك.

- سيدي، العشاء يكون منفردًا في الغرف الخاصة، السيد (يعقوب) يفضل ذلك ومن ثم ف...

قاطعه (آدم) قائلًا:

- حسنًا، هيا ادخل.

ثم اتجه إلى موضعه السابق، ولحق به العجوز واضعًا الطعام على المنضدة ثم قال:

- طاب مساؤك يا سيدي، هل ترغب في شيءٍ آخر؟

- أجل، اجلس لكن اغلق الباب أولًا.

- سيدي، هذا لا يجوز، نحن...

قاطعه (آدم) قائلًا:

- أتظن أني أشبههم؟ أنا لست سيدك ولا أشبهه.. إن كنت تظن هذا.. انصرف أفضل، وإلا فاجلس ولا حرج في كلا الأمرين.

اتجه العجوز نحو الباب وأغلقه ثم عاد فجلس بجوار (آدم) قائلًا:

- أشعر أنك لا تشبههم.. لكن كل شيءٍ يتبدل.

- لم لا يكون التبدل إلى الأفضل؟!

- إن كان كل شيءٍ في مواجهتك، فكيف يكون هذا الأفضل؟!

- إنك تكرههم إذًا.

- ألا يحق لي؟!

- لا.. لكنك مميز، تعيش هنا رغم أن القانون لا يتيح لمن بلغ منكم سن الكهولة أن يبقى هنا، كما أعتقد أن معاملتك مميزة عن البقية، تعيش حياة فارهة مقارنةً بالبقية، ألا يدفعك هذا لأن تحبهم وتحب هذه الجزيرة؟!

انتفض العجوز قائلًا في نبرةٍ غاضبة:

- لا.. لا، أنا أكرهكم جميعًا، ولا أنسى أبدًا يوم أن اقتلعنا السفلة من وطننا، وجئتم لتنهبوا غنيمتهم كأننا قطيع من الماشية، تمنون علينا بهذا، تظنون أنكم تحسنون لنا وأنتم تغتالوننا كل دقيقة، إنكم كاذبون، لصوص، قتلة، كلما سمعت الخطبة العظيمة عن بطولاتكم في حمايتنا من هؤلاء الطغاة، ألعنكم وأبغضكم أكثر، أنا فقط أعيش لأرى نهايتكم.

سكن العجوز لحظة عندما توقف ناظرًا إلى (آدم).. عله استفاق بنظرته تلك التي نبهته، واستفاق (آدم) من دهشته لهذه النوبة الجنونية التي دفعت العجوز لقول هذا، فقال:

- يبدو أنك عانيت كثيرًا، لم أكن أقصد أي شيء، فقد أردت أن...

قاطعه العجوز قائلًا:

- سيدي، أعتذر.. لم أكن أقصد.

- ماذا؟! كيف لك أن تتحول من غضبك وسخطك بهذه السهولة؟

أجهش العجوز بالبكاء قائلًا:

- كل شيء هنا يجوز، لا بد أن أنصرف.

هم العجوز بالانطلاق حتى أوقفه (آدم) قائلًا:

- أصغ لي أيها العجوز، أشعر بما تشعر به، إنني أبحث عن أرض الأحلام تلك، وأرغب في الذهاب إليها، أود مساعدتك لي!

- لا أعلم أكثر منكم يا سيدي، لم أغادر هذا البيت منذ قدمت إليه.

- كيف أعرف مكانه؟!

- من كان والده السيد (يعقوب) يستطيع أن يعرف كل شيء.

- لن يخبرني.

نظر إليه العجوز في دهشة، فأردف (آدم) قائلًا:

- سأبوح لك مثلما فعلت.

أخرج منديلًا من جيبه ثم بسطه ليقرأ «آدم يحب ١٢٣»

- أحببت الجرثومة ١٢٣ وعندما علم أخي اللورد، اختفت ولم أعثر لها على أثر منذ تلك الليلة.

كاد أن يكمل حديثه لكن قاطعه العجوز قائلًا:

- قتلتها؟!

- ماذا؟! لا.. لا، أنا أحبها، لا بد أنها نقلت إلى أرض الأحلام.

- لا.. لا بل قتلتها بحبك، إنك أيضًا قاتل.

قالها غاضبًا ثم أمسك ياقة قميصه صارخًا:

- أنت قاتل مثلهم، لمَ لم تتركها كي تعيش؟! إنك قاتل.. قاتل.

استفاق العجوز حين سمع طرقات الباب، فأزاح يده عن (آدم) وأسرع ليفتح الباب، فقالت الخادمة:

- جاء السيد (يعقوب).. أخبر سيدك.

ثم همست:

- ما هذه الأصوات المرتفعة؟!!

سمع (آدم) الخبر، فانطلق للقاء السيد (يعقوب).. وصل أمام مكتب السيد (يعقوب).. كاد أن يفتح الباب حتى فتحه رجل يرتدي زيًا، يبدو أنه عسكري لأن الأوسمة كانت تزينه، تجاوز (آدم) فتبعه رجل - عندما تراه ستدرك أنه على صلة قرابة قوية بـــ (آدم) للحد الذي يجعلك تعتقد أن (آدم) نسخة مصغرة عنه إلا أنه كان نسخة وسيمة جذابة ربما لأن (آدم) لم يرث منه الأنف المفلطح ولا شعره الخفيف - إنه السيد (يعقوب) الذي اقترب من (آدم) هامسًا:

- أيها الأحمق، إياك أن تغادر المكان قبل أن أعود، كن حذرًا هذه المرة يا (آدم).

همس (آدم) ساخرًا:

- ستقتلني أم سأنتقل إلى أرض الأحلام؟

- لن أقتلك حتى لا يقول الناس «قتل السيد ابنه المجنون» لكن يمكنني أن أعطي أوامري بقتل ١٢٣.

ثم غادر مسرعًا حين قال مشيرًا إلى الخادمة:

- أخبري السادة أني برفقة الملك، قد أعود الليلة أو غدًا.

سكن (آدم) لبضع لحظات حتى خرج السيد (يعقوب) من البيت، واقترب من العجوز هامسًا:

- لست قاتلًا، ما زالت حية، سأعثر عليها قريبًا، فقط أود أن تفعل شيئًا يدل على صدق غضبك أيها العجوز، اتبعني.

اتجه (آدم) صوب غرفة مكتب السيد (يعقوب).. تبعه العجوز، فأشار له (آدم) بغلق الباب ثم زفر مبتهجًا كأنما أزاح كل شيء يثقله وحصل على الراحة أخيرًا ثم قال:

- كان هناك شيء في داخلي، يرغب في البوح لي بفاجعة، وكنت أكتمه، أهرب منه بشتى

السبل، أراد أن يخبرني أن ١٢٣ قُتلت بتهمة الحب، أنت الليلة كدت توقظه أيها العجوز، لولا أن أخبرني السيد (يعقوب) أنها حية لأصبحت في مأتم الليلة.

نظر (آدم) إلى العجوز مشيرًا إليه بالجلوس ثم أردف قائلًا:

- إنها على قيد الحياة، ويجب أن أعثر عليها، يجب عليك مساعدتي إن كنت محقًا في حديثك السابق.

أجاب العجوز قائلًا:

- لا أعلم، لكن ليس كل ما يقال يصدق.

- لا أتوسل إليك، إنها حية، يجب عليك فقط مساعدتي.

- يبدو أنك مصر على إثبات أنك لست مثلهم، السادة لا يطلبون منا المساعدة بل يأمروننا.

- وإن كان أمر، من تساعد ضد من يعلوه؟

- التهديد، الوعيد، وأساليبهم في جعل الذعر يتمكن من قلوبنا، فنطيع، وفي كلا الأمرين لدينا يقين بأن الهلاك متوانا.

- لذلك أطلب المساعدة، إن شئت فعلت وإن شئت لم تفعل.

- إن قبلت، ماذا تريد أن أفعل؟!

- قريبًا سينتقل جمع من الجرائيم إلى أرض الأحلام، وبما أن السيد (يعقوب) ما زال يبقي على ١٢٣، فلا بد أنها هناك، كل ما أريده الموعد المحدد لذلك حتى أتمكن من ملاحقتهم.

- وكيف لي ذلك؟! هذا يخص السادة، وأمرهم بيد السيد (يعقوب).. هو من يقرر ذلك.

- لا بد أن تجيد الإصغاء إلى ما يدور، وتخبرني فقط لا أكثر.

- سيدي.. هذا إن كان يسيرًا على اللسان، فإنه ثقيل التنفيذ.

- أرجوك، فقط حاول.

سكن العجوز ليفكر ثم قال:

- حسنًا سأفعل.. لكن يا سيدي إن فضح الأمر، لا تتركني أواجه وحدي، ما زلت ألتمس بضعة أنفاس من الحياة.

نهض (آدم) مبتسمًا ثم ربت على كتف العجوز قائلًا:

السبل، أراد أن يخبرني أن ١٢٣ قُتلت بتهمة الحب، أنت الليلة كدت توقظه أيها العجوز، لولا أن أخبرني السيد (يعقوب) أنها حية لأصبحت في مأتم الليلة.

نظر (آدم) إلى العجوز مشيرًا إليه بالجلوس ثم أردف قائلًا:

- إنها على قيد الحياة، ويجب أن أعثر عليها، يجب عليك مساعدتي إن كنت محقًّا في حديثك السابق.

أجاب العجوز قائلًا:

- لا أعلم، لكن ليس كل ما يقال يصدق.

- لا أتوسل إليك، إنها حية، يجب عليك فقط مساعدتي.

- يبدو أنك مصر على إثبات أنك لست مثلهم، السادة لا يطلبون منا المساعدة بل يأمروننا.

- وإن كان أمر، من تساعد ضد من يعلوه؟

- التهديد، الوعيد، وأساليبهم في جعل الذعر يتمكن من قلوبنا، فنطيع، وفي كلا الأمرين لدينا يقين بأن الهلاك مثوانا.

- لذلك أطلب المساعدة، إن شئت فعلت وإن شئت لم تفعل.

- إن قبلت، ماذا تريد أن أفعل؟!

- قريبًا سينتقل جمع من الجرائيم إلى أرض الأحلام، وبما أن السيد (يعقوب) ما زال يبقي على ١٢٣، فلا بد أنها هناك، كل ما أريده الموعد المحدد لذلك حتى أتمكن من ملاحقتهم.

- وكيف لي ذلك؟! هذا يخص السادة، وأمرهم بيد السيد (يعقوب).. هو من يقرر ذلك.

- لا بد أن تجيد الإصغاء إلى ما يدور، وتخبرني فقط لا أكثر.

- سيدي.. هذا إن كان يسيرًا على اللسان، فإنه ثقيل التنفيذ.

- أرجوك، فقط حاول.

سكن العجوز ليفكر ثم قال:

- حسنًا سأفعل.. لكن يا سيدي إن فضح الأمر، لا تتركني أواجه وحدي، ما زلت ألتمس بضعة أنفاس من الحياة.

نهض (آدم) مبتسمًا ثم ربت على كتف العجوز قائلًا:

- أشكرك.

وصل (آدم) إلى غرفة السيد (يعقوب) ثم أغلق الباب واستلقى على الفراش محدقًا إلى أعلى ثم نهض فجأة ليجوب بعينيه المكان حتى لمح ظلًا على أحد الجدران، فصاح قائلًا:

- من؟!

سمع صوت ارتطام كأنما سقط أحدهم محاولًا الهروب بعدما اكتشف أمره، هكذا فكر (آدم) فنهض مسرعًا، اتجه نحو الباب بعدما جاب بعينيه الغرفة، فلم يجد شيئًا، فتحه ليجوب بعينيه، فلم يلمح شيئًا وحتى لم يسمع صوت الأرجل على الدرج، زفر ولم يكترث كثيرًا لهذا، أغلق الباب ثم جلب مقعدًا ووضعه خلف الباب، اتجه نحو أحد الأرفف المجهزة للإضاءة وتناول شمعة وضعت على حامل خشبي، يسهل عملية نقله، بدأ يجوب بها المكان، عله يعثر على شيء يدله على حقيقة ما حدث لكنه لم يعثر على شيء، أعاد الشمعة إلى موضعها ثم عاد إلى الفراش كما كان، وفكر فيما حدث حتى حدث نفسه قائلًا:

- ربما توهمت هذا، لا بأس، فقد كانت مدة مليئة بالصراعات النفسية، ربما يكون من أثرها، وإن لم يكن لا بأس أيضًا، فليس لي علاقة هنا، تدفع أحدهم ليفعل بي شيئًا.

استسلم (آدم) للنوم، مضى ثلاث ساعات بينما يغط في نومه غير أن هذا الوضع لم يستمر طويلًا، فانتفض من نومه صارخًا:

- لا!!!!

كاد يلتقط أنفاسه بعدما علم أنه كان حلمًا مزعجًا إلا أن صوت سقوط شيء في الغرفة، جعله ينهض فجأة، لمح طيفًا، لم يدرك كيف اختفى فجأة! ثم

سمع صوت اصطدام آخر، فصاح قائلًا:

- من؟!

ركض نحو مصدر الصوت، فلم يجد شيئًا، ركض نحو الباب، فوجد المقعد كما هو خلف الباب ثم هرول نحو مصدر الضوء والتقط الشمعة راكضًا نحو الأرفف الأربع المخصصة للإضاءة، بدأ يضيء الشموع حتى عم الضوء الغرفة، جاب بعينيه المكان حتى لمح المقعد الآخر ملقى على الأرض، فاتجه مسرعًا نحو النافذة ليجدها مغلقة، ركض نحو صندوق الملابس وفتحه ليجده على حالته، زفر ثم اتجه نحو المنضدة، بدا الفزع على وجهه وتراجع خطوه للخلف ثم تقدم مرة أخرى والتقط أحد الصحون الفارغة، أعاد الصحن إلى موضعه ثم هيأ الكرسي للجلوس وجلس عليه يفكر. «كيف هذا؟! لم أتناول شيئًا؟ إذا كان الباب مغلقًا

وأيضًا النافذة، فكيف استطاع أحدهم الدخول والخروج؟!»

هذه الأسئلة دارت في رأس (آدم) حتى زفر ليحدث نفسه قائلًا: «لا بد أنني أتوهم، ربما كان هذا أثر الحلم المزعج، أما الطعام والمقعد، فربما تسلل أحد الخدم ليتناوله وكاد أن يكشف أمره، فركض مسرعًا أثناء ذهابي للقاء السيد (يعقوب) أو محاورتي للعجوز، ربما لم أنتبه لهذا فور وصولي.»

هكذا أراد (آدم) أن يطمئن نفسه بأن كل شيء على ما يرام إلا أنه تساءل هامسًا: «من يجرؤ على فعل هذا في حجرة السيد؟! ولمَ والمطبخ يعج بالطعام؟! هذا أمر غير منطقي!». هكذا بدأ (آدم) يفكر في الأمر حتى نهض بعدما غلبه النوم واتجه نحو الفراش ليستلقي عليه.

* * * *

(4)

ربما اقترب موعد رحيل هذا القمر الساكن، ومجيء الشمس الساطعة محله، وذلك لأن السيد (يعقوب) امتطى جوادًا برفقة رجل - متوسط القامة، ممتلئ الوجه، يزينه عينان خضراوان، ولحية خفيفة، وأنف صغير كحبة الكرز، تجعل شكله وسيمًا رغم بدانته وشعره الممتلئ بعلامات الشيب - يمتطي هو الآخر جوادًا، توقف السيد (يعقوب) على إثر سماع صوت الرجل الآخر قائلًا:

- كلما أصل إلى هنا، أشعر بالراحة، وكأن كل شيء سقط فجأة لأعود طفلًا يرى الحياة بعين البراءة.

ثم زفر كأنما أيد بذلك هذه الأحرف، نزل عن جواده وأمسك لجام الجواد الآخر ثم مد يده إلى الرجل ليساعده في النزول قائلًا:

- سيدي الملك.

امتثل الملك ليد (يعقوب) الراجية لنيل شرف مساعدة الملك في النزول.. ثم زفر قائلًا:

- أشعر بالدهشة يا (يعقوب)!

ابتسم (يعقوب) قائلًا:

- أرجو رضاك يا سيدي.

- أنت تصيب دائمًا يا (يعقوب).. لكن كيف علمت أنني أرغب أن أنزل عن جوادي هنا ونحن لم نصل بعد إلى مقصدنا؟!

- لا عجب في هذا، فهناك بعض الدلالات، تبطئ بجوادك فجأة رغم عجلتك ثم تشرد.. نظرتك إلى أرجل الخيل، هكذا فطنت.

- الأفضل أن تشعر بي كصديق.

- هناك ما يمنع كلانا من الالتفات لمثل هذه العلاقات.

تنهد الملك ثم قال:

- يمنعني أنا فقط، يمكنك أن تكون صداقات مع من تحب، أما أنا فلا يمكنني هذا، أن تكون ملكًا، أمر له ضريبته...

ثم توقف الملك عن سيره ناظرًا إلى (يعقوب) ليردف قائلًا:

- (يعقوب).. ماذا تظن برجل اطلع على الحياة بعيني غيره، أجبرته ثروة أبيه على أن يسلك مسلكه، بغض النظر عنه وعن أحلامه وطموحاته ومواهبه وقدراته الفعلية؟ كل هذا من أجل الإرث، ماذا تظنه يفعل؟!

- هذا يتوقف على ماهية هذا الإرث؟! وعلى قدرات الوارث.

- ماذا لو كان الإرث أموالًا طائلة، وملكًا واسعًا، ونفوذًا وسلطة مطلقة، لكن كل هذا مشروط بأحكام معينة ومحددة، تفرض على المرء حياة معينة.

- الأموال والسلطة والملك دعائم لكل شيء يطمح إليه المرء، ومعزز لكل قدراته ومواهبه ولا بأس إن لم يكن لديه قدرات ومواهب، فهي مواهبه وقدراته.

- وماذا عن السعادة؟!

- السعادة.. يا ويلي! هم جل السعادة.

تابع الملك سيره ثم زفر ليتساءل قائلًا:

- هل تشعر بالسعادة يا (يعقوب)؟!

أجابه دون تردد:

- ما دمت برفقتكم يا سيدي.

- دعك مني، أسألك عن (يعقوب) المجرد من كل شيء.. هل هو سعيد؟!

- وكيف لـ (يعقوب) أن يكون سعيدًا في وجود ابن كـ (آدم)؟! لكن عداه يمكنني أن أشعر بهذا.

- لمَ؟!

- يد الملك اليمنى على حد تعبير الملك نفسه، سلطة وثروة.

- العجيب أن ملكك هذا، لا يشعر بما تشعر يا (يعقوب)!

- كيف؟!

- لا بأس.. دعك من هذا الآن، أخبرني عن (آدم).. ماذا به؟!

- جن، أشعر أن شعوذة مارقة تسبح داخل جسده!

- لم يلتحق بالجيش كـ (أركان)؟

- لم يفلح في شيء طوال حياته، لا يعبأ بشيء، يسيح في الدنيا عبثًا ليشقيني فقط.

- أنت تناقض نفسك يا (يعقوب).. كيف تعتقد أن المال والجاه والسلطان، دعائم لكل شيء، وتقول أن ابنك لم يفلح في شيء؟!

- لأنه زاهد في كل شيء، لا يكترث لهذا كله، لو شاء لأصبح رجلًا ذا شأن لكن هيهات.

صمت (يعقوب) للحظات لأن الحزن اعتلى وجهه ثم أردف قائلًا:

- تغير كثيرًا، كان مرحًا، يحب الجميع ويتودد إليهم، لكن فجأة اعتزل الجميع.

- لم تشك منه من قبل يا (يعقوب)!

- كنت أظنه سيهتدي يومًا.

- لماذا فقدت الأمل؟!

- نحن لا نفقد الأمل يا سيدي إطلاقًا بل نصنعه.

- قتلتها إذًا يا (يعقوب)!

- من يا سيدي؟

- السعادة.. إن شئت القول.

- ماذا؟!

- ماذا فعلتم بالجرثومة ١٢٣ يا (يعقوب)؟!

توقف (يعقوب) عن السير وجمد محله، فتوقف الملك ورمق (يعقوب) قائلًا:

- يجب علينا أن نستمر يا (يعقوب).. الشمس لن تقف لنحركها حسب أهوائنا.

تابع الملك سيره، ولحق به (يعقوب) فقال الملك:

- ما زلت أنتظر إجابة يا (يعقوب).

- لا أدري ماذا فعل بها حقًا! اللورد (أركان) هو من تولى الأمر.

سكن الملك لحظات ثم قال في نبرةٍ يشوبها الحزن:

- إذا قضى عليها، لماذا أخفيت الأمر عني؟!

- يا سيدي، لم أرغب أن أعكر صفو بالكم بهذه الأمور.

- هل علم (آدم) بمصيرها؟

- كلا.. إنه عنيد، يكاد يتحسس الأمل في كل خطوة يخطوها.

تنهد الملك ثم أخذ اللجام من يد (يعقوب) وامتطى جواده، فتبعه (يعقوب) في فعلته وانطلقا مسرعين.

توقفت الأحصنة بعد مدة يسيرة ثم اتجه الملك صوب بيت متواضع، لا يليق بالرجل الأول في الجزيرة ولا حتى بساعده الأيمن، ابتسم الملك ابتهاجًا لرؤية أحدهم، يجلس أمام البيت وأمامه موقد، فوقه إناء، اتجه صوبه في حماسة، ويبدو أن الرجل لم ينتبه لقدوم الملك - كان منهمكًا فيما يفعل - إلا عندما قال:

- كأنك تعلم بقدومي إليك.

أزاح الرجل بصره عما يفعل ليدرك مصدر الصوت، وحين وقعت عيناه على الملك، عبس وجهه وعاد إلى وضعه السابق غير عابئ بأمره، فبدت علامات التعجب على وجه الملك حتى وقف أمام الرجل قائلًا:

- (زهير)!

وقف الرجل طويل القامة، لا يوجد شيء في رأسه يدل على عمره، فقد كان خاليًا من الشعر إلا أن السنوات المتعاقبة ترافق ملامحنا لتنذرنا أو تواسينا بأن الرحيل قد اقترب، فقد بدا أنه في الستين من عمره، ويبدو أنه لم يقف امتثالًا لنداء الملك أو تبجيله أو حتى ابتهاجًا لرؤيته - حتى لو كان نفاقًا - فيبدو أنه انتهى من إعداد الطعام، فكان في إناء يطبق عليه بيديه ثم قال في نبرة غاضبة:

- ماذا تريد يا (ألكسندر)؟!

بدت علامات الدهشة على ملامح الملك.. إلا أن الرجل (زهير) لم يدع مجالًا له كي يطلب تفسيرًا لما قاله، فقد هم بفتح باب بيته ودخل مسرعًا، كاد الملك يتبعه حتى أوقفه صوت (يعقوب) قائلًا:

- سيدي، لقد لمحت (زهير) يقف معكم ثم ترككم مسرعًا، ما الخطب؟!

أجابه الملك قائلًا:

- إن لم يكن الجواب لديك يا (يعقوب)! فمن يدري إذًا؟! اتبعني.

دخلا البيت حتى أدركا قصدهما في غرفته الوحيدة، وحين وقعت أعينهما على (زهير) لم

يحركا ساكنًا، بل كانا فقط يحدقان، علها الصدمة أو المفاجأة، فقد كان (زهير) يطعم طفلًا أسود اللون ثم صاح (يعقوب) قائلًا:

- ماذا تفعل يا (زهير)؟!!

ارتعد الطفل لوجودهما، وحين وقعت عينا الملك عليه، أمسك بيد (يعقوب) ليخرجا، طمأن (زهير) الطفل كي ينام ثم لحق بالمنتظرين خارجًا، وجلس في مقابلة الملك الذي كان يتكئ على شجرة بجوار البيت، بادرهما (زهير) قائلًا:

- ماذا؟!

أجاب (يعقوب) غاضبًا:

- ماذا؟! من أين أتيت بهذه الجرثومة؟!

- يؤسفني القول بأني اشتريتها اليوم.

تحدث (يعقوب) ساخرًا:

- لم يعلن عن مزاد لبيع الجراثيم اليوم كما أنه ليس للعامة حق في هذا إلا بقدر محدود ومشروط، فكيف؟!

- أتظنني من العامة؟! أنت تتناسى أنني كنت (لورد) ولو لم أرحل لأصبحت اليوم مكان أحدهم، يضعني في غير موضعي إهانة لي، ولا يوجد لدي حرج للالتحاق به.

- لم أقصد هذا، وإنما هول المفاجأة اجتذبني ل... لا بد أن تنسى الأمر، أعتذر لك، أنت تعرفني.

- في الصباح، ذبحت امرأة سوداء أو جرثومة كما اعتدتم القول، وكان جرمها أنها طلبت الدواء لابنها المريض، وبالطبع واجهت العقاب جزاءً لهذا الطلب الغير مغفور، فلما خشيت على ولدها أن يهلك، ثارت.. فأخمدوا ثورتها تلك بالذبح أمام طفلها، هذا ما أعلنته الجهة المختصة عن حماية حقوق السادة من هؤلاء الجراثيم إضافةً إلى مزاد استثنائي لبيع هذا الطفل، وعلى إثر علاقتي بالملك، حصلت عليه.

زفر (زهير) ثم أردف قائلًا:

- عجبًا يا (يعقوب).. هناك حدث في الجزيرة، لم تنتبه إليه!

ابتسم الملك قائلًا في نبرة ساخرة:

- إنه هائم خلف ابنه العاشق، ولو علمت هذه الجهة التي أصدرت أمر الذبح بأمر ابنه لأودعوه سبل الخيانة والعصيان.

سأل (زهير) ساخرًا:

- ومن يجرؤ على المساس بابن السيد (يعقوب)؟

أجاب (يعقوب) قائلًا:

- نحن على أعتاب حكم جديد، ننتظر وليًا للعهد قريبًا.

سأل الملك:

- متى يأتي هذا العهد؟

أجاب (زهير) قائلًا:

- لا تقلق يا (ألكسندر).. الملوك لا يموتون سريعًا، ماذا عن ابنك يا (يعقوب)؟!

- لا شيء.. دعك منه الآن.

أجاب الملك قائلًا:

- يحب جرثومة، وافتضح أمره، فدبر أمرها من قبل أخيه، و(يعقوب) يحاول جمع شتات ولده.

ابتسم (زهير) قائلًا:

- هكذا إذًا.. ماذا عنك يا (ألكسندر)؟!

- لا شيء، أشعر بالملل فقط.

- و(الجرثومة صفر)؟!

- (يعقوب) يعلم كل شيء عنها.

تحدث (يعقوب) قائلًا:

- كل شيء يسير كما تريد يا سيدي، لكن...

حدقًا إلى (يعقوب) فأردف قائلًا:

- السيدة (ورد) حالتها سيئة، يبدو أنها ستودعنا قريبًا.

صاح الملك غاضبًا:

- تبًا يا (يعقوب)! لمَ لم تخبرني بأمرها؟!

أجاب (زهير) قائلًا:

- لقد هرمت، لكن من يتولى الأمر عوضًا عنها؟! هذا ما يجب أن تفكرا فيه الآن.

أردف (يعقوب) قائلًا:

- كنت أفكر في (شيار).

سأل الملك:

- أتتولى منصبين؟

أجاب (زهير) محذرًا:

- ابتعد عمن يبحث عن السلطة، فهذا الصنف يكون طامعًا في المزيد.

قال الملك:

- (زهير).

أجاب (زهير):

- ماذا؟!

أردف الملك قائلًا:

- أقصد أنت من يصلح لهذا المنصب.

قال (يعقوب):

- حقًا.

لاحت ابتسامة على وجه (زهير) ثم قال:

- لا.. لا، أنتما تعلمان أني اعتزلت الأمر كله منذ أعوام.

تحدث (يعقوب) قائلًا:

- ستضمن بقاء الجرثومة معك، فلن تتيح لك رابطة حماية السادة بقاءه معك كثيرًا.

قال الملك:

- إن لم يكن أنت، فمن أأتمن إذًا؟!

تحدث (زهير) قائلًا:

- كن عمليًا في تفكيرك لا عاطفيًا، وأنت كذلك يا (يعقوب)، إن أردتما الاطمئنان على الأمور بأن تسير كما هي الآن، فعليكما أن تعدا ولي العهد جيدًا لهذا وتعدا أحدًا مثل (يعقوب) بالنسبة للملك.

سأل (يعقوب):

- ماذا تقصد؟!

أجاب (زهير):

- ابنك اسمه (آدم).. أليس كذلك؟!

- لا.. لا، إنك تهذي!

- فكر في الأمر، ستضمن بقاء ابنك معك وتؤمن له منصبًا جيدًا، أما هو فبعد تجربته تلك، سيكترث لتلك الأمانة.

- لا.. لا، أنت لا تعرفه، إنه طائش، جريء، متمرد.

تحدث الملك قائلًا:

- أجل يا (زهير).. أصبت الرأي.

قال (يعقوب) نافيًا:

- سيدي.. لا.. لا، لن يفلح.

أجاب الملك:

- لنجرب يا (يعقوب).. جربه في منصب أولًا ثم نرى، وبهذا تضمن توقفه عن إحداث المشاكل لك كما أنه صديق لابني (ولي العهد).

قال (زهير):

- فقط يجب عليك أن تجره ليفعل، لا تأمره، يمكنك بالحيلة أن تجعله يظن أنه يفعل هذا من أجل ما يريد، وليس من أجل ما تريد أنت.

تحدث الملك قائلًا:

- القرار لك يا (يعقوب).. لكن أرجو أن تفعل.

زفر (يعقوب) ثم قال:

- حسنًا، سأفكر في الأمر.

ابتسم الملك قائلًا:

- يبدو أن الشمس لن تتيح لنا مدة أطول، هيا يا (يعقوب).. لا بد أن نعود.

وقف (يعقوب) و(زهير).. فقال (زهير):

- حسنًا أيها الملك، نلتقي قريبًا.

أجاب الملك:

- أرجو أن تبادر أنت.

- حينها سأكون ساعيًا لرؤية الملك، لا.. صديقي.

- حسنًا يا صديقي، إلى اللقاء.

ويبدو أن (يعقوب) قد هم، فجلب الحصانين ثم انطلقا.

* * * *

(5)

دبت الحركة داخل هذا البيت على إثر شروق الشمس من جديد، فبدت إحدى الخادمات أمام غرفة مكتب السيد (يعقوب).. فتحت الباب ثم دفعته خلفها، ففزع لهذه الدفعة القوية السيد (يعقوب) الذي صاح قائلًا:

- ماذا؟!!

يبدو أنه قد نام على مقعد مكتبه، فأصاب الذعر قلب الخادمة، وبدا واضحًا في رجفتها وعلى وجهها، فرمقها (يعقوب) متسائلًا:

- ماذا تريدين؟!

أجابت في خوفٍ قائلة:

- سيدي، جئت لتنظيف الغرفة، ولم أكن...

أشار (يعقوب) لها بيده لتصمت وزفر ثم نهض وخرج من الغرفة، قابله السيد (أشهب) الذي ابتسم قائلًا:

- سيدي، مرحبًا.. لقد عاد (فلو) ومعه غنيمة رائعة، أظن أنه حان وقت التخلص من هؤلاء الهرمين عديمي النفع.

أجاب (يعقوب) قائلًا:

- في المساء، نقرر هذا الأمر، أخبر البقية.

كاد (يعقوب) أن يرحل حتى أوقفه (أشهب) قائلًا:

- سيدي، جاء (آدم) يسأل عنكم، وقد...

قاطعه (يعقوب) قائلًا:

- أعلم، لقد رأيته.. اتركني لأذهب إليه الآن.

maktabbah.blogspot.com

صعد (يعقوب) وبدا واقفًا أمام باب غرفته، أمسك المقبض وحاول فتحه إلا أنه لم يفلح، فدفعه بجسده، ويبدو أن (آدم) كان مستيقظًا، فلما أحس أن أحدهم يحاول فتح الباب، اتجه مسرعًا وأزاح المقعد من خلفه ثم فتحه، فوجد أباه أمامه مباشرةً، دفعه (يعقوب) بيده ثم دخل مستفسرًا:

- لماذا تغلق الباب هكذا؟!

أجاب (آدم) قائلًا:

- يجب أن نتحدث قليلًا، لدي اقتراح سينال...

قاطعه (يعقوب) حين تثاءب قائلًا:

- في المساء نتحدث، إياك أن تغادر البيت، هيا اخرج، لم أنم منذ يومين.

زفر (آدم) وخرج من الغرفة ثم نزل على الدرج ووقف متحيزًا، لا يدري ماذا يفعل حتى يأتي المساء! لمحه (فلو) فاتجه نحوه قائلًا:

- مرحبًا.

أجاب (آدم) مبتسمًا:

- مرحبًا.

- ألم يأتِ السيد (يعقوب) بعد؟!

- إنه في غرفته.

- حسنًا، هيا لنسبقه لتناول الفطور.

- لا أظنه سيلحق بنا، إنه يحتاج إلى الراحة.

- لا بأس، هيا بنا.

اتجه (آدم) و(فلو) إلى غرفة الطعام، فلم يجدا فيها غير (أشهب) جالسًا، سأله (فلو):

- أين البقية؟!

أجاب (آدم) مبتسمًا:

- مرحبًا.

قال (أشهب):

- يبدو أن البعض يستغل مرض السيدة (ورد).. وغياب السيد (يعقوب).

تحدث (فلو) مبتسمًا:

- عداي أنا ملتزم، رغم أني جهة مستقلة عن الجميع.

أجاب (أشهب):

- العجيب أن الجميع يحضر وأنت لا، وعندما تحضر، لا يوجد أحد.

- ماذا تقصد يا (أشهب)؟! دعني أخمن أنهم يهابونني بالطبع.

أجاب (أشهب) ساخرًا:

- بالطبع، يا قاهر الجراثيم.

قال (فلو) مبتسمًا:

- أشكرك، السيد (يعقوب) في غرفته.

- لقد التقيته، سيجتمع بنا ليلًا ليخبرنا موعد رحيل الجراثيم الهرمة.

قاطعهما (داغر) بدخوله لكنه بدا مسرعًا، فجلس دون أن يتحدث وأمسك بكوب ثم قال هامسًا:

- جيد، لا يزال اللبن ساخنًا.

ثم مد يده لتناول شطيرة من الخبز، أضاف إليها طبقة من الجبن ثم أكل في نهم.. قاطعه صوت (فلو) قائلًا:

- يا رجل، أنت لا تضيع حقك أبدًا.

رمقه (داغر) واستمر في الأكل، ابتسم (أشهب) ملتفتًا إلى (آدم) ثم قال:

- هيا، دعك منهما.. (فلو) لا يتناول فطوره الآن، وإلا لالتهمنا منذ أن جلس، إنه ينتظر أحدهم.

تحدث (فلو) قائلًا:

- لست خفيف الظل.

أمسك (آدم) كوبًا من الماء البارد، وكاد أن يشرب حتى قاطعتهم السيدة (شيار) قائلة:

- يزعجني أنني استيقظت متأخرًا.. أعتذر.

قال (فلو):

- لا بأس يا عزيزتي.

ثم نهض وجذب المقعد المقابل له لتجلس (شيار) فجلست هامسة:

- شكرًا.

عاد (فلو) إلى مكانه قائلًا:

- لو لم أرَ أحدهم لأصبح هذا الصباح سيئًا.

ابتسمت (شيار) خجلًا، وضحك (أشهب) ثم قال:

- أشكرك على لطفك هذا.

ثم قال (فلو):

- ليس أنت، لو غبت عني مائة عام، لن أشعر بشيء.

ابتسم (أشهب) قائلًا في نبرةٍ محذرة:

- القانون لن يتيح هذا التلاقي، الغياب مفضل في هذه الحالة.

شحب وجه (شيار) وتبادلت النظرات مع (فلو) الذي قال:

- قانون أعور، لا يرى إلا من في هذا البيت عدا السيد (يعقوب) والسيدة (ورد).

رمقه (أشهب) قائلًا:

- السيدة (ورد) التحقت بعملها هنا بعد وفاة زوجها، والسيد (يعقوب) لا يخضع لهذا القانون لأن عمله لا يقتصر على هذا فقط.

زفر (فلو) ثم قال:

- أعلم ذلك، لكنه أعور ظالم.

ضحك (أشهب) وأشار إلى (داغر) فضحكوا جميعًا حتى (آدم).. فقد جذب شطيرة تلو الأخرى ليلتهمها دون توقف، فقال (أشهب):

- هيا يا سادة، قبل أن يلتهمنا أحدهم.

ضحك الجميع ثانيةً، وشرعوا في تناول الطعام..

بعد مرور بضع دقائق، نظر (فلو) إلى (شيار) متسائلًا:

- أين السيدة (جيان)؟

توقفت عن الأكل قائلة:

- لقد ذهبت إلى القصر الملكي، لديها عمل هناك، لا تريد التأخر عنه وستعود قريبًا.

كاد (فلو) أن يتحدث لكن (أشهب) بادر متسائلًا:

- أهناك مشكلة لتذهب باكرًا؟

أجابت (شيار) قائلة:

- لا أدري، فقد كانت في عجلة من أمرها.

زفر (فلو) ثم وجه إليها سؤالًا:

- هل لديكِ أعمال كثيرة اليوم؟!

- كلا، فالسيدة (ورد) مريضة، كما تعلم هي من تختار الجرائيم الذين يخضعون للتدريب، ومن يباع وهكذا.

- أليس لديك الأعداد المطلوبة للقصر الملكي يا (أشهب)؟!

- لا.. هذا خاص بسجلات السيدة (ورد).

لمعت عينا (آدم) فقال مسرعًا:

- سجلات خاصة بالجرائيم.

تحدث (أشهب) قائلًا:

- أجل، كل شيء عنها، من تاريخ الوصول حتى الرحيل أو الموت.

قال (آدم) مستفسرًا:

- هل يبقى لهم صلة بهذا المكان بعد بيعهم؟!

أجاب (أشهب) قائلًا:

- بالطبع، يجب على الجميع إرسال تقارير عن أخبارهم، وعندما تنتهي مدة خدمتهم، يرجعون إلى هنا ليتم النظر في أمرهم، هذا لأن السيدة (ورد) المسؤولة عن هذا، وكونها عضوًا رئيسيًا وذا سلطة واسعة برابطة حماية السادة من الجرائيم بعد رئيسها بالطبع.

قالت (شيار):

- هذا صحيح، فقد تسلمت نيابة عن السيدة (ورد) تقريرًا عن الجرثومة التي ذُبحت وبيع طفلها أمس تقريبًا.

أجاب (فلو):

- يجب على السيد (يعقوب) أن يجد حلًا.

شرد (آدم) ثم استفاق قائلًا:

- إذًا لا سبيل للجراثيم للرحيل إلى أرض الأحلام إلا عندما تأتي إلى هنا!

كاد (أشهب) أن يجيب حتى قاطعه (داغر) ناهضًا:

- كأن ابن السيد مولع بأخبار الجراثيم.

ثم تركهم وغادر دون أن ينتظر ردًا..

التفت (أشهب) إلى (آدم) قائلًا:

- دعك منه، إنه فظ دائمًا، هذه الأمور التي تسأل عنها كلها مسجلة في دفاتر وسجلات السيدة (ورد) ولا يحق لأحد هنا - وحتى أنا المسؤول عن السجلات والمكاتبات - الاطلاع عليها، هذا باستثناء السيد (يعقوب) بالطبع.

تحدث (آدم) قائلًا:

- لم أكن أعلم.

قالت (شيار):

- يبدو أنك لم تقحم نفسك في دائرة العمل.

ابتسم (آدم) قائلًا:

- لم أجد العمل المناسب بعد.

قال (فلو):

- أحسنت.. ينبغي أن تجد العمل المناسب.

أومأ (آدم) مبتسمًا بينما تبادل البقية أطراف الحديث، فشرد (آدم) ليحدث نفسه قائلًا: «هل ستفيدني هذه السجلات؟! لكن كيف أصل إليها؟! من يمكنه مساعدتي؟! من؟!.. لا أصدق أنني مع الحقيقة في المكان نفسه، ولا أستطيع أن أعرفها، هل أسأل (فلو) أم (أشهب)؟ لا.. لا، يبدو من كلام (أشهب) أنها سرية ولا أحد يطلع عليها، لكن ماذا عن الكاتب الذي سجل أمس؟! لا بد أن أفهم.»

سكن (آدم) للحظات حتى ابتسم محدثًا نفسه: «الجرثومة العجوز، يمكنه أن يساعدني.»

كاد (آدم) أن ينطلق باحثا عن العجوز حتى فتح الباب، فدخلت (جيان).. كاد (فلو) أن ينطق حتى أوقفته (جيان) مشيرة إليه بالصمت، فتبادلا النظرات المحملة بعلامات الاستفهام حتى دخلت إحدى الفتيات، التاج الذي يعتلي شعرها البني القصير، أجبر الجميع على الوقوف والانحناء لها عدا (آدم) الذي زفر ثم رمقها لبرى حدقتيها الخضراوين تنظران نحوه، فاتكأ على المنضدة ونهض ثم أطرق برهة ليعتدل، اتجهت الفتاة نحو المقعد في صدر المنضدة، فقد كان خاليًا، وجلست قائلة:

- مرحبًا جميعًا.

وأشارت بيدها، فجلس البقية، وأمالت رأسها نحو (آدم) الذي كان يجلس على يسارها ثم قالت هامسة:

- (آدم).. مرحبًا.

لم أرك منذ ستين يومًا!

رمقها (آدم) دون أن ينبس ببنت شفة، فقال (فلو) في ابتهاج:

- إنه يوم عيد لنا، اليوم تجالسنا الأميرة الصغيرة.

قال (أشهب):

- لقد كبرت كثيرًا.

فأجابت الأميرة في حماسة قائلة:

- حقًا، لقد كبرت.

ضحك (آدم).. فقالت (جيان) في حماسة:

- لقد سمعت الأميرة بأمر الجراثيم الجدد، فجاءت لتشاهدهم.

ابتسمت الأميرة قائلة:

- أجل، أود أن أرى كيف يتم تدريبهم، ولدي فكرة جديدة.

قالت (جيان):

- إنها رائعة حقًا.

تحدث (أشهب) قائلًا:

- أتوق إلى معرفتها.

قالت الأميرة في حماسة:

- سندرب الجرائيم الصغار لعمل مسرحية مع الأمراء الصغار في حفل تنصيب ولي العهد أخي.

تحدث (فلو) قائلًا:

- إنه لشرف لهم.

فقالت (شيار):

- فكرة رائعة.

ثم قالت الأميرة:

- أجل، وسأشرف على هذا بنفسي.

ونظرت إلى (آدم).. أنا و(آدم).. حدق إليها (آدم) ولم ينبس ببنت شفة، انتظر الجمع أن يجيب (آدم) وما إن دب اليأس في نفوسهم من ذلك، بادرت (جيان) قائلة:

- هناك فكرة أخرى رائعة، ستجعل الجرائيم الصغار كدمى متحركة للأمراء أيضًا.

قالت الأميرة مبتسمة:

- أسلوب جديد في التسلية.

كاد الجميع أن يجيب بكلمات الإطراء والإعجاب لهذه الأفكار النيرة، إلا أن (آدم) قاطعهم بوقوفه، فنظر إليه الجميع في دهشة ليبادر (آدم) قائلًا:

- أعتذر إليكم جميعًا.

ثم نظر إلى الأميرة مبتسمًا وقال:

- وددت أن أبقى معك مدة أطول، لكن لدي أحد الأعمال المهمة، ينتظرني في الخارج قبل لقائي السيد (يعقوب).

انحنى (آدم) ولم ينتظر ردًا أو حتى تعابير الوجوه لتبدي شيئًا مما تخفيه، وانصرف مسرعًا، يبدو أن أحدهم تفادى الموقف وعادت دائرة الحديث مرة أخرى، أما (آدم) فبدا حائرًا، لا يعلم إلى أين يذهب! فقد حدث نفسه قائلًا: «أين أجد العجوز الآن؟! سأخرج، ربما يكون في الخارج، ولا بأس إن لم يكن، فأنا أشعر ببوادر الاختناق تكاد أن تلتهمني إن بقيت

هنا.»

اتجه مسرعًا نحو باب البيت وفتحه ثم أغلقه خلفه في سرعة ثم جذب نفسًا عميقًا، كاد أن ينطلق غير أن صوت فتح باب البيت من خلفه أوقفه، كاد أن يلتفت إلى مصدر الصوت ليتبين هوية القادم غير أن يد سبقته وأمسكت بذراعه، فارتجف جسده إثر المفاجأة ثم نظر ليجد الأميرة تبتسم متسائلة:

- إلى أين يا (آدم)؟!

أنقذ (آدم) ذراعه من يدها قائلًا:

- ما هذا؟! لقد كبرت وأصبحت أميرة!

فقالت غاضبة:

- لا، نحن نحترم أصدقاء طفولتنا، هؤلاء الذين عاشوا معنا أنقى لحظات العمر.

- لم أعد ذاك الطفل الذي تتكلمين عنه يا (إستير).

- (إستير)! لقد كنت تناديني (زهرة).. ألا تذكر حين تساءلت عن معنى اسمي ولم يجبنا أحد، وظللنا نبحث ونبحث حتى علمنا أن (إستير) تعني (زهرة) وكنت تقول لي: «أنت زهرتي.»

كاد (آدم) أن يرد لكن الأميرة أردفت قائلة:

- هيا بنا إلى القصر، لنجلس معًا في الحديقة.

ثم تقدمت نحو محمل خشبي موضوع أمام البيت، فوقه مقعد بمظلة، وعند كل طرف للمحمل، يجلس رجل أسود اللون (جرثومة).. كادت أن تجلس عليه لولا أنها التفتت، فوجدت (آدم) في مكانه، لم يتحرك، فعادت إليه قائلة في دهشة:

- ترفض دعوتي يا (آدم).. لا أصدق!

- لم تنتظري مني جوابًا بالرفض أو القبول لدعوتك تلك، ظننتِ أن الأميرة، لا يرفض أحدهم طلبًا أو أمرًا لها.

- لا، أنت الوحيد الذي لا أشعر معه بهذا!

- سألبي دعوتك لكن ليس اليوم.

- حسنًا، لقد فهمت سبب رفضك، ترغب أن نمشي سويًا إلى القصر، حسنًا.. أعتذر، لقد

اعتدت ركوب المحمل.

ابتسم (آدم) قائلًا في سخرية:

- إنها بضع خطوات من هنا إلى القصر، لا يلزم محمل، غير أنكم تستمتعون باختلاق الأعمال للجرائيم.

- يبدو أن الجرثومة ١٢٣ لا تزال تسيطر عليك.

كاد (آدم) أن ينطق غير أن فتح الباب وخروج إحدى الخادمات قد أوقفه، فأمسك بيد الأميرة وجذبها خلفه إلى الداخل، ولم يعبأ (آدم) أن يراه أحدهم حين جر الأميرة خلفه حتى وصل إلى غرفة مكتب السيد (يعقوب) فدخلها برفقة الأميرة، وأغلق الباب خلفهما بعدما أفلت يدها، فصاحت قائلة:

- ما هذا؟! ماذا تفعل يا (آدم)؟!

- ماذا تعرفين عن الجرثومة ١٢٣؟!

زفرت الأميرة ثم قالت:

- أعرف كل شيء عنها.

اتجه مسرعًا صوب الأميرة، وسقط على ركبتيه ليمسك بيديها قائلًا:

- (إستير).. أين هي الآن؟!

أجابت في غضب:

- إلى حيث ينبغي أن تكون.

صاح (آدم) غاضبًا:

- أين؟!!

- لا أدري.. هكذا أخبرتني والدتك عندما سألتها.

ترك (آدم) يديها لتردف قائلة:

- لقد قالت هذه المشعوذة، كان يجب أن يتصرف معها ابني اللورد.

وقف (آدم) ليلتقط نفسًا عميقًا ثم جلس على أحد مقاعد الجهة اليسرى، فوقفت الأميرة وصاحت في غضب قائلة:

- لا أصدق أنك خنتني.

أجاب (آدم) في دهشة:

- خنتك! ماذا؟!

زفرت ثم قالت:

- لا بأس، فوالدتك أخبرتني الحقيقة، هذه الجرثومة ساحرة مشعوذة، ستتعافى من هذه الشعوذة وتعود إلي لنتزوج.

- نتزوج! ماذا؟!

ابتسمت الأميرة قائلة:

- لا بأس، ستنجيك والدتك من آثار هذه الشعوذة لتتذكر حبك لي.

- حبي لك! من قال هذا؟! أنا لا...

قاطعته الأميرة قائلة:

- أخبرتني والدتك أنك قد بحت لها بحبك لي قبل أن تلقى الجرثومة تلك، وتفعل بك ما فعلت.

- (إستير).. إنها تخدعك، ألا تعرفينها؟!

- أنت تقول هذا إثر الشعوذة.. لا أكثر.

- (ليما).. ليست والدتي، والجميع يعرف هذا.

- أجل لكنها بمثابة والدتك، فهي من ربتك.

- هذا لا يعنيني، لكني لم...

صمت ثم أردف قائلًا:

- أنت صديقة طفولتي فحسب.

ابتسمت الأميرة قائلة:

- لا بأس يا (آدم).. ستتذكر حبك لي، أنت تقول هذا إثر السحر فقط، سأغادر الآن، ينبغي ألا أتحدث معك عن هذه الشعوذة، هكذا قالت السيدة (ليما) حتى لا يصيبني شيئًا من هذه الشعوذة.

ثم وضعت يدها على جبينها، وقالت هامسة:

- أخشى ذلك، سأرحل وأراك قريبًا.

خرجت مسرعة، أرجع (آدم) رأسه إلى المقعد قائلًا:

- شعوذة، وأتزوج (إستير)، كنت أحبها!! (ليما).. ماذا تريدين؟!

ثم زفر ليحدث نفسه قائلًا: «لا.. لا، لن أتعب فكري في هذا، سأفكر في هدفي فقط، سأبقى هنا حتى يستيقظ السيد (يعقوب) لأتدبر أمري، أو أذهب لأبحث عن العجوز، أشتاق إلى رؤية ١٢٣، لنلتقي في مخيلتي، حتى نلتقي قريبًا.»

أغمض (آدم) عينيه ليسقط كل ما يثقل كاهله، ويجوب في سبل الخيال ليدرك ما لا يمكن إدراكه في الواقع.

* * * *

(6)

أمام غرفة السيد (يعقوب).. لا تزال تقف الأميرة (إستير).. تفكر فيما أخبرت به (آدم) حتى وضعت يدها اليمنى على جبينها وقالت هامسة:

- أخشى أن أكون قد أفسدت مساعي السيدة (ليما) لتنقذ (آدم) من هذا السحر، لا بد أن أخبرها.

ثم انطلقت مسرعة نحو باب البيت، ففتحته وخرجت، وحين وقعت عيناها على المحمل والجرائيم، خفق قلبها، فأمسكت بفستانها لترفعه وتركض نحو الجهة اليسرى من البيت حتى وصلت إلى طريقٍ ضيق ممهد للمرور وسط الأشجار القصيرة المحيطه به، فتجاوزته حتى وقفت أمام بوابة صغيرة، وحين رآها الحارسان، هما بفتح الباب، فالتقطت أنفاسها قائلة:

- اذهب وأحضر العربة، أريد الخروج.

امتثل أحد الحراس وركض تلبية لأمر الأميرة التي تجوب بعينيها هذه الحدائق الممتدة على مرمى البصر أمامها لتدرك ما أمرت به، وحين لمحت العربة يقودها أحد الحراس، والحارس الذي أمرته يكاد يلهث خلفها ركضًا، فلم تستطع الانتظار وركضت مسرعة صوبها، وحين التقيا، أوقف الحارس العربة، ونزل مسرعًا ثم انحنى فاتحًا الباب، فقالت الأميرة لاهثة:

- اسمعني.. أسرع.. إلى.. بيت.. السيد.. (يعقوب).

ثم ركبت العربة وأغلق الحارس الباب ثم جلس على مقعده المهيأ ليتمكن من قيادة هذه العربة الخشبية، والتي انطلقت في سرعة.

وصلت العربة التي تحمل الأميرة أمام أبواب عالية، وحين رآها الحرس، فتحوا الأبواب مسرعين رغم أن الحارس لم يتحدث كما أنهم لم يروا الأميرة - عل العربة كانت مميزة أيضا لتدل على من تحملهم -اجتاز الحارس الحديقة الواسعة التي تمتد حول البيت لمسافات كبيرة، ووصل أمام البيت مباشرة، لم تنتظر الاميرة أن يفتح لها الحارس الباب لتنزل، فنزلت على الدرج الخشبي المثبت بالعربة، وصعدت بضع درجات لتصل إلى باب البيت، فوجدته مفتوحًا وأمامه امرأة بيضاء البشرة، ترتدي ملابس، لا تدل على أنها من سكان هذا البيت، وإنما أحد العاملين به، فانحنت قائلة:

- سيدتي، رأيتك من النافذة، فأسرعت لاستقبالك...

قاطعتها الأميرة قائلة:

- أين السيدة (ليما)؟ أخبريها أنني هنا.. أسرعي.

- سيدتي.. إن السيدة (ليما) نائمة، لكني بالطبع سأخبرها.

- حسنًا سأنتظر في الداخل.

انحنت الخادمة لمرور الأميرة ثم بادرت إلى غلق الباب ودخلت مسرعة خلف الأميرة - التي جلست على الأريكة الموضوعة في ركنٍ خاص في بهو البيت - ثم انحنت قائلة:

- سيدتي، يمكنك الانتظار في القاعة المعدة لكبار الزوار.

زفرت الأميرة ثم قالت:

- لا بأس، أسرعي فقط وأخبري السيدة أنني أنتظر.

انحنت الخادمة وامتثلت لأمر الأميرة ثم صعدت الدرج لتبلغ الطابق الثاني، وسارت في ردهة طويلة حتى بلغت نهايتها ثم وجدت بابًا فطرقته برفق ثم دخلت وأغلقته خلفها، وكادت أن تستمر لولا أنها تفاجأت بجلوس سيدة على الفراش، ترتدي ملابس النوم، والتي رمقت الخادمة ثم أعادت النظر مرة أخرى في حزنٍ إلى وجهها في المرآة التي كانت تحملها في يدها اليمنى، اقتربت منها الخادمة قائلة:

- سيدتي.

إلا أنها لم تكترث لأمرها، فأغمضت عينيها لترى ما كانت ترجو رؤيته في المرآة مرفقًا بأصوات مختلفة لأشخاص عدة، تبدي إعجابها بجمالها ثم التقطت نفسًا عميقًا وأعادت النظر مرة أخرى إلى وجهها الذي يسيطر عليه علامات التقدم في العمر، فجاءتها الخادمة قائلة:

- سيدتي.. إنها الأميرة (إستير) تنتظر في الخارج.

ابتسمت (ليما) قائلة كأن لا شيء يضجرها:

- يبدو أننا نتجه إلى الطريق الصحيح يا (ميساء).

قالت (ميساء) الخادمة:

- أجل، أرجو هذا يا سيدتي.

سألت (ليما):

- أين فطوري؟!

أجابت (ميساء) في دهشة:

- سيدتي، ألن تبادري إلى الأميرة؟

- من يحتاج إليك، سينتظرك مهما كان منصبه.

- حسنا، سأحضر الفطور.

- والفستان الأزرق وجميع الحلي التي تليق به لأختار بنفسي ما يليق بأن ترتديه الملكة (ليما).

- عدا التاج، اليوم فقط.

- أيتها الخبيثة، عدا التاج، غدًا أرتديه أمام الجميع.

كادت (ميساء) أن تنصرف، فقالت (ليما) حين حدقت إلى المرآة:

- اذهبي إلى (رتاج) زوجة ابننا اللورد لتشغل الأميرة قليلًا حتى ألقاها.

ابتسمت (ميساء) فطنة لذلك وغادرت دون أن تتحدث، مر بضع دقائق فقط إلا أن الأميرة يبدو أن صبرها قد نفد، فقد كانت تقف ناظرة إلى الدرج، تتأفف لتجلس مرة أخرى، حتى سمعت صوت أقدام، فنظرت خلفها لتجد امرأة تنزل إلى أسفل في تأنٍ، زفرت الأميرة ثم حدثت نفسها قائلة: «تبًا.. (رتاج)!!»

جلست الأميرة راجية ألا تراها ولا تأتي إليها، لكن وجدت الأميرة (رتاج) تقف أمامها رافعة رأسها ثم أنزلته كنوعٍ من أنواع الاحترام الخاص بها للأميرة.. ثم قالت في نبرة مستفزة حين جلست:

- مرحبًا يا أميرتنا الصغيرة.

ابتسمت الأميرة وكتمت غيظها، فقالت (رتاج):

- أتنتظرين السيدة (ليما)؟!

- أجل.

- ستنتظرين كثيرًا.

ثم ابتسمت ساخرة لتردف قائلة:

- يبدو أنها قد هرمت، وأنت بالطبع تقدرين هذا.

- أجل.

- يبدو أنك متوترة قليلًا، لا تقلقي، أنا لا أسأل عما لا يعنيني، لكن يمكننا استثمار الوقت لتسترخي قليلًا.

ثم نهضت وأمسكت بيد الأميرة، فوقفت وكادت أن تنطق، فبادرت (رتاج) قائلة:

- هيا.. ستستمتعين بهذه اللعبة كثيرًا، هيا.. هيا.

امتثلت الأميرة لهذا، اتجهت (رتاج) صوب باب البيت، فتبعتها الأميرة، خرجا فوجدا محملين، صعدت الأميرة دون أن تتساءل، وكذلك تبعتها (رتاج).. وقفت الجرائيم تحمل المحملين على أكتافهم وانطلقوا إلى الجهة اليسرى من البيت، فنظرت الأميرة لتجد مقعدين مهيأين للجلوس بمظلات تقيهم بأس الشمس متقابلين على مسافة عدة أمتار، وجمع يسير من الجرائيم، يقف خلفهم حارس يحمل سوطًا وأمامهم حارس مثله، ورغم أن وضع الجرائيم المحملين على الأرض إلا أن الأميرة ما زالت مكانها، لم تغادره مثلما فعلت (رتاج) فذهبت إليها (رتاج) مشيرة بيدها.. (هيا)..

تساءلت الأميرة في دهشة:

- ماذا يحدث هنا؟!

أجابت (رتاج) قائلة:

- أميرتي، هيا لأشرح لك هذه اللعبة، ستروق لك كثيرًا.

امتثلت الأميرة لهذا، فصحبتها (رتاج) إلى مكان جلوسها ثم اتجهت إلى مقعدها قائلة في غرور:

- الآن تبدأ اللعبة.

قالت الأميرة في دهشة:

- ماذا؟!

- معذرة، فأنا أشعر بالحماسة، سأشرح لك، هذه الجرائيم ستتصارع حتى تسقط إحداهن مستسلمة أو ميتة، والمثير أن هذه الجرائيم بالطبع، لا تملك أمرها في اللعبة، فستقومين باختيار الجرثومة لتوجهينها إلى كل حركة، وتأمرينها أن تستسلم أو تكمل حتى لو فقدت حياتها، أما ما أحبه في هذه اللعبة هو أني مثلًا سأضع هذا الخاتم هدية لك إن فزتِ، وفي

المقابل ستقدمين لي شيئًا ثمينًا.

وأشارت إلى إحدى الخادمات، فأخذت الخاتم منها ووضعته في صندوق ثم اتجهت صوب الأميرة وفتحت الصندوق ثم انحنت منتظرة أن تضع الأميرة شيئًا، فنزعت الأميرة أيضًا خاتمها ووضعته في الصندوق قائلة سرًا: «سأحطم غرورك أيتها الحمقاء.»

ويبدو أن الحارسين (حاملي السوط) قد قاما بتوجيه الجرائيم ليمثلن صفًا واحدًا أمام الأميرة لتختار إحداهن، حدقت إليهن، فلم تجد أمامها إلا هذا الصف من الضعفاء إضافة إلى ما هم فيه من الرق والذل والمهانة، تكاد أعينهن تصرخ توسلًا: «لا تمنين علينا بالاختيار.»

تؤكدها رجفة الجسد، وخفقات قلوب تكاد تعلن وقوفها بمثابة ما يتجه عينا الأميرة إليها، يجدر بهن أن يلتحقن بمسابقة لتناول الطعام لا التصارع، ويبدو أنها لم تجد فيهن من تصلح لتحقق آمالها في الفوز، فوضعت يدها اليمنى على جبينها ناظرة إلى إحداهن في الوسط حتى لمحت هذه الذراع التي تكاد تفصح عن وجود جرثومة أخرى، فنهضت مسرعة واتجهت لتتحقق من الأمر، فوجدت نفسها دون أن تفكر تمسك بالجرثومة - التي تقف أمام التي تريدها - وجذبتها إلى الأمام، فوجدت نفسها أمام جرثومة، يبدو عليها أثر القوة مقارنةً بهذا الصف الهزيل، ابتسمت الأميرة لتقول سرًا: «كما ظننت.. إنها لاعبة (رتاج).. لتضمن بها الفوز الساحق.»

فابتسمت ساخرة ثم قالت:

- اخترت هذه، رغم أن الصف على اتساع المكان لم يسعها لتقف فيه، غير أني شعرت أنها تناديني من خلفه.

كتمت (رتاج) غيظها الذي بدا واضحًا على وجهها حين أمسكت بخصلة شعرها وكادت أن تمزقها حتى تركتها فجأة لتبتسم كأنما انقضت المسابقة وفازت بها، فأشارت إلى إحدى الجرائيم دون تفكير، وقالت في حماسة:

- هذه لي.

عادت الأميرة إلى مكانها السابق واثقة متيقنة من الفوز، وجه الحارسان بقية الجرائيم إلى موضعهن السابق، وظلت المختارة من قبل (رتاج) ترتجف، ودقات قلبها تكاد تفضح خسارتها، والدمع في عينيها توقفه سدود الرعب من الفيضان، على النقيض تمامًا من لاعبة الأميرة، والتي حدقت إليها لتقول سرًا: «لا بد أن تلقي حتفك اليوم مثل توأمك التي انهارت بين يديّ الشهر الماضي، أحب منازلة الضعفاء، فهذا يضمن لي الحياة الفارهة.»

يبدو أن أحدهم وجه الجرثومتين لتبدأ المعركة، فوقفت الخاصة بالأميرة واثقة ثابتة في مكانها، والأخرى تقدم قدمًا وترجع الأخرى.

صاحت الأميرة في حماسة:

- لا بد أن تنقضي عليها أيتها الجرثومة القوية.

فامتثلت الجرثومة وتقدمت في ثقة، ويبدو أن الأخرى كانت مستسلمة لتلك اللكمة القوية، فسقطت أرضًا لينزف فمها كأنها تمنت أن تكون الضربة القاضية لترحل سريعًا، ضحكت الأميرة ثم قالت:

- ماذا يا (رتاج)؟! أراك خاسرة.

وقفت (رتاج) صائحة:

- انهضي أيتها الجرثومة الهزيلة، وانقضي على تلك الجرثومة ١٢٣.

ثم جلست لتنظر إلى الأميرة التي حدقت إلى الجرثومة ١٢٣- التي اختارتها - ويبدو أن الجرثومة الساقطة أرضًا قد نهضت مرة أخرى امتثالًا للأمر، وكادت أن تتلقى لكمة أخرى، فقد تقدمت الأخرى نحوها غير أن صياح الأميرة أوقفها:

- أيتها المشعوذة الجرثومة.. توقفي، إياك أن تهاجمي أو تدافعي أو حتى تستسلمي.

صاحت (رتاج) قائلة:

- هيا، لا بد من الهجوم عليها.

فامتثلت للأمر وتقدمت مرتجفة، غير أن صورة إحدى الجراثيم الساقطة أرضًا بعدما ذاقت آخر لكمة أفقدتها حياتها من تلك الجرثومة التي تواجهها، باتت متكررة أمام عينيها، فرفعت يدها لتصفعها ثم نظرت إلى بقية الجراثيم الذين بدت عليهم علامات الفرح والسرور لهذا، وبدأت أعينهم ترسل إليها رسالة مفادها: «هيا لقد جاءتك الفرصة لتقتصي لأختك ولنا جميعًا من هذه الخائنة.»

نظرت الجرثومة - المقتصة لأختها - إلى عيني غريمتها لتلكمها صارخة كأنها من تتلقى اللكمات ثم سقطت المتلقية للكمات، فانقضت الأخرى عليها، واستكملت اللكمات المتواصلة حتى توقفت لتلتقط أنفاسها، فتوسلت إليها الأخرى قائلة:

- أرجوك.. ارحميني.. أتوسل إليك.. أنا منكم.

فصرخت الأخرى قائلة:

- لاااا.

ثم أردفت هامسة:

- أين خنجرك الذي تقضي به على كل جرثومة تسقط؟

ثم بدأت تفتش ثيابها على عجل حتى عثرت عليه، فقالت حين وضعت نصله في جسدها خفية:

- هكذا فعلتِ، لقد رأيت جسد شقيقتي مطعونًا، لم ترحمي أحدنا، ولو أن الحظ ساعدك اليوم، لمت بين يديك، أنت لست منا، أنت منهم بلون أسود فقط، وضغضت على الخنجر بيدها ليقضي عليها، فقالت الأخرى:

- جميعنا.. ننتظر الفرصة.. لننجو من.. تحت أقدامهم.. وها أنت.. أتتك.. وفعلت ما فعلته أنا.. غدًا.. تصارعين.. البقية.. لتتناسي هذا.

يبدو أن هذه الكلمات أصابت عقل الجرثومة، فتركتها باكية ثم تقدم أحد الحراس وتفقد الجرثومة الأخرى قائلًا:

- لقد ماتت.

وغض النظر عن الطعنة الواضحة في جسدها، والذي بدا أنه أمر معهود.

انتفضت الأميرة فرحًا، وصاحت قائلة:

- أجل، أجل لقد ماتت.

فركضت نحو المحمل وصاحت في سرور:

- هيا إلى السيدة (ليما) لأخبرها.

ضحكت (رتاج) وأشارت إلى الخادمة، فأعطتها الصندوق وارتدت خاتمها ثم رمقت الخاتم الآخر وارتدته في يدها الأخرى قائلة:

- أعطوا هذه الجرثومة...

مشيرة إلى الفائزة ثم أردفت قائلة:

- مكافأة، وأعدوها عوضًا عن تلك.

واتجهت صوب المحمل، فتحرك حين جلست، وامتثل أحد الحراس للأمر ثم اتجه صوب الجرثومة قائلًا:

- هيا انهضي لنفرغ من هذه الميتة.

ويبدو أنها كانت منهكة، فلم تمتثل للأمر، أمسك يدها لتقف حتى تولى أمرها بقية الجراثيم الذين وجهوا للمغادرة دون أن يفقدن إحداهن هذه المرة، وقد شعرن بالسعادة حين شاهدن نهاية غير متوقعة، فقد كان الحارس يضع قطع الخشب حول الجرثومة التي لقت حتفها، والآخر يمسك شعلة من النار، وحين انتهى الأول من وضع الخشب، ألقى الآخر شعلة النار- ربما جرت العادة في هذه الجزيرة للتخلص من موتاهم بهذه الطريقة، وربما لم يكن هناك حق للجرثومة بقدر مكرم أسفل التراب أو فوقه - فالتهمت النار الخشب والجسد دون تفرقة، ولا حرج عليها، فهي فقط تؤدي مهمتها كما طوعها أولو الألباب - ركضت الأميرة مرة أخرى لكن هذه المرة داخل بيت السيد (يعقوب) صوب السيدة (ليما) والتي هبطت الدرج، تتكئ بيدها اليمنى على عصا خشبية - تفضح وجود خلل لديها في عملية المشي - في تأنٍ رغم رؤيتها للأميرة التي هرولت إليها، توقفت الأميرة لتلتقط أنفاسها وانتفضت حين شعرت بيد تمسد شعرها حتى طمأنها صوت السيدة (ليما):

- هذه أنا، ماذا ألم بأميرتنا الصغيرة؟

أجابت الأميرة في حماسةٍ قائلة:

- لقد ذهبت إلى (آدم) في الصباح، لما علمت بوجوده داخل البيت المجاور للقصر الذي يديره السيد (يعقوب).

قاطعتها (ليما) في اشمئزازٍ قائلة:

- حسنًا، وماذا حدث؟!

- لقد أخطأت وأخبرته بأمر جرثومته المشعوذة تلك وما فعلته به، فلم أستطع أن أراه في تلك الحالة.

قالت (ليما) في نبرةٍ غاضبة:

- لمَ؟! (إستير).. أنت تفسدين كل شيء، لا تلقي علي اللوم إذا لم يتزوجك (آدم).

أجابت (إستير) في هدوءٍ قائلة:

- لقد كنت أخشى هذا قبل أن أقتل الجرثومة المشعوذة ١٢٣.

كادت (ليما) أن تبدي تعجبها من هذا، وتطرح الأسئلة غير أن (رتاج) التي لحقت بالأميرة ووقفت خلفها، رفعت الخاتم الذي أخذته من الأميرة، ففطنت (ليما) لما أرادت أن توضحه لها، وربتت على كتفي الأميرة قائلة:

- عزيزتي، لا أفهم ما تقولين لكن، إياك أن تخبري (آدم) بهذا أو تحدثيه حتى عن هذه المشعوذة بأي حال، فحتى لو فقدت حياتها، يبقى أثر السحر على (آدم) ولا بد أن تتوخي الحذر حيال ذلك يا عزيزتي.

- أجل سأفعل، الآن سأعود للقصر حتى لا يلاحظ أحدهم غيابي، أشكرك.

- وددت توديعك في الخارج لكنك ترين ثقل حركتي اليوم.

ثم نظرت إلى (رتاج) التي قالت:

- فلتترك لي الأميرة شرف توديعها.

اكتفت الأميرة بابتسامة وانطلقت صوب باب البيت.

ظلت السيدة (ليما) مكانها حتى بدا لها أن الأميرة قد غادرت، فالتفتت إلى خادمتها (ميساء) بعدما تركت العصا الخشبية تسقط على الأرض، وأخذت منها عصا أخرى - يبدو أنها مطلية بالذهب ومرصعة بالأحجار الكريمة - قائلة:

- هذا ما يليق بالسيدة (ليما) كي تتكئ عليه.

ويبدو أن (رتاج) عادت لتحدق إلى العصا الذهبية، فقالت هامسة:

- هل هرمت السيدة (ليما) حقًّا؟!

رمقتها (ليما) قائلة في غضب:

- هل ترغبين في ارتداء هذا الخاتم كثيرًا؟!

نزعت (رتاج) الخاتم الذي فازت به منذ قليل قائلة:

- غنيمة ملكية.

تناولته السيدة (ليما) قائلة:

- ما زلت صغيرة، لو أنا التي فازت لنزعت التاج من على رأسها.

تركتها السيدة (ليما) واتجهت جهة اليسار بينما وقفت (رتاج) لتقول سرًا: «إنها عصا أبي اللورد، تذكرتها، هذه المرأة داهية، لا ترى شيئًا نفيسًا إلا وابتلعته، لكن لا بأس ما دامت هي

سبيلي لأكون السيدة الأولى في الجزيرة.»

تبعت (رتاج) السيدة (ليما) - التي دخلت حجرة بدت بدخولها أنها مكتب لشخص ذي قدر عظيم في الجزيرة - فأغلقت الباب واتجهت لتجلس على حافة الأريكة التي تجلس عليها السيدة (ليما) أمام رجل، يبدو أنه استعار ملامح وجهه من السيدة (ليما) فقد كان يشبهها كثيرًا إلا أنه يملك نصف عمرها أو أكثر قليلًا، قال في عطف:

- أمي، ماذا أصاب قدمك؟!

ابتسمت ثم أجابت قائلة:

- لا شيء يا بني، الأمر بسيط، فقط أشعر بثقل الحركة.

نظرت (رتاج) إليه قائلة:

- إن العصا من زينة أمي، ألا ترى النفائس التي تعج بها؟!

كاد الرجل أن ينطق إلا أن السيدة (ليما) قالت:

- أجل، إنها هدية أبيك (اللورد ديودتشي).. لكن دعك من هذا..

ثم حدقت إلى ابنها قائلة:

- (أركان).. (رتاج).. نحن نمر بوقت صعب، ليحصل كلٌّ منا على أمنيته، وما دامت واحدة لدينا جميعًا، فلا بد أن نتخلى عن تلك الترهات.

تساءل (أركان) محدقًا إلى (رتاج):

- ماذا حدث؟!

سألت (رتاج) قائلة:

- أتعنين ما فعلته مع (إستير)؟!

شهقت (ليما) ثم زفرت قائلة:

- أجل، كدت تفسدين مساعي شهور وتدابير أعوام كاملة، أنا لا أريد أن يقتص (آدم) لحقه، أريد أن ينجرف بإرادته ليسقط السيد (يعقوب) ونتخلص منهما.

قال (أركان):

- لا أفهم ضرورة التخلص منهما، إنه أبي!

ضربت (ليما) الأرض بالعصا قائلة:

- إن أردت أن تدخل معركة سياسية، لا بد أن تنزع قلبك وتضعه جانبًا لترتدي زي الساسة، هذه واحدة، أما الثانية؛ فإن كانت بغيتنا إسقاط الملك، فلا بد أن تفتت قوته الفعلية أولًا، وأولها ذراعه اليمنى (السيد يعقوب)، و(يعقوب) لن يسقط إلا بفاجعة، وسيكون (آدم) وسيلتنا لذلك، وستسقط الأميرة الصغيرة معهما.

كاد (أركان) أن ينطق، فأردفت (ليما) قائلة:

- لن نقتل (يعقوب) بالطبع، ولا ابنه المفضل، لكن سننزعه من ثياب السلطة للتقاعد باكرًا.

بادرت (رتاج) قائلة:

- أجل.

ثم أردفت في فخرٍ قائلة:

- ولا ننسى أن أبي (اللورد ديودتشي) - الذي يتملك زمام الجيش ورئيس جهة حماية السادة من الجرائم - سيساعد زوجي حبيبي كي يصبح ملكًا تمامًا كما تفعل أمي الحبيبة (ليما).

قال (أركان) دون أن يكترث لفخر (رتاج):

- قريبًا سيتوج ولي العهد، وأشعر أن الأمر بات معقدًا، لا أرغب في الحكم حين أصبح طاعنًا في السن، يكفيني ما انتظرته.

أجابت (ليما) قائلة:

- لا تقلق يا بني، أعدك قريبًا ستقف ملكًا في قصرك.

ثم قالت (رتاج) في حماسة:

- سأهدم هذا البيت الملاصق للقصر، إن منظره يجعلني أشعر بالاشمئزاز.

وافق (أركان) قائلًا:

- حقًّا، لا أعلم فائدته!

أجابت (ليما) قائلة:

- أشعر بوجود سر خلف بنائه، إنه حديث عهد، منذ عشرين عامًا أو أكثر قليلًا، وسأعرف هذا السر يومًا ما.

ثم وقفت لتردف قائلة:

- أشعر بدوار، سأذهب إلى غرفتي.

فوقف (أركان) واتجه صوبها ليساعدها.

خرجا من الغرفة، وظلت (رتاج) لتحدث نفسها قائلة:

- لا.. لا، ليس الآن، أنا أتحملك يا (ليما) كل هذا الوقت لأنك سبيلي للقصر الملكي.

ثم وضعت يدها على جبينها لتردف قائلة:

- أخشى أن تموت، ما زلنا نقف على أعتاب الحلم، ماذا أفعل؟! ينبغي أن تعلمني بخطتها كاملة لأستطيع إكمالها من بعدها، لكن لن تفعل هذا حتمًا، ربما يعلم بها أبي، وربما لا، سأراقبها عن كثب.

* * * *

(7)

بدا (آدم) نائمًا في غرفة مكتب السيد (يعقوب).. ويبدو أنه على حاله تلك منذ مدة طويلة إذ كان السيد (يعقوب) يجلس على مقعد مكتبه ناظرًا إليه فقط، عله أراد أن يتفرد بابنه بعيدًا عن ضجيج الحياة، غير أن صوت قرع الباب، أفسد الأمر إذ فزع (يعقوب) وهم بالوقوف، وكاد أن يسرع ليتدبر أمر من يطرق الباب دون أن يوقظ (آدم) غير أن هذا لم يفلح إذ لم يتسن له هذا لرؤيته (آدم) مستيقظًا فزعًا إثر قرع الباب المستمر، فصاح (يعقوب) غاضبًا:

- هيا ادخل.

دخل (أشهب) مبتسمًا ثم قال:

- سيدي أعتذر، لكن ما أمرت به أصبح جاهزًا.

- حسنًا، سأتدبر الأمر، بإمكانك أن تذهب لتنال قسطًا من الراحة، أشكرك.

ابتسم (أشهب) وانصرف مسرعًا.. ثم اتجه (يعقوب) صوب (آدم) غير أنه كان شاردًا، يتساءل سرًا: «هل يقصد (أشهب) الجرائيم أم لا؟! كيف لي أن أعرف؟!»

قطع هذه التساؤلات، صوت (يعقوب) قائلًا:

- أنت دائمًا شارد، لا تبالي!

- دائمًا! وهل تراني دائمًا؟!

زفر (يعقوب) ثم قال:

- قد لا أرى الجميع دائمًا، والبعض لم ولن أراهم.. إلا أني أحمل مسؤوليتهم جميعًا على كتفي، وإن كنت تعقل لفطنت حساسية منصبي.

قال (آدم) في نبرة واثقة:

- لا أريد أن يتحمل أحد مسؤوليتي.

رمقه (يعقوب) قائلًا:

- مع الأسف، الأب لا يمكنه أن يتخلى عن تلك المسؤولية مهما حدث.

وقف (يعقوب) ثم اتجه صوب إحدى نوافذ الجهة اليسرى ليردف قائلًا:

- ماذا تريد يا (آدم)؟!

نهض (آدم) واتجه صوب المكتب ثم أجابه قائلًا:

- الجرثومة ١٢٣ فقط، وبعدها أعدك ألا تسمع عني شيئًا.

- كيف هذا؟!

أجاب (آدم) في نبرةٍ جادة:

- إذا كان مصير الجرثومة ١٢٣ هو أرض الأحلام، فليصبح مصيري أيضًا، لست مثل ابنك اللورد ولن أكون، صدقني.. أرجوك.

استدار (يعقوب) قائلًا:

- القانون لن يوافق على هذا، لكن سأفكر في الأمر.

قاطعه (آدم) غاضبًا:

- هذا طريقي، حياتي أنا، وأنا فقط من يقرر مصيري.

قال (يعقوب) في حزم:

- لن أعيد كلامي، ستبقى هنا حتى أقرر، أي حماقة منك، ستهلكنا جميعًا، ولن يوافق أحد على هذا، وأول من يلحق به الأذى، تلك الجرثومة ١٢٣.

كاد (آدم) أن ينطق غير أن صوت قرع الباب ودخول العجوز، أوقفه.. انحنى العجوز قائلًا:

- سيدي، كل شيءٍ أصبح كما أمرتم.

نظر (يعقوب) إلى (آدم) قائلًا:

- نستكمل حديثنا فيما بعد، لدي بعض الأعمال في الخارج.

خرج (يعقوب) مسرعًا، فاتجه العجوز نحو الباب وأغلقه ثم تقدم نحو(آدم) قائلًا في همس:

- سيدي، عند شروق الشمس سيتم نقل الجراثيم، العربات المخصصة لنقلهم قد أتت.

- أين؟ كيف؟!

ثم وضع يده على جبينه قائلًا:

- ماذا أفعل؟ لا أستطيع التفكير!

أجاب العجوز قائلًا:

- سيدي، لا تقلق، بإمكانك أن تلحق بهن، العربة ذات العلامة الصفراء، سأتولى قيادتها، وأحاول أن أجعلك تلحق بها.

قاطعه (آدم) مسرعًا:

- أخبرتني أنك لا تعرف الطريق، فكيف؟!

ابتسم العجوز قائلًا:

- نحن لا نعرف الطريق، فقط نتبع أثر جواد السيد (يعقوب).

- حسنًا، لكن كيف سألحق بهم؟!

كاد العجوز أن يرد لكن (آدم) أردف قائلًا:

- أخبرتني أن كل شيء أصبح جاهزًا، وكذلك السيد (أشهب).. ماذا تقصدان؟!

- كنت أتحدث عن عربة السيدة (ورد).. أما السيد (أشهب) فلا أدري حقًا.

- ربما كان يتحدث عن نقل الجراثيم.

- لا يا سيدي، هذا لا يحتاج إلى السيد (أشهب).. إنها مهمة الجنود المشاركين في عملية النقل، لا أكثر.

صمت (آدم) برهة ثم قال:

- السيدة (ورد).. لقد علمت أنها المسؤولة عن كل شيء يخص الجراثيم، ولديها سجلات بكل ما يخصهن.

- أجل، هذا صحيح.

سأله (آدم) قائلًا:

- قلت عربتها؟!

- أجل، إنها تحتضر، ويبدو أنها ستنتقل إلى أهلها لتقضي معهم آخر أيامها.

فقال (آدم) في حماسة:

- إذًا ستكون غرفتها خاليه، أين هي؟! أريد أن أعرف مكان الجرثومة ١٢٣

- سيدي، قد لا يكون هذا صائبًا.

حدق (آدم) إليه، فقال العجوز:

- حسنًا، إنها في الطابق الثاني، الغرفة الأولى مباشرةً أسفل غرفة السيد (يعقوب).. سأبقى هنا.

خرج (آدم) دون أن ينبس ببنت شفة ثم قال العجوز في ثبات:

- هذا الشاب عنيد، أخشى أن يهلكنا جميعًا.

بدا (آدم) إثر سرعته وحماسه واقفًا في الطابق الثاني، يلتفت يمينًا ويسارًا ليتيقن أن أحدهم لم يره، وحين تيقن، أسرع نحو الباب ثم دخل قائلًا في غضب:

- عجبًا لهذا البيت، الغرف تبدأ بعد السير مسافة كبيرة، ورغم هذا، فغرفة السيد (يعقوب) ليست بهذا الاتساع، وكذلك السيدة (ورد) على العكس تمامًا من الطابق الأرضي، لا بأس، فالغرفة تشبه غرفة السيد (يعقوب) غير أن صندوق الملابس مفتوح، وبالطبع فارغ، والأرفف خاوية حتى من الورق.. تبًا! هذا البيت يعج بالخبايا!

عاد (آدم) إلى غرفة مكتب السيد (يعقوب) فوجد العجوز واقفًا يحدق من إحدى نوافذ الجهة اليسرى، فقال (آدم) بعدما أغلق الباب:

- لا شيء في الغرفة، لا أفهم فائدة هذا البيت حقًّا!

التفت العجوز بعدما جفف دمعه بيديه قائلًا:

- بالطبع لا شيء في الغرفة، هذه أسرار ولا يستطيع أحد الحصول عليها.

رمقه (آدم) قائلًا في دهشة:

- ولماذا لم تخبرني بذلك؟!

ابتسم العجوز ثم أجاب قائلًا:

- لأننا أحيانًا لا نصدق كل ما يقال لنا، نرغب أن نزج بأنفسنا إلى ما يحذرنا منه البعض، ظنًا منا أننا قادرون على فعل ما لم يفعله الآخرون، لو أخبرتك لمكثت تجادلني كي تفتش الغرفة جيدًا وتحصل على ما تريد، وفي النهاية ستفعل ما فعلت.

maktabbah.blogspot.com

ابتسم (آدم) ثم اتجه صوب أحد المقاعد ليجلس قائلًا:

- ما اسمك؟!

- الجرثومة ٩٩٨ يا سيدي.

- لا، أقصد اسمك في بلادك، الاسم الحقيقي.

زفر العجوز ثم قال:

- لا أريد أن أذكره، حتى لا أتذكر أنني هرمت، فعمري هنا ثلاثون عامًا فقط، أما في بلادي، فأنا أبلغ من العمر أرذله، ممددًا على فراشي، أنتظر مجيء أحفادي وابنتي لزيارتي، فأسترجع كامل حيويتي لنلعب معًا، فأعود طفلًا، وأسمع خبرًا سعيدًا عن حفيدتي الكبرى بأنها ستتزوج قريبًا، وعلي أن أشاركها المراسم بصفتي كبير العائلة، وزوجتي بدا عليها الشيب.. ما زلت أحبها كما لو كانت عروسًا، سنذهب معًا إلى عرس حفيدتنا، ولسنا نخشى هجوم الصيادين على حفل زفافها ليدمروا كل شيء، فبلدي تحررت بعدما ثارت في وجه الطغاة ولقنت الصيادين درسًا لم ولن ينسوه، وبات الأطفال والنساء والشيوخ والشباب يملؤون الساحات احتفالًا بذكرى النصر، سأموت وأدفن في وطني، وسيأتي أحفادي وأبنائي كل أسبوع لزيارتي، سأرفرف حولهم بروحي.

زفر العجوز بعدما انهمرت دموعه على وجنتيه، ونظر إلى (آدم) قائلًا:

- سيدي لا عليك، لا بد أن تبقى هنا لأتدبر أمر مرافقتك لنا، سأعود قريبًا.

ثم خرج مسرعًا.

ظل (آدم) في مكانه بعدما تجمدت تعابير وجهه قائلًا:

- تبًا لكل هؤلاء الشياطين، الذين يسرقون منا كل شيء، يبدو أن هناك من يتألم أكثر مني هنا.

نهض (آدم) ثم انطلق مسرعًا حتى بلغ باب البيت الرئيسي، فخرج لاهثًا كأنما كان يركض لمسافات طويلة ثم قال:

- كدت أختنق في الداخل، إنه بيت لعين.

فأجابه صوت أحدهم قائلًا:

- عجبًا!

فالتفت (آدم) نحو مصدر الصوت ليجد (داغر) يرمقه ثم أردف قائلًا:

- تستطيع التجول في أي بقعة في هذه الجزيرة، وتأتي هنا لتختنق، تبًا للأنفس المترفة!

ثم اتجه صوب باب البيت وكاد يقرعه، فأوقفه صوت (آدم) قائلًا:

- أهل الجزيرة جميعًا يختنقون لأن أمثالك هنا، أنتم تسحبون الهواء النقي وتتركوا لنا ما يخنقنا.

التفت (داغر) بعدما فتح الباب قائلًا:

- جميعنا صنائع السيد (يعقوب).. ما بالك بابنه؟!

ثم دخل وأغلق الباب خلفه.

فصاح (آدم):

- رجل وقح.. فظ، تبًا لك!

ثم استدار ليقول سرًا: «لا بأس، لا بد أن أكون هادئًا كي أستطيع استكمال طريقي.»

وضع يده على رأسه ليردف قائلًا: «أين أجد العجوز؟ سأتسكع قليلًا في هذه الحدائق الممتدة خلف البيت، لن أجد مثل هذه الحدائق الملكية في أرض الأحلام.»

انطلق (آدم) جهة اليمين من البيت نحو طريق ضيق ممهد للمشي بين الأعشاب حتى أصبح خلف البيت، كاد أن يستمر حتى سمع ضجة كبيرة، زفر ثم حدث نفسه قائلًا: «إنه المكان نفسه الذي جلست فيه بجوار السادة ليلقي (أشهب) خطبته الحالمة، لكن ماذا يحدث هناك؟!»

عدل (آدم) عن طريقه، وتقدم نحو مصدر الضجة ليدرك أسبابها إذ كان الليل يستر ما يفضحه النهار لأنهم يستعملون أشياء بدائية ليتغلبوا على عتمة الليل، وحين اتضحت الصورة أمام (آدم) توقف ليراقب الوضع، فقد كانت عربات مصطفة تشبه الصناديق الكبيرة المحكمة الغلق من جميع الجهات عدا فتحة جانبية صغيرة وباب خلفي، مستندة على عجلتين خشبيتين كبيرتين، ويبدو أن العربة الأخيرة قد امتلأت بهؤلاء الهرمين قبل موعدهم، فصاح أحد الحرس قائلًا:

- لقد امتلأت العربات عن آخرها وما زال هناك جرائيم.

ثم أشار إلى بضع جرائيم خلف الحواجز الحديدية، وقف رجل كان يجلس – يبدو أنه يعلوهم مرتبة - قائلًا:

- وزعوهم على العربات.

تقدم أحد الحرس نحوه قائلًا:

- سيدي، إن العربات ممتلئة عن آخرها، سيموتون خنقًا.

صاح الرجل قائلًا:

- أيها الأبله، هذا ما أتمناه، لا فائده لوجودهم، إنهم يسرقون أوقات راحتنا لننقلهم.

انحنى الحارس قائلًا:

- أجل يا سيدي.

كاد الرجل أن يجلس مرة أخرى غير أن تحرك العربات من مكانها وقدوم ثلاث أخريات مكانها، جعل الرجل يصيح غضبًا:

- تبًا لكم جميعًا!

وكاد أن يتقدم نحوهم حتى ظهر العجوز متجهًا نحوه، فقال الرجل:

- لماذا فعلت هذا أيها الجرثومة الوقح؟!!

أجابه العجوز في هدوءٍ قائلًا:

- سيدي، أنا لا أفعل شيئًا، فقط أتبع أوامر السيد (يعقوب).

كاد الرجل أن ينطق غير أن العجوز تقدم صوب (آدم) مسرعًا خشية أن يراه أحدهم، فصاح الرجل حين جلس قائلًا:

- تبًا لهؤلاء الجراثيم السفلة!!

التقى العجوز (آدم) ووجهه ليستتر عن الأعين قائلًا:

- سيدي، ينبغي ألا يراك أحدهم هنا.

قال (آدم) في غضب:

- لمَ لم تضرب هذا الوقح؟!

أجاب العجوز مبتسمًا:

- سيدي، لا عليك، لو فعلت هذا مع كل وقح يستفزني لهلكت منذ زمنٍ طويل، الزم البيت، وعندما يحن وقت الخروج سأؤمن قدومك إلى هنا أثناء راحة الحرس.

- متى؟!

- ربما قبيل شروق الشمس حتى نتمكن من السير في الطرقات، عندما تأتينا الأوامر سأدير لك الأمر، لا بد أن تنال قسطًا من الراحة، لا تعلم ما ينتظرك!

يبدو أن (آدم) امتثل لقول العجوز وعاد للبيت، فقد بدا واقفًا أمام غرفة السيد (يعقوب).. دخل الغرفة ودفع الباب ليتجه صوب الفراش ثم حدث نفسه قائلًا: «لا بأس يا (آدم).. ترفع عن كل تلك الفوضى التي تعج بها هذه الجزيرة، غدًا تنفض عن كاهلك كل هذا العبث، لا بد أن أرض الأحلام ستصبح الأمور بها أكثر عدلًا وإنسانية.»

كاد (آدم) أن يكمل حديثه مع نفسه غير أنه شعر بأنفاس تتلامس مع أنفاسه، فكتم أنفاسه علّه أراد أن يتيقن أنه غير حقيقي، غير أن أطراف أصابع اليد التي لمست وجنته، جعلت الشك يتحول إلى يقين، فتح (آدم) عينيه فجأة، فوجد عينين خضراوين تحدقان إليه ثم اختفت فجأة، نهض مسرعًا ليصيح قائلًا:

- من؟ من؟

ثم ركض نحو الباب، فتراجع للخلف لما رآه مغلقًا ليقول كأنما يوجه حديثًا إلى أحدهم:

- كيف هذا؟!!

دون صوت أو حركة ثم حاول أن يجوب بعينيه الغرفة، فلم يعثر على شيء، أفزعه صوت قرع الباب، فدخل العجوز ليجد (آدم) شاحب الملامح، فقال:

- سيدي، هل كل شيء...

قاطعه (آدم) قائلًا:

- هل رأيت أحدهم أثناء قدومك؟

- لا.

وضع (آدم) يده على جبينه قائلًا:

- لا.. إنه ليس وهم، لقد لمس وجهي يد أحدهم، ورأيت عينين خضراوين تحدقان إلي.. فجأة اختفى هذا الطيف، كيف؟! أظنه جرثومة.

اتسعت عينا (آدم) قائلًا في دهشة:

- جرثومة يمتلك عينين خضراوين! كيف؟! كيف؟!

تقدم العجوز قائلًا في هدوء:

- لا شيء يا سيدي، ستختبئ داخل هذا البيت القديم حتى تسنح لنا الفرصة للالتحاق بالجراثيم، إنهن على مقربة من هنا.

بدا (آدم) خارج العربة محدثًا نفسه: «لا أشعر بالارتياح! ما هذا المكان؟!»

قاطعه العجوز قائلًا:

- سيدي، اتبعني رجاءً، لا بد أن ألحق بالبقية حتى لا يفتضح الأمر.

تبع (آدم) العجوز، وكاد أن يدخل البيت لكنه ابتسم محدقًا إلى العجوز ثم قال:

- أشكرك كثيرًا.

اكتفى العجوز بابتسامة ثم أغلق الباب خلف (آدم) ليقول سرًا: «معذرة يا سيدي، أنا لست كما تظن، أنا جرثومة.»

دخل (آدم) البيت وكاد أن يجلس على الأرض غير أن أصوات ضجة أوقفته، فقال سرًا: «ربما يكون جمع من اللصوص ينتظرون الليل، أخشى ذلك، لا بد أن أختبئ في إحدى غرف هذا البيت أو أخرج! لا.. إن خرجت فسينتهي كل شيء، ربما أتوهم مثلما حدث لي في ذلك البيت!»

ثم جلس قائلًا:

- أظن أن هذا البيت مألوفًا لي، بعض المشاعر تراودني، ما الذي سيربطني بهذا البيت المهجور؟

أفزعه صوت أقدام على الدرج، فنهض مسرعًا ليجد السيد (يعقوب) ينزل الدرج في تأنٍ محدقًا إليه، انكب (آدم) ضاحكًا ثم صاح قائلًا:

- لا، لا.. لا، ليس السيد (يعقوب).. إنه وهم! أجل.. أنت تتوهم يا (آدم).

ثم ركض صوب السيد (يعقوب) فصاح قائلًا:

- أنت لست هو، أنت وهم، لا.. لص بالهيئة نفسها، أليس كذلك؟!

أجاب السيد (يعقوب) قائلًا:

- فكرت في عرضك يا (آدم).. وقد وافقت عليه لكن نظير شرط واحد.

قال (آدم) غاضبًا:

- إذا كان العجوز الخائن قد أخبرك، فلماذا تتلاعب بي؟! ألست ابنك؟! دائمًا أسمع أن الآباء

يحبون أبناءهم أكثر من أنفسهم.

قاطعه (يعقوب) قائلًا:

- كنت دائمًا ترغب أن تحصل على شيء من ذكريات والدتك، هذا البيت كان بيت أمك، وكل ركنٍ هنا ذكرى منها، مؤكد أنك لا تذكره، فقد كنت في سن الرابعة.

ابتسم (آدم) ساخرًا ثم قال:

- أنا لا أصدقك، إنها خدعة!

- لا.. لا.

ثم مد يده نحوه، فنظر (آدم) ليجد قرطًا ذهبيًا.. ثم أردف (يعقوب) قائلًا:

- هذا القرط، كانت أمك تحبه كثيرًا، خذه.

- لا أثق بذلك، قلت أنك موافق، فما شرطك؟!

- لكن أنا أثق بك، أنت تعلم أن أرض الأحلام تعد للجراثيم، من بين الجراثيم التي أتت إلى هنا، يوجد جرثومة تعلو كل الجراثيم مكانة، لا أعلم كيف أوضح لك الأمر لكن هناك جرثومة ستكون الملكة عليهن.

قال (آدم) في دهشة:

- ملكة.. امرأة!

- في إحدى غاراتنا على الطغاة، كانوا يؤمنون على جرثومة طفلة، لم تتعد الرابعة من عمرها، وشهد بقية الجراثيم أنها ابنة رئيسهن أو ملكهن هناك في وطنهن ليتمكن من إخضاعه، فرأينا أن نبقي عليها في مكانٍ آمن لتكون ضمانًا لنا إذا أتتنا جيوش الطغاة، ورأى الملك أنه من الأفضل أن تكون هي ملكتهم في أرض الأحلام، فنضمن ولاءها لو أحسنا إليها طوال هذه السنوات، وسيبجلها بقية الجراثيم، ومن ثم نأمن تقلبات الدهر، الموضوع معقد للغاية، لا أعلم كيف أشرح الأمر!

قاطعه (آدم) ساخرًا:

- ما شأني بهذا كله؟!

أجابه (يعقوب) قائلًا:

- الجرثومة تلك كانت ضمن مسؤوليات السيدة (ورد).. وقد كتمت هذا السر جيدًا، إذ لا

يعلمه أحد غيري أنا والملك واللورد (ماني) الذي جلبها إلينا لكنه مات، فأصبح الآن ثلاثة فقط يعلمون بأمرها، الملك وأنا وأنت، وينبغي ألا يعلم أحد آخر بهذا الأمر.

قاطعه (آدم) قائلًا:

- ماذا تريد أن أفعل؟!

- لقد نشأت وسط أمراء، لا بد أن تتولى مهام السيدة (ورد) لتدرب (الجرثومة صفر) على أمور الحكم بما أنك ستعيش في أرض الأحلام، فلا يوجد حرج لديك في أن تفعل، ونظير هذا سينقل جميع الجراثيم بملكتهن وأنت إلى أرض الأحلام، أعني ستتظاهر بأنك تؤدي مهام السيدة (ورد) لتنهي مهمتك.

فكر (آدم) فيما سمع ثم قال:

- إن وافقت على هذا، ماذا يضمن لي أن تتركني كي أذهب معهم؟ أين تلك الجرثومة ١٢٣؟ دعني أطمئن عليها أولًا.

قال (يعقوب) بثقة:

- إن شئت قبلت ما عرضت عليك، وإن شئت فلتبقى كما أنت لكن لن تغادر البيت مهما حاولت.

قال (آدم) غاضبًا:

- إن كنت صادقًا، ماذا يمنعك أن تفعل؟!

- كي لا تفكر في سبيل آخر لتحريرها، الآن إما أن تمتثل أو ترفض.

حدث (آدم) نفسه قائلًا: «لا خيار لدي، ينبغي أن أوافق.»

ثم زفر وقال:

- حسنًا، أين تلك الجرثومة؟!

- حسنًا، عد إلى البيت برفقة العجوز الآن، وفي المساء سأجعلك تلتقيها.

كاد (يعقوب) أن يخرج حتى أوقفه (آدم) ليمد يده، ففطن (يعقوب) لما أراد ليضع القرط في يده مبتسمًا ثم انصرف مسرعًا.

قال (آدم) في ثبات:

- أمي، لا أدري إن كان هذا بيتك أم لا! لكن لا يعنيني، فأنتِ ترافقينني دائمًا، أشعر أنك

تحيطين بي رغم أني لم أرك ولا أتذكرك.

غادر (آدم) البيت مسرعًا ثم اتجه صوب العجوز الذي كان يقف إلى جوار العربة، وقد بدا عليه القلق لرد فعل (آدم) على ما فعل، غير أن (آدم) لم يلتفت إليه واتجه خلف العربة ليركبها، فتنهد العجوز وقاد العربة مسرعًا.

* * * *

(8)

يبدو أن الوقت الذي تحدث عنه السيد (يعقوب) ليعرف (آدم) إلى الجرثومة صفر (الملكة) قد حان، فقد بدا (آدم) جالسًا على فراش السيدة (ورد).. يوجه سؤالًا إلى السيد (يعقوب) الذي كان واقفًا، ينظر من النافذة:

- كيف أدرب تلك الجرثومة على أمور الحكم؟!

لم يلتفت إليه (يعقوب) لكنه أجاب قائلًا:

- ألم توافق؟! هل سنظل عند هذا الأمر؟! يا (آدم) الجراثيم لن يوافقوا أن يعيش معهم رجل أبيض، وهذه الجرثومة ستكون طريقك ليرحب بك الجميع كما أنك اخترت هذه الحياة، فلن نأتمن أحدًا غيرك بعد السيدة (ورد).. ومن ثم أنت مضطر لتبقى هنا هذه المدة، على أي حال، إن كنت تريد أن تلتقي تلك الجرثومة...

قاطعه (آدم) قائلًا:

- لماذا يبقى أمرها سرًا؟! لا أفهم! ما المعضلة في معرفة العامة بذلك؟!

التفت إليه (يعقوب) قائلًا:

- هذه سياسة لا تفهمها، هناك من يرفض وجود وطن للجراثيم، ويطمع في أن تمتد حدود هذه الجزيرة أكثر من ذلك.

قال (آدم) غاضبًا:

- ألا يكفيهم أنهم أخذوا حريتهم وطاقاتهم وشبابهم طوال هذه السنوات؟!

رمقه (يعقوب) قائلًا:

- لا تشغل بالك بهذه الأمور، فقط افعل ما طلبته منك، أما عن تدريبك لتلك الجرثومة، فلا تشغل نفسك به كثيرًا، إنهم مجرد جراثيم فقط علمها كيفية القضاء بينهن، وعلمها أيضًا كيف تتحدث إلى العامة، هي ستكون تابعة لنا على أي حال.

- حسنًا، أين هي؟!

أشار السيد (يعقوب) نحو الحائط، لم ينتظر ليبدي (آدم) تعجبه أو استفساره بشأن هذا، فقد اتجه نحو الحائط بعدما جذب خنجره وقام بغرز سنه الحاد بين حجرين، فأخرج واحدًا منهما، غير أنه لم يكن سميكًا أو ثقيلًا بل كان خفيفًا، سمكه رقيق، ولا عجب فقد كان قطعة

خشبية رقيقة ثم أخرج مفتاحًا من جيبه ووضعه في الفتحة الخاصة به موضع القطعة التي أزالها ودفع مستطيلًا من الحائط كأنه باب طبيعي، وقال دون أن يلتفت إلى (آدم):

- اتبعني.

تبعه (آدم) في تأنٍ شاعرًا بالدهشة من هذا، ووقف يتحسس الحائط الذي أزاحه السيد (يعقوب) من مكانه، فوجده مكسوًّا بالخشب المطلي بطلاء الحائط نفسه لينسجم معه ويساعده في تأدية دوره دون أن يترك موضعًا للتساؤل في نفوس من يشاهدونه، استفاق (آدم) من شروده حين قال (يعقوب):

- أغلق الباب خلفك، ينبغي ألا تتركه مفتوحًا.

دخل (آدم) وأغلق الباب، فوجد مساحة تعادل مساحة غرفة السيدة (ورد).. تحتوي منضدة صغيرة عليها أوراق مبعثرة، وبضعة أرفف متتابعة معلقة فوقها وصندوق كبير في الجهة اليسرى، ومواضع في الأربع زوايا للإضاءة، ولا يوجد فيها أي نوافذ إذ كانت في جدارها الأيسر، تحتوي بضع فتحات ضيقة، لا يمكنها أن تتولى مهمة الإنارة، اتجه (يعقوب) إلى الحائط المقابل للحائط الذي دخلا منه، قرعه فبدا أنه يحوي هو الآخر بابًا مختبئًا في زي حائط، فتح الباب فظهرت فتاة في مقتبل العمر، سوداء اللون، متوسطة القامة، يميزها عن بقية الجرائيم، عينان خضراوان واسعتان، ونعومة شعرها الأسود المموج الذي يتخطى كتفيها، ظلت محدقة إلى (آدم) الذي نظر إلى السيد (يعقوب) بعدما ألقى نظرة سريعة عليها، فقال السيد (يعقوب) حين تناولت (الجرثومة صفر) الخشبة التي انتزعها:

- أظن يكفي حديثي السابق معكما، لدي أعمال ولا بد أن أرحل.

رحل مسرعًا دون أن يغلق الباب خلفه، هرولت الجرثومة خلف السيد (يعقوب) فتعجب (آدم) لفعلها، وهم ليوقفها، فوجدها تغلق الباب الرئيسي لغرفة السيدة (ورد) بالمفتاح ثم التفتت إليه، فانحنى مبتسمًا ثم اعتدل ليقول:

- مرحبًا.

لكن حين رأى الجرثومة، اختفت ابتسامته، فقد كانت تحدق إليه في دهشة، وقال مرة أخرى:

- مرحبًا.

انتظر (آدم) لحظات ليتلقى الرد على تحيته الموجهة مرتين غير أن الجرثومة بدت متحيرة، تتساءل محدثة نفسها: «ماذا يعني بهذه الكلمة؟! هل يأمرني بشيء أم ماذا؟!»

فسألها في دهشة:

- هل أنت بخير؟!

أجابته في حماسةٍ قائلة:

- أجل.. أجل.

تفاجأ (آدم) فقال في بطء:

- حسنًا، أدعى (آدم).. مسرور لرؤيتك.

همست الجرثومة قائلة:

- أدعى!! ماذا قال بعدها؟! مرحبًا! ما هذا؟!

أفزعها قول (آدم):

- ماذا؟!

فتراجعت خطوة للوراء ثم سألته مبتسمة:

- أدعى ماذا!

- أدعى (آدم).. (آدم).

فقالت في دهشة:

- أدعى (آدم)!

- أجل.. (آدم).

قالت لتمسك بخصلة شعرها ثم أردفت قائلة:

- أدعى (آدم) ومرحبًا، أدعى(آدم) ومرحبًا، أدعى (آدم)، ومرحبًا.

كادت أن تكررها مرة أخرى، فقال (آدم) رافعًا حاجبيه الكثيفين:

- ماذا؟!

توقفت قائلة:

- لا شيء يا سيدي، أحفظهما فقط لأسأل السيد (يعقوب) عنهما.

رمقها (آدم) ليحدث نفسه قائلًا: «تبًا، يبدو أنها بلهاء.»

ثم زفر قائلًا:

- عم تسألين؟!

أجابت في حماسة قائلة:

- عن معنى ما قلته؛ أدعى (آدم)، وم.. ماذا؟!

حدق (آدم) إليها قائلًا:

- مرحبًا.

صفقت قائلة:

- مرحبًا، أجل، أدعى (آدم) ومرحبًا.

وضع (آدم) يده على وجهه قائلًا في همس:

- يبدو أنني سأعاني معها كثيرًا.

ثم نظر إليها رافعًا صوته:

- يمكن أن تسأليني أنا عن أي شيءٍ تريدين.

ابتسمت ترحيبًا بذلك ثم قالت في تردد:

- السيدة (ورد) عندما سألتها، أخبرتني أن معنى (الجرثومة) هو التراب المجتمع حول أصول الشجر، هل هذا صحيح؟

- لا أدري.

قالها دون تفكير ثم أردف قائلًا:

- السادة يقولون أنها اسم لوظيفة.

ثم اتجه صوب المقعد قائلًا:

- هيا نجلس لنتحدث قليلًا.

فلما تيقنت الجرثومة من جلوس (آدم) رفعت فستانها المنسدل على الأرض ليظهر الجورب الذي ترتديه دون حذاء، وجلست على أرضية الغرفة، فلما رآها (آدم) نهض واتجه صوبها ليجلس هو الآخر أمامها على أرضية الغرفة، فارتعشت يدها ليقول (آدم) سرًا: «يبدو أن هذا الأمر أكثر صعوبة مما ظننت.»

ثم ابتسم قائلًا:

- لا تقلقي، سأعلمك كل شيءٍ أعرفه، وأنتِ أيضًا، اتفقنا؟

بدت الموافقة من نظرات عيني الجرثومة، فقالت:

- أجل.

- حسنًا.. (آدم) اسمي.. (مرحبًا) كلمة نقولها عندما نرى أحدهم كنوعٍ من أنواع التحية، مثلًا أنا لم أركِ من قبل، لهذا قلت (مرحبًا) كبداية، وعندما أراكِ غدًا سأقولها، وأنتِ تقولين أيضًا ردًا لها، هل هذا واضح؟!

أجابت الجرثومة قائلة:

- أجل.

ثم ضحكت لتردف قائلة:

- لم يقلها (ماني) حين تحدث إلى (روز).. بل كان يقول (مساء الخير) في البداية ثم (مساء السعادة) ثم (مساء الحب).

تساءل (آدم) قائلًا:

- من؟! هل عشت في مكانٍ آخر غير هذا المكان؟!

أجابت في حزنٍ قائلة:

- لا.. لا، أنا لم أغادر هذا المكان منذ كنت طفلة، هذه قصة قرأتها، كان (ماني) يحب (روز) في أحداثها.

قال (آدم) في حماسة:

- جيد، هذا جيد، مسرور لانك تجيدين القراءة والكتابة.

فأجابته في دهشة:

- كلا، أنا أقرأ وأكتب فقط.

- هذا ما قصدته، يبدو أن السيدة (ورد) قد اعتنت بك كثيرًا.

لم يتلق (آدم) ردًا، فأردف قائلًا:

- قبل أن نبدأ أي شيء، لا بد أن تخبريني كل شيءٍ عنك.

حدقت إليه في صمت، فقال (آدم):

- ألم تفهمي ما قصدته؟!

قالت في تردد:

- كلا، لقد فهمت، لا أعرف كيف أخبرك، يمكنك أن تسأل السيد (يعقوب).

ثم زفرت لتردف قائلة:

- سيدي، هل تراني لا أصلح لتلك الوظيفة، أنا أعمل مع السيدة (ورد) منذ كنت طفلة، وأعدك ألا أخطئ.

تساءل (آدم) قائلًا:

- ماذا كنت تعملين مع السيدة (ورد)؟ لا أفهم!

أجابت مبتسمة:

- السيد (يعقوب) من علي بهذه الوظيفة منذ أن تم قتل والدي، لم أرهما أبدًا، دربتني السيدة (ورد) لهذه الوظيفة السرية، وقد أخبرني السيد (يعقوب) أن سيدًا آخر سيأتي لترحل السيدة (ورد).. ويجب علي أن أنفذ أوامره حتى أستمر هنا دون أن أنزل إلى القاع.

قاطعها (آدم) قائلًا:

- القاع! ما القاع؟!

- لا أدري لكن هكذا أخبرني السيد (يعقوب) وأظن أنه مكان ممتلئ بالوحوش مثل ذاك المكان الذي دخلته الأميرة فرارًا من الأعداء، كان هناك شبح أسود مخيف يفاجئها حين تركض، وجمع من الوحوش تكاد تلتهمها، فكانت مرتعبة.

ثم قالت ليشعر (آدم) بالفزع:

- سيدي، هل رأيت شبحًا من قبل؟! والوحوش تأكل الجرائيم النساء فقط أم تلتهم كل الجرائيم؟ وهل هي تلتهم الجرائيم فقط حقًّا؟!

ظل (آدم) محدقًا إليها للحظات إثر تعجبه مما قالت ثم قال:

- لم أرَ شبحًا من قبل، هل قرأت هذا أيضًا؟!

أجابت في حماسة قائلة:

- كلا، السيدة (ورد) كانت تقص علي بعض القصص.

- هل أخبرك السيد (يعقوب) بسبب قدومي إلى هنا؟

- أجل، ستعمل مكان السيدة (ورد).. مسؤول عن حماية الجراثيم.

غضب (آدم) قائلًا:

- فقط، ألم يخبرك بهويتك؟!

- أجل، اسمي (الجرثومة صفر).

ثم وضعت يدها على فمها لتضحك قائلة:

- أدعى (الجرثومة صفر).

ابتسم (آدم) قائلًا:

- هل تعلمين شيئًا عن أرض الأحلام؟!

- أرض ماذا؟!

وقف (آدم) غاضبًا ثم صاح قائلًا:

- ما هذا الهراء؟ ماذا يريد مني أن أفعل؟ تبًا! كيف يتلاعب بي هكذا؟!

ويبدو أن الجرثومة قد فزعت لغضب (آدم) فوقفت في إحدى زوايا الغرفة مرتعبة، وحين رآها (آدم) حاول أن يسترجع هدوءه، فبعد مرور لحظات، وقف أمامها ليمسك بيدها المرتعشة قائلًا:

- أول شيء يجب أن تتعلميه مني، ألا تخافي من أحد، لا بد أن تواجهي جميع المخاوف، الجراثيم ونحن أصحاب البشرة البيضاء، لا فرق بيننا سوى اللون، انظري إلي، لدي وجه وأنت لديك الوجه نفسه، تمتلكين عينين، لذلك ينبغي ألا يقودك أحدهم، كما أن أذنيك، لا يجب أن يسمعا أي شيء دون تفكير، ولديك قامة معتدلة مثلي، انظري.. تقفين مثلي.

وقام بفتح يده الممسكة بيدها، وكادت أن تجذب يدها حتى أوقفها بيده الأخرى قائلًا:

- انظري.. لديك يد مثلي، لا تمشي على أربع مثل الماشية كما أنك لا تزحفين على بطنك كالزواحف، ولست مخيفة كالوحوش، ولست شبحًا، والوحوش نخاف منها جميعًا، السيد (يعقوب) لو رأى أحدهم لهرب مرتعبًا، وإن لم يحالفه الحظ لقضى عليه، ولأصبح ضحية وحش، وإذا رآتني التهمتني دون تردد، أما الأشباح، فلم أرَ يومًا شبحًا، وإن رأيته لمت في

أرضي.

ثم صمت (آدم) برهة ليردف قائلًا:

- ربما لا تفهمين كل ما قلته، لكن أظن أنك تشعرين بما أردت قوله، لدينا مشاعر مثلك، لذلك يجب ألا تجعلي أحدهم يتلاعب بها ويشكلها كما يريد لينال غايته.

أفلت (آدم) يدها وابتعد عنها قليلًا ثم قال:

- لا بد فقط أن تثقي بي، لكن لا بد أن تعملي عقلك ل...

كاد (آدم) أن يكمل حديثه غير أن صوت قرع الباب أوقفه، فأسرعت والتقطت القطعة الخشبية التي تناولتها من السيد (يعقوب) ثم أخرجت من حزام قماشي ملتف حول خصرها، ثلاثة مفاتيح ليتناولهم (آدم) ولم تدع مجالًا ليتساءل عنهم، فقد أسرعت صوب الحائط وفتحت بابها المستتر فيه بمفتاح آخر وأغلقته خلفها، فاتجه (آدم) صوب بابها المستتر وأعاد القطعة الخشبية في موضعها ثم قصد باب الغرفة الرئيسي على إثر قرع الباب المستمر، حاول فتحه بأحد الثلاثة إلا أنه لم يفلح، فتناول الثاني ولم يفلح أيضًا، وبالطبع كان الثالث هو المناسب - فليس كل ما نظن أنه الشيء المناسب لنا، يكون مناسبًا بالفعل، فكثيرًا ما تضعنا اختياراتنا في مأزق لتدفعنا إلى اختيار آخر، لم نكن نتوقع يومًا أن نضعه ضمن حساباتنا، وتتوالى الاختيارات حتى نجد ذاك المناسب لنا بعد معركة متزاحمة بالكثير من الأعباء، أثقلها الأعباء النفسية، ولا يفوز بها إلا أهل العزم - فتح (آدم) الباب ليجد الجرثومة العجوز حاملًا حقيبته وبرفقته جرثومة خادمة، تحمل الطعام، فلم يتكلم (آدم) وترك الباب مفتوحًا ثم اتجه صوب أحد المقعدين وجلس، فدخل العجوز وتبعته الخادمة، فوضعت الطعام على المنضدة وأشار لها العجوز بالانصراف ثم نظر إلى (آدم) - الذي كان يرمقه - قائلًا:

- سيدي، أعلم أنك ساخط.. لقد خذلتك.

قاطعه (آدم) قائلًا:

- كلا، أنت لم تخطئ، بل أنا، لقد وثقت بجرثومة.

ثم ضحك ساخرًا ليردف قائلًا:

- لا أتخيل أنني فعلت هذا، لو أن أحدهم سمع قصة كهذه لمات ضحكًا.

بدت علامات التعجب على وجه العجوز، فقال:

- سيدي، ألا تذكر أنك فعلت هذا حبًا لجرثومة؟!

ابتسم (آدم) ساخرًا ثم قال:

- كلا، هناك فرق بين من أجبر على أن يكون جرثومة، ومن اختار أن يكون جرثومة، أنت بذلت كل ما في وسعك لتكون جرثومة حقًا، وها أنت أثبت هذا، كان ينبغي أن أعلم أنك ما بقيت هنا رغم أن القانون لم يوافق إلا لأنك جرثومة.

كاد العجوز أن ينطق غير أن (آدم) أشار بيده ليسكت ثم أشار ليرحل، امتثل العجوز لهذا وخرج مسرعًا.

نظر (آدم) إلى حقيبته واتجه صوبها ليفتحها ثم أخرج الأوراق ليضع الورقة الأولى خلف آخر ورقة ثم أعاد ربط الأوراق مرة أخرى ليأخذ حقيبته واتجه صوب الصندوق المعد لاستيعاب الملابس ليفرغ ملابسه، ووضع الأوراق عليه ليغلقه ثم عاد مرة أخرى وجلس على المقعد ليحدث نفسه قائلًا: «لماذا أشعر أن السيد (يعقوب) يخدعني؟! لا بد أن أكون حذرًا، وتلك الجرثومة البلهاء، كيف ستصبح ملكة؟! إنها لا تعرف أي شيء عن الحياة!»

ثم تذكر حين أمسك بيدها، وقال: «هل ما فعلته كان صائبًا؟! لا أعلم لمَ فعلت هذا! لماذا لم يخبرها بهويتها الحقيقية؟! لا بأس، في الصباح سيكون لي حديث آخر معه، لن أتركه يخدعني مرة أخرى، سأخلد للنوم أفضل.»

ثم نظر إلى الطعام دون اكتراث، وحين اتجه صوب الفراش، هاجمه سؤال: «كيف تحصل هذه الجرثومة على الطعام؟!»

اتجه (آدم) صوب باب (الجرثومة صفر) وأخرج مفتاحًا من جيبه، فابتسم لأنه أصاب من أول محاولة بعدما نزع القطعة الخشبية بواسطة سكين صغير التقطه من صحن الفاكهة الذي قدم له منذ قليل، لكنه تردد في فتحه، فقام بقرع الباب برفق ثم فتحه ودخل ليجد الجرثومة واقفة، والتي يبدو أنها انتبهت إثر قرع الباب، فابتسم (آدم) قائلًا:

- جئت لأسألك عن...

كاد (آدم) أن يكمل حديثه غير أنه تذكر حين لمس وجهه يد أحدهم والصحون الفارغة ثم خرج مسرعًا وعاد حاملًا الطعام الذي جاء به العجوز، ووضعه على المنضدة قائلًا:

- كنت أود أن أشاطرك العشاء، لكني متعب وأحتاج إلى النوم، أرجو أن تقبلي هذا الطعام، غدًا نستكمل حديثنا.

أومأت الجرثومة موافقة، فقال (آدم):

- طابت ليلتكِ.

ثم خرج وأغلق الباب حين تثاءب محدثا نفسه: «أين تنام تلك؟! وكيف تصعد إلى غرفة السيد (يعقوب)؟! لا بأس، غدا أعلم كل الاسرار.»

ثم اتجه صوب الفراش لينام.

* * * *

(9)

يبدو أن الشمس قد ألقت بنورها على تلك الجزيرة إذ بدا ضياؤها نداء واضح للعمل، ويبدو أن الجرائيم أول من لبى ذاك النداء، فكانوا مثل أفواج من النمل متناثر في أرجاء الجزيرة كافة، لديهم مهمة محددة، لا بد من تنفيذها مهما كانت المخاطر، فتجدهم فلاحين في الحقول والحدائق، وعمال ينتجون كل شيءٍ يؤمرون به، وخدم في المنازل والقصور، أما السادة أصحاب البشرة البيضاء، يبدو أن مثل هذه الأعمال لا ترقى لهم، ويبدو أن هناك أعمالًا أخرى أكثر إرهاقًا من تلك التي تتولاها الجرائيم، ما زال (آدم) يغط في نومه رغم أشعة الشمس التي اخترقت النافذة ليعم ضياؤها الغرفة، وبدت (الجرثومة صفر) متناغمة مع بقية الجرائيم رغم أنها في أمان من تلك الأعمال، فقد وقفت أمام نافذة غرفة (آدم) مبحرة في عالمٍ آخر، عله عالم التفكير الذي تقبل عليه بمعطيات ليضعها في مضخة الفروض ويلهمك استنتاجًا قد يرضيك لكن لا بأس إن كان الاستنتاج يوجهك إلى اتجاهٍ واحد، ولا يضعك في سبل شتى، تملؤها المخاوف والقلق والحيرة غير أن الواقع لن يدعك تبحر كثيرًا لينقذك بطريقة أو أخرى، فصوت قرع الباب لم ينقذها فحسب بل أفزعها، فهرولت صوب غرفتها المستترة، ويبدو أن قرع الباب المستمر، قد أيقظ (آدم) من نومه، فنهض لفتح الباب ليجد العجوز، فقال (آدم) غاضبًا:

- لا أعلم الذنب الذي اقترفته لتقع عيناي عليك في الصباح؟!

ابتسم العجوز قائلًا:

- سيدي، السيد (أشهب) ينتظركم خلف البيت لتنظر في أمر الجرائيم لأن..

قاطعه (آدم) قائلًا:

- وما علاقة (أشهب) بالجرائيم؟! اذهب سأبدل ثيابي وألحق بك.

بعد مضي بضع دقائق، بدا (آدم) جاهزًا ليلقى السيد (أشهب) وكاد أن يخرج غير أن المفاتيح الثلاثة الموضوعة على الفراش، ذكرته بالجرثومة، فاتجه نحو بابها بعدما التقط المفاتيح، قرع الباب وكاد أن يستعمل المفتاح إلا أنه وجده مفتوحًا والقطعة الخشبية لا تمثل عائقًا أمام الجرثومة لفتحه، فوجد الجرثومة ماثلة أمامه ليقول في غضب:

- أذكر أنني أغلقته أمس.

ثم زفر ليردف قائلًا:

- لا بأس، فقط لا بد أن نتوخى الحذر تجاه هذه الأمور.

أجابت الجرثومة قائلة:

- أجل، سيدي فقط أردت أن أختلس النظر من نافذتكم قبل أن يستيقظ الآخرون، سيدي.. لقد أخبرتني أنه يمكنني أن أسأل عن أي شيء.

- أجل.

فاقتربت الجرثومة صوب (آدم) أكثر حين أشارت إلى غرفته قائلة:

- سيدي، أرغب أن أسألك عن شيء هناك.

تراجع (آدم) نحو الغرفة، فلحقت به ثم أشارت إلى النافذة قائلة:

- سيدي، انظر من النافذة ستجد نوعًا من النبات أصفر وأحمر وأزرق اللون بجوار النبات الأخضر، هل هذه تمثل الأشباح أم أن الشياطين تفسد النبات الذي نأكله وتأكله الماشية برداء ملون؟! سيدي.. إن منظرها عجيب!

اتجه (آدم) صوب النافذة ثم ضحك قائلًا:

- ألم تسمعي عن الورد يومًا؟!

همست الجرثومة قائلة:

- الورد والياسمين.

ثم رفعت صوتها لتردف قائلة:

- قد جلب (ماني) بعض الورد لتتناولها (روز) كي يعبر عن حبه لها.

ثم أردفت قائلة:

- ظننتهم أشخاصًا في القصة.

كاد (آدم) أن يضحك إلا أنه قال في ثبات:

- لدي بعض الأعمال في الخارج الآن، سأعود قريبًا لنتحدث، وسأغلق الباب خلفي، يمكنك أن تبقي هنا إن أردت.

خرج وأغلق الباب بالمفتاح ثم اتجهت الجرثومة صوب النافذة قائلة:

- وردًا!

ثم ابتعدت عن النافذة خشية أن يراها أحد، واتجهت نحو السرير، كادت أن تجلس إلا أنها

لمحت صندوق الملابس مفتوحًا، فاتجهت صوبه في تردد وأخرجت قميصًا أسود اللون، ظلت تبحث عن لونٍ آخر غير الأسود، فلم تجد لتحدث نفسها في دهشة: «لمَ لا يرتدي ملابس بألوان أخرى غير الأسود؟! يبدو أنه فقير، قد أخبرتني السيدة (ورد) أن اللون الأسود يليق بالجرائيم والفقراء ليتماشى مع حياتهم البائسة.»

ثم نظرت مرة أخرى داخل الصندوق، فوجدته فارغًا ثم نظرت إلى الأوراق الخاصة بـــ (آدم) والتي يبدو أنها قد أخرجتها حين بحثت عن الثوب الذي يتسم بلونٍ آخر غير الأسود ثم أمسكت بقميص، وقالت حين حاولت تقليد صوت (آدم):

- مرحبًا.. اسمي (آدم).

ثم ضحكت وتذكرت حين لمس يدها فابتسمت واتجهت إلى الأوراق ثم صوب المنضدة ووضعتها عليها لتتناول أول ورقة وتقرأ:

«لا أجد نفسي وسط هؤلاء، رغم أنهم أهلي وأقاربي وأصدقائي، لا أعلم لمَ! لكن أشعر أنني غريب بينهم، أشعر أنني لم أجد عالمي بعد، من منا على صواب؟ أنا أم هم؟! إنهم يثرثرون كثيرًا، ويضحكون كثيرًا، وأيضًا يبكون، لكن لا يعنيني كلامهم ولا ضحكهم ولا حتى بكاءهم، هل أنا أناني؟! هذا السؤال يطرأ على ذهني كثيرًا، ترى هل لدي إجابة أم ضاعت تلك الإجابة، وتاهت في ظلمات هذا العالم؟!»

توقفت الجرثومة عن القراءة ثم قالت سرًا: «لا تعني لا، وأجد تعني، تعني، أجل، السيدة (ورد) كانت تقول، ينبغي أن تجدي تلك الورقة التي أضعتها في الحال، هذا يعني أنه يبحث عن شيء ضائع، نفسي تعني نفسي.»

صمتت الجرثومة برهة ثم قالت:

- لا أجد نفسي وسط هؤلاء!

ثم ضحكت وقالت:

- لم أفهم شيئًا!

أزاحت هذه الورقة وأمسكت التالية قائلة:

- ربما أفهم من هذه شيئًا.

قرأت قائلة:

- «السيدة (ليما)..

(هكذا كتب في صدر الورقة) ثم أزاحتها عن بصرها قائلة:

- السيدة (ليما).. (ليما).. (ليما).. هذا الاسم جميل، لو لم أكن جرثومة لتمنيت أن أكون (ليما).

ثم وقفت قائلة:

- مرحبًا، اسمي (ليما).

ضحكت ثم عادت إلى موضعها السابق لتقرأ:

«السيدة (ليما).. كنت أظن أنني طوال ستة عشر عامًا متوجًا على رأس قائمة المظلومين، ذلك لأن خيالي سول لي أن أقدم في مسابقة فريدة من نوعها، هدفها اكتشاف أكثر شخص يعاني من الظلم! وبالطبع نلت المركز الأول لأني كنت حينها أكثر طفل يعاني، فأمي لم تر سوى أخي الأكبر، لم تكن المعضلة أنها تفضله، أو تكترث له أكثر، أو أنها تحبه أكثر، فقد كنت أشعر أنه لا يوجد أحد آخر، يقع في مقارنةٍ معه لتميل إلى تفضيله عن غيره، إذ كانت لا ترى غيره ولا تحب أحدًا غيره لأنها لا تراني حتى كنت أتعمد أن أضع عينيَ في مواجهة عينيها كي أطمئن أنها تراني، لكن الفاجعة أنني رأيت أخي رغم أنه لم يكن موجودًا، فقد بدا أنها تراه أيضًا حين يغيب.»

توقفت الجرثومة عن القراءة قائلة:

- الفاجعة.

ثم ضحكت قائلة:

- يبدو أنها امرأة سيئة.

تركت الورقة ثم وقفت قائلة:

- مرحبًا، ليس اسمي (ليما).

ثم جلست ضاحكة ووضعت الورقة على الأولى ثم تناولت التالية - والتي بدا أنها تكمل السابقة - وقرأت قائلة:

«في أحد الأيام حين مر ستة عشر عامًا على يوم مولدي، اتخذت قراري بأن أبوح بكل ما يجول في خاطري تجاه هذه التصرفات، وأخبرها أنها أم سيئة، وأنني أعاني من إهمالها وتجاهلها لي، خصوصًا أن السيد (يعقوب) الذي يزورنا نادرًا، قد قرر أن يأتي هذا اليوم ليتناول وجبة العشاء معنا، ومن ثم كان يومًا مثاليًا لافتح النيران على طرفي معاناتي (أبي،

وأمي) وظننت أنني وصلت إلى السن المناسب الذي أطالب فيه بحقوقي كافة، لم أكن أسعى لأن أحصل عليها، فإذا كان الاهتمام لا يمكن طلبه، فكذا الحب لأن الاهتمام بعد ذلك اليوم بالطبع سيكون مصطنعًا، لكن قررت ألا أسكت بعد ذلك اليوم، هذا ما كان يدور في رأسي حينها، وبالفعل حملت سيفي وقررت أن أخوض المعركة كجندي واثق أنه سيُسقط عدوه لكني سقطت أنا وبت أشلاء ممزقة بعدما تكالب علي كل شيء، ليس لأنني في مواجهة أمي لأن الأم لا تقف ضد ابنها مهما كان عاقًا أو فاسدًا، ولو رماها بألف سهم لتلقتهم بصدر رحب، أما السيدة (ليما) فقد علمت أنها محاربة بارعة، قد فاقت كل توقعاتي، فبت حينها جنديًا ممزقًا، لا يدري أن خصمه يعرف نقطة ضعفه أكثر منه، فأصابتني بهذا الخنجر القاسي الذي تسلل إلى قلبي دون عناء حين راقبت تناول عشائها في هدوء كأن ثورتي وصياحي لم تلفت انتباهها، وكل ما فعلته بعدما أنهت عشاءها، أنها وقفت قائلة حين حاول السيد (يعقوب) إخماد ثورتي:

- أنا أؤيد ما قلته تمامًا، خصوصًا أنك لم تعد طفلًا صغيرًا يسهل إسكاته، لذلك لا بد أن تعلم أنك مدين لي باعتذار عما قلته عني، حقًّا الأم لا تتجاهل ابنها، وتقرر أن تصبح أمًّا لابن واحد، ولو كان لدي عشرة أبناء لأحببتهم مثل ابني، لكن ليس لدي غير ابن واحد، واحد فقط، أنت لست ابني، أنت ابن غير شرعي للسيد (يعقوب).. وليد نزوة، هذه معضلتك أنت ووالدك.

ما زلت أتذكر هذه الكلمات جيدًا، فقد كانت سلاح (ليما) الذي قضى علي حينها، ووجه إلى السيد (يعقوب) لكمة قوية، أصبحت أنا المتهم المذنب المدين لها بكل شيء رغم أنها لم تمن علي بشيء طوال حياتها، فقد كان لي مربية، لكني ظننت أني أمتلك أمًّا، وأنني أعاني، أدركت حينها أن معاناتي لم تكمن في تجاهلي بل كنت لا شيء، لا شيء!»

توقفت (الجرثومة صفر) عن القراءة لتردد قائلة:

- لا شيء.. أخبرتني السيدة (ورد) أيضًا أنني لا شيء.

فأجهشت بالبكاء ثم أردفت قائلة:

- لقد انتهت هذه الورقة، سأقرأ التالية، ربما تكون مثلما قال (ماني) حين حدث (روز): «إن الحياة لا تستمر في صفعك دائمًا، ستعطيك قسطًا من الراحة بين الصفعة والأخرى ثم تعيد الصفعة من جديد.»

فتناولت الورقة الرابعة بعدما وضعت الثالثة فوق الثانية لتقرأ قائلة:

«أمي..

لم أكن أعلم أن رغبتي في الحصول على معلومات عن أمي سيكون شيئًا صعبًا لهذه الدرجة، ولا أدري لمَ تختلف إجابات الذين أسألهم عنها رغم قلة عددهم! فالسيد (يعقوب) يقول والسيدة (ليما) تنفي ما يقوله، ولا أدري من منهما على صواب حقًا! أبي يقول أنها امرأة من أهل الجزيرة، وقع في حبها فتزوجها، وزوجته تقول أنها جرثومة اتجذب السيد (يعقوب) نحوها على إثر نزوة لا أكثر، خلفت أثرًا باقيًا وهو أنا، ولأني أبيض اللون، لا حرج في أن يفتعل (يعقوب) القصص نحو أمي، أبي يقول إنها قضت نحبها بعد أربعة أعوام من مولدي، وزوجته تقول أنها ماتت بفعل حريقٍ هائل نشب في مكانٍ ما، وتفاجأت بالسيد (يعقوب) يحملني، لا أدري حقًا من منهما على صواب! لكن أميل كليًا إلى تصديق السيدة (ليما) وكان وراء تصديقها دلائل وشهود ساقهم إلي القدر، على أي حال، الحقيقة الوحيدة هي أنها غادرت هذا العالم والتحقت بعالم الموتى.»

توقفت (الجرثومة صفر) عن القراءة لكن هذه المرة كان فزعًا من قرع أحدهم الباب، فهرولت إلى مخبئها، وبات القارع مصرًا على طلب فتح الباب لأنه السيد (داغر) الذي وقف غاضبًا ليهمس قائلًا:

- ما هذا الصوت الذي سمعته؟! لا بد أن ابن السيد جاء ليفسد هذا البيت، تبًا له!

قاطعه العجوز الذي جاء من أعلى قائلًا:

- سيدي.. السيد (آدم) برفقة السيد (أشهب) خلف البيت.

قال (داغر) غاضبًا:

- ماذا؟!

كاد العجوز أن ينطق إلا أن (داغر) غادر قائلًا:

- تبًا! لمَ لا يكف عن الاصطدام بي في كل مكانٍ هذا الهرم؟! أنا أبغضه، وأبغض سيده الذي يبقي عليه هنا، وابنه المترف، تبًا! أصبحت مجبرًا على التعامل مع (آدم).. تبًا له!

بدا (داغر) مصرًّا على لقاء (آدم) فقد صار على مقربة منه خلف البيت، والذي كان برفقة السيد (أشهب) والسيدة (شيار) وقد تساءل (آدم) مشيرًا إلى جماعات من الجرائيم، يمتلك أمر كل جماعة منهم رجل أبيض اللون ليميزهم عن بقية الجرائيم بانتهاء السلاسل الحديدية التي تجمعهم في يده، واليد الأخرى تحمل بضع أوراق:

- حسنًا، فهمت ما شرحته لي عن هذه السجلات التي سجلت فيها الجرائيم الجدد، لكن لمَ هؤلاء هنا الآن؟!

قالت (شيار) حين قدمت إليه ورقة:

- هذه الورقة قبل أن تفقد، جاءت كتقرير عن إحدى الجرائيم، والسيدة (ورد) مريضة، أما سؤالك عن هؤلاء الجرائيم، فعند قدوم جرائيم جدد، يود بعض علية القوم استبدال بعض جرائيمهم بآخرين، ويدفعون نظير ذلك مبلغًا من المال، لكن هذا يتوقف على السيدة (ورد) فهي تلبي حاجة القصر الملكي أولًا ثم تنظر أمر البيع بعدها.

كاد (آدم) أن ينطق إلا أن (داغر) قد تحدث قائلًا:

- مرحبًا.

نظر (أشهب) إلى (آدم) ثم قال:

- ولقد نسيت السيدة (شيار) أن الطبيب لا يدع نصيبه من هذه الغنيمة أبدًا.

تجاهل (آدم) تحية (داغر) وحديث (أشهب) متسائلًا:

- وما حاجة القصر الملكي إذًا؟!

أجابته (شيار) قائلة:

- حسنًا، القصر الملكي يحتوي الكثير من الجرائيم الآن، لكن مع قلة أعداد الوافدين إلينا من الجرائيم في السنوات القليلة الماضية، لا بد أن ندخر بعضهم تحسبًا لأي طوارئ.

سكن (آدم) قليلًا ليفكر في الأمر ثم قال:

- أنتم ستذهبون الآن ثم تعودون غدًا، أخبروا سادتكم أننا نرتب الأمر.

يبدو أنهم امتثلوا لما قاله (آدم) فقد تحرك قواد كل جماعة من الجرائيم تباعًا.. فزفر (آدم) قائلًا:

- هكذا أفضل.. يجب أن أرتب أوراقي أولًا.

قال (أشهب):

- لا أدري، أخشى أن يوقعنا هذا في صدام مع أحد كبار الحاشية الملكية.

سأل (آدم) مستفسرًا:

- ألسنا من تلك الحاشية؟!

- كلا، جميعنا موظفون هنا، هذا ما عدا السيد (يعقوب) بالطبع.

قال (آدم) محدقًا إلى (داغر):

- لا عليك، أنا المسؤول هنا، وأمتلك زمام الجرائيم، لا يمكن أن يجبرني أحدهم على فعل شيء.

ابتسم (أشهب) قائلًا:

- حسنًا، سأذهب لأتابع أعمالي الآن.

بادرت السيدة (شيار) قائلة:

- وأنا أيضًا.

ابتسم (آدم) قائلًا:

- شكرًا لكما.

كاد (آدم) أن يتبعهما غير أن (داغر) أوقفه بقوله:

- حسنًا.. (آدم).. أنا لست عدوًا كما تظن.

- لكنك غير محتمل.

- لقد أصبت حقًا، عندما ترى بعض الأشخاص للمرة الأولى، تحاول أن تبدو شخصًا رائعًا، أما أنا، فهذا لا يعنيني، فأنا أبغض الجميع سواء كنت أعرفهم أم لا، هذا شأني، ينبغي أن تؤدي وظيفتك بغض النظر عن مشاعرك صوب من تعمل معه.

استحسن (آدم) هذه الكلمات فقال:

- حسنًا، ماذا تريد؟!

- جرثومة لكن من فئة الأطفال.

- لماذا؟!

- أنت لا تعلم أن لديهم فرصة للتكيف مع بيئة مختلفة عن بيئتهم الأصلية.

- إن كان كلامك صحيحًا، فلمَ لا أدخرهم للأثرياء؟!

- لا بأس، سأدفع ما تريد.

سكن (آدم) برهة ليفكر في الأمر ثم ضحك قائلًا:

- أعتذر.. فقد تذكرت شيئًا.

قال (آدم) محدقًا إلى (داغر):

- لا عليك، أنا المسؤول هنا، وأمتلك زمام الجراثيم، لا يمكن أن يجبرني أحدهم على فعل شيء.

ابتسم (أشهب) قائلًا:

- حسنًا، سأذهب لأتابع أعمالي الآن.

بادرت السيدة (شيار) قائلة:

- وأنا أيضًا.

ابتسم (آدم) قائلًا:

- شكرًا لكما.

كاد (آدم) أن يتبعهما غير أن (داغر) أوقفه بقوله:

- حسنًا.. (آدم).. أنا لست عدوًا كما تظن.

- لكنك غير محتمل.

- لقد أصبت حقًا، عندما ترى بعض الأشخاص للمرة الأولى، تحاول أن تبدو شخصًا رائعًا، أما أنا، فهذا لا يعنيني، فأنا أبغض الجميع سواء كنت أعرفهم أم لا، هذا شأني، ينبغي أن تؤدي وظيفتك بغض النظر عن مشاعرك صوب من تعمل معه.

استحسن (آدم) هذه الكلمات فقال:

- حسنًا، ماذا تريد؟!

- جرثومة لكن من فئة الأطفال.

- لماذا؟!

- أنت لا تعلم أن لديهم فرصة للتكيف مع بيئة مختلفة عن بيئتهم الأصلية.

- إن كان كلامك صحيحًا، فلمَ لا أدخرهم للأثرياء؟!

- لا بأس، سأدفع ما تريد.

سكن (آدم) برهة ليفكر في الأمر ثم ضحك قائلًا:

- أعتذر.. فقد تذكرت شيئًا.

زفر (داغر) قائلًا:

- لا بأس.. ما جوابك بشأن تلك الصفقة؟

- حسنًا، سأفكر في الأمر، بإمكانك زيارتي في غرفة السيدة (ورد).. أقصد غرفتي الآن مساءً، ولا مانع لدي في أن تصطحب معك بعض الأزهار الحمراء والزرقاء والصفراء.

رحل (آدم) دون أن ينتظر ردًا من (داغر) الذي قال هامسًا: «أيها الأبله، أنت لا تعلم مع من تتعامل! يبدو أنني سأفجع (يعقوب) قريبًا، لا بأس، سيكون ذلك محببًا إلي حين أرى (يعقوب) الحقير منتحبًا على ولده، ما أيسر ذلك عليك يا (داغر)!»

ثم تبع (آدم) إلى البيت بعدما فرغ من حديثه مع نفسه، وحين دخل البيت، رأى (آدم) يقف على الدرج إثر مناداة العجوز له، فلم يعبأ (داغر) لهذا، واتجه إلى غرفته في الطابق الأرضي، وقد بدا العجوز ماثلًا أمام (آدم) ثم مد يده ليعطيه بضع أوراق قائلًا:

- سيدي.. هذا بريد اليوم بشأن الجراثيم من جهات عملهم، أما الورقة الأولى، فهي دعوة لحضور المحاكمة...

قاطعه (آدم) قائلًا:

- اتبعني.

صعد (آدم) الدرج ثم تبعه العجوز حتى بلغ غرفته، فأخرج (آدم) المفتاح من جيبه لكنه تعمد إثارة ضجة لتعلم (الجرثومة صفر) أن أحدهم برفقته، فقال وقد ارتفع صوته ليفزع العجوز:

- ما تلك المحاكمة التي جئت لتخبرني بها؟!

وقرع بيده الباب قائلًا:

- تبًا! لمَ لا تدعوني كي أرتاح هنا.

كاد العجوز أن يجيب إلا أن (آدم) فتح الباب في سرعة ودخل ثم أغلقه، فلما اطمأن أن الجرثومة ليست موجودة، عاد إلى العجوز مشيرًا له بالدخول، فامتثل العجوز لهذا وتبع (آدم) الذي قال:

- أسمعك.

تساءل العجوز قائلًا:

- ماذا؟!!

أجاب في هدوء قائلًا:

- بشأن المحاكمة تلك.

- سيدي.. أنت أحد أعضاء هيئة الدفاع عن السادة وحمايتهم من الجرائيم، ومن ثم فأنت تحضر المحاكمة لأنك المسؤول عن جميع الجرائيم في هذه الجزيرة، كما أنك عضو في هذه الهيئة.

- حسنًا، لم أسمع عن مثل هذه المحاكمات من قبل، ماذا يحدث فيها؟!

- عجبًا! إنها يا سيدي، تكون في الساحة ويأتي إليها الناس من جميع أنحاء الجزيرة، تكون شكاوى من السادة ضد جرائم اقترفها الجرائيم، ومن ثم تصدر الهيئة الحكم المناسب.

ضحك (آدم) قائلًا:

- تبًا! وماذا يمنع السادة من معاقبة جرائيمهم؟!

- في السنوات القليلة الماضية، كثر قتل الجرائيم على أيدي سادتهم بشتى الصور، فمع قلة الوافدين من الجرائيم، أصدر الملك أمرًا بأنه لا يجوز للسادة معاقبة جرائيمهم بالموت إلا في حدود ضيقة للغاية بعد الرجوع إلى الهيئة، ولا أن يعاقبوهم هذا العقاب الذي يؤدي إلى الموت، ومن ثم تشكلت هذه الهيئة لتصدر الأحكام.

- هل ذهبت هناك لتعلم كل هذا؟! حسنًا، أعطني.

تقدم العجوز وأعطى (آدم) الأوراق، فنظر إلى الأولى ثم قال في غضب:

- ماذا؟! المحاكمة اليوم! كيف ذلك؟!

- سيدي، هذه جلسة طارئة، تعقد المحاكمة سنويًا لكن في الحالات الطارئة يكون هناك استثناء، وهي معلن عنها قبل توليك هذا المنصب.

- كيف؟! أنا لا أعرف دوري هناك!

- سيدي، لا عليك، القرار يكون للسيد أو لمن يرسله.

- ماذا تعني؟!

- أقصد أن كل هذا مجرد تنفيذ للقانون، أما الحقيقة فهو أمر هزلي، محاكمة يكون فيها

المدعي هو الفائز دائمًا، ولا يمكن لأي جرثومة أن تنجو.

- أنا لا أثق بأي شيء تقوله، لكن يمكنك أن تجهز لي جوادًا.

- سيدي، لا يجوز، ينبغي أن تذهب إلى هناك بالعربة الخاصة بالسادة، هذه أوامر السيد (يعقوب).

- لا بأس، لكن سترافقني إلى هناك.

- سأفعل يا سيدي.

كاد العجوز أن يهم بالخروج حتى أوقفه (آدم) حين نظر إلى ثيابه قائلًا:

- إن كنت سأذهب في موكب السادة، فينبغي أن أرتدي مثلهم، أتفهمني؟!

- أجل يا سيدي، هناك بضع قطع من الثياب، جلبها السيد (يعقوب) اليوم، وضعتها في صندوق الملابس منذ قليل.

- ماذا؟! وكيف تمكنت من الدخول إلى هنا؟!

- السيد (يعقوب) يمتلك مفاتيح كل شيء هنا.

- حسنًا، سألحق بك.

خرج العجوز مسرعًا..

* * * *

(10)

بدا (آدم) جاهزًا، يرتدي قميصًا أبيض اللون ذا كمين واسعين وياقة طويلة مرصعة باللون الذهبي لتتناغم مع خطين طوليين باللون نفسه على البنطال الأزرق والمعطف الأزرق، يحمله في يده ليتجه إلى العربة، وحين اطمأن العجوز لاستقراره في العربة، اتجه نحو قائد العربة الذي يرتدي زيًا عسكريًا وجلس بجواره، فتحرك القائد بعدما انطلقا أمامه جوادان يحملان جنديين، وخلف العربة كان هناك جنديان يمتطيان جوادين للحراسة، بعد مرور مدة، توقفت الأحصنة والعربة، ويبدو أن (آدم) قد انجذب إلى أصوات مرتفعة في الخارج، فبادر بفتح باب العربة وخرج منها ليجد منصة عالية، يتصفها طاولة طويله مزودة بثلاثة مقاعد خاوية، وإلى اليمين منها منضدة صغيرة مرفقة بمقعد، يجلس عليها رجل، يرتدي زيًا عسكريًا مزينًا بوسام لامع على صدره، يصطف أمامها الجنود لمنع أي شخص من الوقوف في هذه الجهة من الساحة، تقدم العجوز نحو (آدم) قائلًا:

- سيدي.. هذا مكانك.

قالها مشيرًا إلى المقعد في الجهة اليسرى.

كاد (آدم) أن يتجه صوب مقعده إلا أن العجوز أوقفه قائلًا:

- سيدي؟

نظر إليه (آدم) صامتًا، فقال العجوز:

- سيدي، قد لا أكون موضع ثقتك، لكن كل شيء هنا سيستفزك لتخرج عن شعورك، قاعدة واحدة هنا هي المتبعة للحكم والدفاع والاتهام، مفادها الجرائيم حثالة ينبغي أن يدفنوا أحياء لأن الجهد المبذول لقتلهم لا يستحقونه.

حدق إليه (آدم) متسائلًا:

- ماذا تريد؟! هل تظن أنني أبله لأتعاطف معك مرة ثانية؟!

- كلا، كلا، لدي من يحميني رغم أنف كل تلك الحشود، سيدي قد يطلب منك أن تقف موقف الدفاع، وحينها سيجب عليك أن تتوسل إليهم ليتكلفوا بعض العناء لقتل الجرائيم، أرجوك افعل هذا.

- إنك تهذي!

تقدم (آدم) بضع خطوات تجاه المنصة، فأسرع العجوز خلفه وأوقفه بوقوفه في طريقه

قائلًا:

- ذات مرة قام أحد السادة بتقديم دفاع رائع عن إحدى الجرائيم، ولمنصبه ودفاعه، جاء قرار المحكمة بالعفو وألا تعود الجرائيم مرة أخرى لعهدة الجهة الرسمية، فزج بامرأة جرثومة وطفلتها بين أرجل تلك الحشود التي تأتي كل مرة لتستمتع بمحاكمة هؤلاء الجرائيم، وكلما كان الحكم قاسيًا، زاد رضاهم، ضربوا الطفلة، أما أمها فتلذذوا بتعذيبها حتى الموت، ظلت الحشود في الساحة حتى المساء للمرة الأولى.

انطلق (آدم) دون أن ينبس ببنت شفة حتى وصل إلى المنصة ثم قام بارتداء معطفه، وحين صعد، حدق إلى صفوف الجالسين (رجال ونساء) الذين يبدوا أنهم من علية القوم، فقد كانوا يرتدون ثيابًا أنيقة مميزة لهم عن الحشود الواقفة خلف مقاعدهم، سكنت الأصوات المرتفعة وحدقت الأعين إلى (آدم) حتى انفلتت الألسن من جديد، وبلغت أذني (آدم):

- من هذا؟!

- لم أره من قبل!

- إنه يجلس موضع السيدة (ورد).

- إنه وسيم.

- لا يرتدي زيًا عسكريًا!

- ابن (يعقوب)!

هدأ الوضع من جديد على إثر ظهور رجل، يرتدي ثيابًا عسكرية، صعد إلى المنصة وهمس للرجل الجالس، فهم بالوقوف مخاطبًا الحشود الماثلة أمامه:

- انتباه أيها السادة والسيدات، لا بد أن يلزم الجميع الهدوء التام.

وقف (آدم) على إثر صعود رجلين؛ أحدهما يرتدي زيًا عسكريًا، يعج بالأوسمة على صدره، يبدو أنه رئيس المحاكمة لجلوسه على المقعد الأوسط دون أن يلتفت إلى (آدم) واضعًا قبعته التي كان يمسك بها أمامه، على الرغم من التفات (آدم) إليه ظنًا منه أنه سيصافحه، أما الرجل الثاني؛ فيرتدي ثيابًا تشبه ثياب (آدم).. تختلف عنها في لونها البني الفاتح، والذي رمق (آدم) ثم جلس إلى يمين الرجل الآخر، ففعل (آدم) مثلهما دون أن يكترث لهذا محدثًا نفسه: «اهرب يا (آدم).. اهرب، أغمض عينيك واسبح في عالم آخر. أجل سأقابل حبيبتي ١٢٣، أجل.»

أفسد على (آدم) محاولة هروبه، متابعة الرجل الذي طالب الحشود بالهدوء قائلًا:

- اليوم تعقد محاكمة استثنائية لحماية حقوق السادة من هؤلاء الجراثيم، إنها المحاكمة السادسة عشرة من المحاكمات الاستثنائية، بحضور (اللورد وافي) نائبًا عن السيد (ديودتشي) رئيس مجلس حماية السادة، والسيد (صبور) ممثلًا عن السادة وجميع أهالي جزيرتنا، والسيد (آدم) بصفته مسؤولًا عن شؤون الجراثيم وعضوًا في مجلس حماية السادة، تحت إشراف ورعاية الملك (ألكسندر) السادس عشر، تبدأ وقائع المحاكمة.

ثم التقط أول ورقة أمامه، وعاود الحديث قائلًا:

- أول دعوى مقدمة من السيدة (أروين) ضد جرثومتها ٤٤٥، أيها السيدة (أروين) بإمكانك أن تقصي شكواك الآن.

نهضت امرأة من بين الجالسين أمام المنصة، ذات ملامح لا توحي إليك بشيءٍ عن شخصيتها، وإنما هي مقبولة من حيث تصنيف الجمال، ترتدي فستانًا رمادي اللون بكمين واسعين، يخلو من أي علامات الترف، وقبعة باللون نفسه، تمسك بمنديل أبيض اللون، صعدت ثلاث درجات وخطت بضع خطوات لتقف بجوار الرجل الذي نادى القضية، والذي أشار لأحد الجنود من خلفه بيده، يبدو أنها إشارة مفهومة بالنسبة للجندي الذي التفت خلفه وأشار بالإشارة نفسها، فبدا جنديان، يتضح لك من الوهلة الأولى أنهما متوجان على رأس قائمة القوة، فقد بدا أنهما مفتولا العضلات، يتميزان بطول القامه وضخامة الجسم، ولا حرج في ذلك، فالقوة في وجهتها الصحيحة، خصوصًا تحت رعاية القانون تكون موضع احترام، أما إذا انفلت أمرها وباتت عنوانًا للظلم وما شابه، فتصبح كارثة إنسانية خصوصًا إذا كانت بإذن محققي القانون! تتكئ على كتفيهما الجرثومة ٤٤٥ المدعى عليها، رغم أنها مقيدة بسلاسل حديدية، يطبق أحدهما على زمام أمورها إلا أنها لم تتكئ فقط لضعف الجسد، فقد بدت غير واضحة المعالم، تتدفق أنهار من الدماء في أنحاء جسدها، لا تكاد تبصر من أين يبدأ أيهما، وإلى أين ينتهي! لكن إن نظر أحدهم بعين الإنسانية لتمنى أن تجف هذه الأنهار عل ذلك يُسكت ألحان الألم التي تعزف دون توقف على ضفتيها، وإن كانت تلك العين منصفة، فستصرخ؛ كيف يعاقب المتهم قبل محاكمته؟! أما إن كانت واعية، فإنها تعارض وتحتج على أناشيد الظلم المرافقة لألحان الذل والمهانة الملازمة لألحان الألم ثم إن الأمر لن يقف عند هذا بل ستطالب بمحاكمة المنتهكين للإنسانية حتى وإن كانت المتهمة مذنبة بالفعل إذ ينبغي ألا يتم ردع جريمة بجريمة أكبر! ولكن هيهات أن تجد عينًا من تلك الأعين لأن الأعين جميعها تبدو متعطشة للاستمتاع بأكثر من ذلك وحشية وقسوة، حتى عين (آدم) فرغم اختلافه معهم إلا أنه بدا تائهًا حائرًا، يحدث نفسه في ضعف: «لماذا لا أستطيع

الهرب؟! ماذا يحدث لي؟!»

قطع تساؤلاته تلك، رؤية الجرثومة ٤٤٥ حين ألقاها أحد الجنود على مقربة منه، فبات صياح العامة بكلمات مجمع عليها يؤدونها في تناسقٍ مذهل، كأنهم مدربون على ذلك للقيام بعرضٍ ما:

- الموت للجراثيم، الموت للملعونين، الموت للجراثيم، فليحيا السادة.

فباتت كحبال غليظة، تلتف حول جسد (آدم) لتربطه بمقعده حتى لا يستطيع الهرب مرفقة بضربات سياط احترافية، تحقق الألم من ضربةٍ واهنة لتعلن بوضوح وصول السفينة المحملة بالظلم والقهر إلى شاطئ الواقع مغلقة أبواب الخيال بحصون منيعة، بات أثرها واضحًا في عيني (آدم) الذي تترنح روحه في خوف من كل هذه الأمور التي حوله، ورجفة يد وقشعريرة جسد في مرحلة العودة إلى الحياة من الإدمان، وإن كان إدمان (آدم) للعيش في الخيال مختلفًا لكنه يمثل معضلة! سكن الوضع مرة أخرى على إثر إشارة الجندي للعامة بيديه ليفسح الطريق للمرأة المدعية كي تتحدث، والتي وضعت يدها على جبينها قائلة في نبرةٍ معتدلة، تكاد تصل إلى السادة الجالسين أمامها دون أن تصل إلى العامة:

- اسمي (أروين أرسين).

فثار الرجل الذي يجلس على منصة صغيرة بعد صفوف السادة مباشرةً من الجنود وعلى مقربة من أول صفوف العامة لأن صوتها لم يصل إليه، وقد بدا أنه مكلف بمهمة نقل وقائع المحاكمة للبقية المحتشدة لاستحالة وصول ذلك إليهم مباشرةً، فتبعته الحشود من خلفه لتحدث ضجة كبيرة لإيصال طلبهم، فبادر الجندي مرة أخرى برفع يديه، وقال اللورد وافي (رئيس المحاكمة) في صوتٍ أجش:

- سيدة (أروين).. أرجوكِ انزعي عباءة الحياء اليوم بعيدًا، ولا بد أن تعلمي أنكِ في مهمةٍ مقدسة لكشف الستار عن خداع هؤلاء الملعونين (الجراثيم).

بعد انقضاء مدة نقل كلام اللورد إلى العامة، عاد صياح العامة من جديد:

- الموت للجراثيم، الموت للملعونين، فليحيا (اللورد وافي).

حتى أشار لهم الرجل بيديه ليصمتوا لأن السيدة (أروين) بدأت مستجيبة لهذا، فرفعت صوتها قائلة:

- اسمي (أروين أرسين)

أشار لها الجندي بالصمت حتى يتمكن الرجل من إيصال هذا إلى العامة ثم أشار لها،

فأردفت قائلة:

- زوجة السيد (ملاك أرسين).

توقفت ثم أردفت:

- وكعادة السادة الذين يمنون على الجرائيم بحياة جديدة معنا، فإن شراء الجرائيم أمر معتاد، وكانت تلك الجرثومة ٤٤٥ ومع كل آيات الحسرة وأناشيد الندم التي يمكن أن يتخذها المرء مسلكًا للندم على فعلٍ قام به، إنها لا تواسيني اليوم في مقتل زوجي، هذه الجرثومة قتلت زوجي (السيد أرسين).. هذه الملعونة جعلت أبنائي بلا أب، طعنته بسكينٍ حاد ذات ليلة وقضت عليه ثم ثرثرت لتدعي أن زوجي (السيد أرسين) قد راودها عن نفسها، إنها تظن أنها امرأة لكنها جرثومة ملعونة.

بعدما أنهت السيدة (أروين) كلماتها المتقطعة تلك لتصل إلى العامة، والتي بدت غير قادرة على قول المزيد أو أن ما قالته قد كان كافيًا لإثارة العامة والسادة ليطالبوا بكلمات وصياح مدرك أو غير مدرك من الفوضى التي جابت الساحة، مفادها: «اقتلوا الجرثومة الملعونة، إنها مذنبة ولا فرار من العقاب.»

هدأ الوضع من جديد على إثر نهوض السيد (وافي) من مكانه قائلًا في حزم:

- إن هذا يكفي يا سيدة (أروين).. لن نترك هؤلاء الأوغاد ليتمردوا أكثر، أيتها الجرثومة ٤٤٥ الملعونة، أوقفوها.

فقام الجندي بجذب ذراعيها ليجعلها في وضع وقوف، والتي بدت غائبة عن الوعي، فصاح (اللورد وافي) قائلًا:

- لا بد أن تستفيق.

ثم نظر إلى (آدم) - الذي يلهث كأنما قد صارع أحدهم - قائلًا:

- سيد (آدم).. دفاعك عن الجرثومة بصفتك المسؤول عنهم الآن.

نظر إليه (آدم) كأنما فقد كلماته، فرمقه السيد (وافي) قائلًا:

- سيد (آدم)!!

قطع هذا المشهد أحد الجنود قائلًا:

- سيدي، لقد ماتت الجرثومة ٤٤٥.

فصاح (اللورد) في غضب:

- تبًا! تأكد أيها الأبله.

يبدو أن هذا الأمر قد بلغ العامة، فعمت الفوضى مفعمة بالسخط كأنهم أرادوا قول: «كيف تموت الجرثومة دون إذن السادة؟!!»

هدأ الوضع من جديد على إثر حديث (اللورد وافي):

- الجرثومة ٤٤٥ مذنبة، ورغم أنها ماتت إلا أنها ينبغي أن تكون عبرة لبقية الملعونين، فليفصل الرأس عن الجسد، ويعلقا في الساحة حتى تعلم كل جرثومة متمردة جزاءها.

وبالطبع بات السادة والعامة في رضا تام عن هذا الحكم المحبب إلى نفوسهم، فمن منظورهم هذا جزاء يسير لما قالته السيدة (أروين) وكأن كلماتها مقدسة مبرأة من الكذب والافتراء والزور والبهتان!

هبطت السيدة (أروين) وتركت المنصة ثم عاد الجندي قائلًا:

- الدعوى الثانية والأخيرة اليوم.

والتقط ورقة ليقرأ في دهشة:

- مقدمة من بعض العامة، وبعض السادة ضد السيد (زهير) وجرثومته ٩٩٠.

صعد من الجهة الخلفية السيد زهير (صديق الملك والسيد يعقوب) وبرفقته الطفل الجرثومة (الذي اشتراه من مزاد علني بعد قتل أمه).. وجه أحد الجنود السيد (زهير) للوقوف على مقربة من (آدم) وبرفقته الجرثومة، فامتثل لهذا، وحين بلغ مقصده رجع خطوة للوراء - على إثر رؤيته لآثار دماء الجرثومة ٤٤٥ متناثرة، لا تزال حية محتفظة بطبيعتها السائلة - إلى الموضع الذي سيقف فيه ونظر إلى الجرثومة الطفل نظرة شفقة أكثر من نظرة معلنة لهزيمته في حمايته من هذه الأعين المتعطشة للمزيد من الدماء، وبدا هو و(آدم) في حال متشابه، فحين رأى (آدم) السيد (زهير) تذكر صورة وردت عبر بريد الذاكرة، بدا فيها السيد (زهير) في عنفوانه، يرتدي ملابس عسكرية في حديقة بيت السيد (يعقوب).. يقدم على ركوب جواده ليراقبه (آدم) من بعيد بعينين حالمتين بأن يصبح فارسًا مثله، فيبتسم (آدم) لرؤيته هذا، ويعيد النظر من جديد إلى السيد (زهير) كأنما تناسى كل ما ألم به فجأة، وأصبح مترقبًا ما سيحدث للسيد (زهير).. تشابه معه السيد (زهير) في استقبال صورة من بريد الذاكرة مفادها قوله لنفسه: «احذر يا (زهير) أن تقع للمرة الثانية هنا، يجب ألا أسعى لبراءة الجرثومة كما فعلت في الماضي، المهم أن يبقى حيًا دون أن تلتهمه هذه الوحوش

الضارية المجتمعة على فريسة هزيلة، تبًا!»

أخرج الاثنين صوت السيد (صبور) الذي نهض ثم اتجه نحو الجندي ليقول في نبرة متقطعة حتى يتمكن الرجل من إيصال كلماته إلى العامة:

- نحن اليوم أمام واقعة غريبة، لم نشهدها من قبل، يبدو أنه يوم العجائب لجزيرتنا الخالدة، الجاني جرثومة لا ريب، لكن هؤلاء السفلة أصبحوا بارعين في جرائمهم، وهيهات أن نتركهم، انظروا إلى هذه الجرثومة (مشيرًا إلى الجرثومة الطفل) انظروا إلى وجهه البريء، لا يغرنكم فإنه لص محترف لكنه ليس لصًا عاديًا يا سادة، وإلا ما كنا نرهقكم من أجل هذه الحفنة السافلة، ليت يده تلك امتدت لتسرق أموال السيد (زهير).. ليت هؤلاء الحثالة الذين أنقذناهم من أيدي الطغاة، علموا قدر إحساننا إليهم.

ثم زفر ليردف قائلًا:

- نحن اليوم نرى أحد السادة، وليس فردًا عاديًا، فجميعنا نعلم هوية السيد (زهير) الفارس والقائد العظيم، ورغم اعتزاله منصبه إلا أنه ما زال مسجلًا في دفاتر يوميات جزيرتنا الخالدة، نروي لأطفالنا وأحفادنا عن البطل الشجاع (زهير) لكن بكل آيات الحسرة المعلنة لفوز جديد للجرائم، نجد هذا الوغد الجرثومة قد سرق قلب السيد (زهير).

صاح العامة وهمس السادة الجالسون، فجاءهم صوت أحدهم يقول:

- يا ويلي! لم أرَ قلبًا من قبل! أين أخفاه هذا اللعين؟!

شاطره أحدهم بقوله:

- دفنه في الحديقة.

وارتفعت أصوات الضحك من الأنفس المترفة علهم أرادوا بعض الترويح لتزداد التسلية!

هدأ الوضع من جديد لكن بدا وجه (آدم) ثائرًا، يزداد احمرارًا لرؤيته السيد (زهير) ساكنًا، لا يعبأ بهذا كله حتى استأنف السيد (صبور) كلامه قائلًا:

- لا أدري حقًا إن كنت بالغت في التعبير أم أن الأمر معضل لدرجة لا يمكننا التعبير جيدًا! على أي حال، اليوم نرى السيد (زهير) يعيش مع جرثومة، لا سيد مع جرثومته لكن سيد مع سيد، أب مع ابنه، انظروا السيد (يعقوب) يعطف على الجرثومة كما لو كان ابنًا له بشهادة العامة يا سادة، إنها مهزلة حقيقية نرى جرثومة ترقى لموضع سيد، ما الذي ننتظره نحن السادة؟! أن نجد أنفسنا يومًا خدمًا لهم مثلما يفعل السيد (زهير)! ولذلك أطالب باسم السادة بصفتي ممثلًا عنهم أن يتم ردع هذه الجريمة، ونوصي بجعل الجرثومة ٩٩٠ عبرة لكل

من تسول له نفسه من هذه الحفنة أن يقدم على مثل فعله حتى لا نجد أنفسنا يومًا نخدم الجراثيم.

عاد السيد (صبور) إلى مكانه، وصياح العامة جعله فخورًا بخطبته، فابتسم لسماعه الهتافات:

- الموت للجرثومة ٩٩٠، الموت للجرثومة ٩٩٠.

- الموت للجراثيم الملعونين، الموت للجراثيم، فليحيا السادة.

ثم نظر السيد (وافي) إلى (آدم) قائلًا:

- إنه دورك يا سيد (آدم) أم أنك لا تعلم وظيفتك هنا؟!

نظر (آدم) إليه في تحدٍّ كأنما استفزه بكلماته تلك، فقال ناهضًا:

- بلى أدري.

ثم اتجه صوب الجندي الذي أعلن أن السيد (آدم) سيتحدث بصفته مسؤولًا عن الجراثيم وعضوًا في جمعية (حماية السادة من الجراثيم) تاركًا (آدم) ليتحدث.. سكن (آدم) برهة ثم قال:

- لا أدري حقًّا ما ينبغي أن أقول! فلم أتوقع يومًا أن يقف السيد (زهير) هذا الموقف، ولا أظن أن أحدًا قد توقع هذا أو حتى جال في مخيلته، جميع من في مثل سني يعرفون السبب جيدًا، فقد كنا نعيش طفولتنا وفي مخيلتنا يتجسد حلم واحد، عندما نكبر نصبح أبطالًا مثل السيد (زهير).. أما آباؤنا وأجدادنا يعرفون حقًّا قدر السيد (زهير) في الجزيرة جمعاء، فلقد تصدى لهؤلاء الذين أتوا إلى جزيرتنا يومًا مكشرين عن أنيابهم ليفترسونا، وأرادوا أن ينالوا منا ليضموا جزيرتنا إلى ممتلكاتهم، وجميعنا يعلم أنه لولا قدراته العبقرية في التخطيط والتنفيذ يومها رغم حداثة سنه لهلكنا جميعًا بعدما فشل جنودنا في الدفاع، رغم قلة أعداد الغائرين علينا إلا أنهم كانوا يمتلكون سلاحًا جديدًا لم نعهده، أنا لا أريد أن أقص عليكم شيئًا نعرفه جميعًا لكن أرى أن اتهام السيد (زهير) يسيء لنا قبل أن يسيء إليه، فهل يعتقد أحدكم أن السيد (زهير) ضعيف للحد الذي يجعلنا نقول (أن جرثومة سرق قلبه!).. أرغب في إجابة يا سادة! هل السيد (زهير) ضعيف لهذا الحد؟!

توقف (آدم) عن الحديث للضجة التي نتجت عن كلامه، ما بين همس السادة وصياح العامة الذي يغلب عليه تأييد (آدم) وبدا السيد (صبور) أكثر غضبًا إثر سماع كلمات (آدم) فنهض ليصيح في غضب:

- لكننا لا نقاضي السيد (زهير) بصفته أحد قادة الجيش، فقد تركه منذ مدة، وإنما نقاضيه بصفته أحد العامة اليوم ويسكن معهم.

هدأ الوضع إثر إيصال كلماته تلك للعامة، فابتسم (آدم) قائلًا:

- سيدي، لا يمكن محو تاريخ السيد (زهير) هكذا لأنك بهذا تمحو تاريخنا معه، لكن أتساءل؛ هل للعامة الحق في ملكية الجراثيم؟! كلا، ليس من حقهم إلا إذا كانوا أثرياء، فهل السيد (زهير) ينتمي إلى الفقراء؟! وإذا كان، فكيف حصل على الجرثومة إذًا؟! كما تعلمون بدأت عملي للتو.

ثم نظر إلى السيد (زهير) قائلًا:

- سيدي.. هل تمتلك ثروة؟!

- أجل.

- ورغم ذلك لديك من التواضع ما جعلك تسكن بين العامة وتشاطرهم حياتهم العادية، سيدي؛ هل قام العامة بسرقة قلبك أيضًا؟!!

عمت الفوضى من جديد – خصوصًا بين العامة - ما بين سخرية، وانجذاب نحو (آدم) وحماسة لرؤية ما سيحدث حتى قام السيد (وافي) قائلًا في غضب:

- يا سيد (آدم).. لا تخلط الأمور، نحن أمام واقعة معينة، لا تخرج عن سياقها.

أجاب (آدم) في هدوء قائلًا:

- أعلم يا سيدي، لكن أردت القول أن بعض المظاهر خادعة، فيقولون أن الجرثومة ٩٩٠ قد سرق قلب السيد (زهير) رغم تاريخه الحافل، والذي يفصح عن مدى قوته وبراعته، وهو في الوقت نفسه يشاطر العامة حياتهم رغم أنه ثري، والاثنان لم نعهدهما من قبل!

- ما الذي تود قوله؟!

- هناك تناقض واضح في الاتهام، لن يتم استبيان الأمر لنا إلا إذا خضنا التجربة مع شخص آخر، ذلك لأن السيد (زهير) له مكانة خاصة في نفوسنا وتاريخنا، والتي أحسب أن تلك المكانة هي دليل براءة السيد (زهير) من الضعف.

تحدث السيد (صبور) قائلًا:

- لكن الجرثومة ٩٩٠ مدان ويجب معاقبته.

فقال السيد (وافي):

- أجل، يوجد الشهود الذين رأوا إحسان السيد (زهير) للجرثومة، ألا يسترعي هذا انتباهك يا سيد (آدم)؟!

ثار الناس من جديد وظل صياحهم بالوعيد والقتل للجرثومة ٩٩٠ حتى هدأ الوضع لقول (آدم):

- أنا أيضًا لا أخفيكم سرًا، أردت حين رأيت تلك الجرثومة أن أهشم رأسها وأسحقها تحت قدمي لكن تراجعت عن تلك الفكرة السخيفة لسببٍ واحد، السيد (صبور) والسيد (وافي) وهما أعلى شأنًا ومكانة اليوم، ويمكننا وضعهما في مكانة مقاربة للسيد (زهير).. هل يمكنني طرح سؤالٍ واحد؟ لماذا لم يقم الجرثومة ٩٩٠ بسرقة قلوبكم لينال عطفكم وإحسانكم مثلما فعل مع السيد (زهير)؟! وكذلك الوضع بالنسبة للسادة الجالسين والعامة من ورائهم؟!

أجاب السيد (صبور) في غضبٍ قائلًا:

- كلا، لا يستطيع أن يفعل، فأنا لست بهذا الضعف.

- وكلنا نعلم أن السيد (زهير) ليس بهذا الضعف.

تحدث السيد (وافي) قائلًا:

- لقد قضى معه فترة من الوقت، مكنته من غايته.

أجاب (آدم):

- سيد (زهير).. منذ متى تمتلك الجرثومة ٩٩٠؟!

- لا أتذكر تحديدًا، وإنما منذ أيام قلائل.

- أيام قلائل تمكنه من أن يفعل هذا! لا بأس، يمكننا أن نرى هذا.

قال السيد (صبور) ساخرًا:

- هل سنبقى هنا لأيامٍ قلائل؟

تجاهله (آدم) ثم نظر إلى (زهير) قائلًا:

- سيد (زهير).. هل تجد مشكلة في إرجاع الجرثومة ٩٩٠ إلينا؟!

أجاب السيد (زهير) كأنما فطن مراد (آدم):

- كلا، لكن بمقابل مادي.

- هذا يعني أنك لا تشعر بأي عاطفة تجعلك ترتبط به ولا تتركه؟

- أجل، إنه جرثومة على أي حال، وقد كان لي دور كبير في جعل الجراثيم يأتون إلى هنا، وإني أتعجب لتلك التهمة، إنها حقًّا إهانة لكنني ما زلت فردًا منكم، ولو دارت الأيام وطلبتموني للبيت النداء، ولو شئت ما أتيت إلى هنا إطلاقًا لكني أحترم القانون وأحترمكم أيضًا.

ارتفعت الأصوات المتعاطفة مع السيد (زهير) ثم الهتافات:

- فليحيا السيد (زهير).. فليحيا منقذنا، فليحيا السيد (زهير).

أوقف هذا السيد (وافي) قائلًا في غضب:

- وماذا ترى بعد هذا كله يا سيد (آدم)؟! هل تريد أن يحتفظ السيد (زهير) بالجرثومة ونغض الطرف عن الأمر؟

- كلا، لكن سنفصل الجرثومة ٩٩٠ عن السيد (زهير) وسأخوض أنا التجربة بصفتي مسؤولًا عن شؤون الجراثيم، سأبقيه مع بقية الجراثيم لنرى ما سيتمكن من فعله، فإن كانت التهمة صحيحة، فسيأتيكم من جديد متهمًا بجريمته، أما إن كان جرثومة عادية، فستجدونه في موضعه الصحيح، أقول هذا استنادًا للقانون الذي يحثنا على عقد المحاكمات لتحقيق العدالة، وقبل هذا أو بعده لأننا أقوياء، أقوياء لدرجة تجعلني ساخرًا اليوم من تلك التهمة.

ثم صاح قائلًا:

- هل نحن أقوياء؟ أجيبوني؟!

فعمت الفوضى بين العامة التي كان يغلب عليها تأييد (آدم) لأنهم أقوياء! فنظر السيد (وافي) إلى السيد (صبور) ثم نهض قائلًا في ثبات:

- حسنًا، فلتكن مسؤوليتك يا سيد (آدم).

- إنها مسؤوليتي في كل الأحوال، أيها الجندي، خذ هذا الجرثومة اللعين إلى حيث ينبغي أن يكون.

ويبدو أن المحاكمة قد انتهت لرحيل السيد (وافي) والسيد (صبور) عن المنصة، وكذلك بدأ السادة والعامة يتبعونهم في فعلتهم، واكتفى السيد (زهير) بنظرة شكر نحو (آدم) الذي ابتسم ثم رحلا.

(11)

يبدو أن الشمس قد فقدت فعاليتها فوق هذه الجزيرة تزامنًا مع دورة تعاقب الفصول، فقد كان الوضع يفصح عن قدوم الشتاء لكنه بدا متعاطفًا اليوم مع تلك الحشود الهائلة من العامة في الساحة - فقد كانت السماء غير مثقلة بالسحاب المنذر بهطول الأمطار - متلهفين أكثر من العادة للاستمتاع بمحاكمة استثنائية للجرائيم لكن لا تستطيع استبيان ما يثرثرون به لكثرتهم، يفصلهم عن السادة الجالسين صفوف يسيرة للجنود، والذين خيم عليهم الصمت، وبدت نظراتهم موجهة صوب (آدم) الذي جلس لتوه في آخر مقعد في الصف الأول من الناحية اليسرى حتى انفلت لسان أحد السادة قائلًا:

- يا للوقاحة!

شاطره صوت آخر:

- أخشى أن يقدم علينا رجل أسود اللون ليجلس بيننا اليوم!

ثم انفلتت الألسن لتحدث ضجة، لا يمكنك تمييز الكلمات من بينها لكن أذني (آدم) قد تسلل إليهما ثرثرة امرأتين خلفه:

- لا أصدق حقًا ما يحدث!

- انتهى هذا الشاب.

- بل انتهى (يعقوب) وعائلته كلها.

أوقف تلك الثرثرة التي لم يعبأ (آدم) بأمرها، صياح الجندي كي يلتزم الجميع الصمت ثم قال بعد صعود رجل المنصة، يرتدي زيًا عسكريًا، يعج بالأوسمة، والذي بدا أنه ذا شأن لوقوف السادة جميعًا حينما ظهر، فقام بوضع عصاه الخشبية التي يمسكها في يده على المنضدة، وجلس في صدر الطاولة، فجلس السادة مرة أخرى، إنه السيد (ديودتشي) رئيس الجيش ورئيس رابطة حماية السادة من الجراثيم، يشرفنا اليوم بحضوره.

حين أعلن الجندي هذا، صعد السيد صبور (ممثلًا عن السادة وبقية الشعب) وجلس إلى اليمين من السيد (ديودتشي) ومعه السيد (واقي) ثم جلس إلى اليسار منه، وبدا الوضع هادئًا محدقين صوب السيد (ديودتشي) الذي حدق نحو (آدم) لكنه لم يكن يراه، فبدا يريد الذاكرة - متناغمًا كعادته مع شيء تراه، فيرجعنا لحظات للوراء - مرسلًا هذا المشهد القصير الذي يشاهده السيد (ديودتشي) وحده، والذي يبدو فيه جالسًا في صدر مكتبه، والسيد (يعقوب) يصيح غاضبًا:

- ماذا تريد يا (ديودتشي)؟!

- لا أريد شيئًا، أنت الذي أتيت إلي.

- إنها مجرد وشاية، ثرثرة عامة لا أكثر، لا يمكنك الأخذ بها.

- (آدم) والجرثومة 123 أصبحا حديث الجزيرة كلها اليوم، إنه شيء يصيبني بالاشمئزاز حقًا.

- هذه أكذوبة أرادوا بها النيل مني، لا أكثر.

- أكذوبة لم نرها، ولم نسمع عنها إطلاقًا، وحتى لا تصبو لخيال أحد لينال منك بهذه الطريقة.

- هذا يعني أنك تصر على إقامة المحاكمة غدًا.

- احذر يا سيد (يعقوب).. لست أنا من يصر بل العدالة، هناك شكاوى عديدة ودلائل.

- أحذرك يا (ديودتشي).. إن لم تقم بإنهاء هذه المهزلة، فسوف...

- ماذا ستفعل؟! لدي حل واحد كي تضمن سلامة ابنك غدًا، فبإمكاني أن أجعل الجرثومة ١٢٣ تبرئ (آدم) من كل ما يقال عنه إذا وافقت ألا يحضر لكنك تعلم أن كل شيء بمقابل.

- ماذا تريد؟!

- اعتزل يا (يعقوب).

- ماذا؟! أنت تهذي، ويبدو أنك نسيت من أنا!

- تجرد من منصبك كي لا أقضي عليك.

ضحك (يعقوب) قائلًا:

- أنت لا تدري مع من تلعب يا (ديودتشي).

ثم انصرف..

لاحت ابتسامة على وجه السيد (ديودتشي) لرؤيته هذا ثم أشار بيده إلى الجندي الذي كان يحدق نحوه، فاعتدل قائلًا في نبرةٍ متقطعة حتى يتمكن الرجل من إيصال كلماته تلك إلى الحشود من خلف السادة:

- اليوم تعقد محاكمة استثنائية لحماية حقوق السادة من هؤلاء الجرائيم الملعونين، إنها

المحاكمة السابعة عشرة من المحاكمات الاستثنائية، في حضور اللورد (ديودتشي) رئيس الجيش ورئيس رابطة (حماية حقوق السادة من الجراثيم) والسيد (صبور) بصفته ممثلًا عن السادة وبقية جموع الشعب، واللورد (وافي) بصفة استثنائية مسؤولًا عن الجراثيم، تحت رعاية وإشراف الملك (ألكسندر).. تبدأ وقائع المحاكمة.

ثم التقط ورقة من أمامه ليقرأ قائلًا:

- الدعوى الوحيدة اليوم، مقدمة من بعض السادة وبعض العامة، ويمثلهم السيد (صبور) في تقديم الدعوى ضد الجرثومة ١٢٣.

ثم التفت إلى الخلف مشيرًا، فصعد إلى المنصة جنديان - الجنديان نفسهما مفتولا العضلات اللذان ظهرا في المحاكمة السابقة - أحدهما يمسك بطرف سلاسل حديدية ليجر خلفه فتاة سوداء البشرة، متوسطة القامة، ويبدو أنها متوسطة العمر أيضًا، ذات ملامح حسنة، توحي بالبراءة، ترتدي فستانًا طويلًا أسود اللون، ومعطفًا باللون نفسه، يميزها عن بقية الجراثيم، حالته الجيدة، وكذلك صحتها الجيدة، وحين رآها بعض العامة في الصفوف الأمامية، ثاروا ليرددوا:

- الموت للجرثومة ١٢٣، الموت للجرثومة ١٢٣.. الموت لـ (آدم).. الموت للجزثومة ١٢٣، الموت للجراثيم الملعونين.

أما السادة الجالسون، فبدت نظراتهم موجهة صوب (آدم) الذي بدا أنه غير مكترث لهذا، فحدق إلى الجرثومة ١٢٣ غير أنه لم يكن يراها في موضعها هذا بل بدا أنه يراها عبر مخزون الذاكرة في مواضع متلاحقة، فتارة يراها تحدث ضجة في غرفته بينما كان نائمًا، فيستيقظ في غضبٍ قائلًا:

- ماذا تفعلين هنا؟!

- جرثومة، وأقوم بعملي.

- ألا تميزين الوقت والطريقة التي تقومين من خلالها بهذا؟!

- كلا، فأنا جرثومة.

- تبًا! يمكنكِ أن تقومي بعملكِ هذا في وقتٍ لاحق.

- منذ أتيت إلى هنا، وأنت يا سيدي، لا تغادر الغرفة، فمتى هذا الوقت اللاحق؟!

اعتدل (آدم) ليستطيع رؤيتها جيدًا، انتهى هذا المشهد، وبدا أنه لرغبة (آدم) في رؤية آخر

بعدما قال سرًا: «تلك كانت البداية».

بدا في المشهد التالي جالسًا في غرفته منهمكًا في الكتابة، وقد حملت الجرثومة ١٢٣ لوحًا مستطيلًا من الخشب، يعلوه أوعية، يملؤها الطعام، فوضعته على المنضدة التي يكتب عليها، ففزع لهذا وغضب لوضعها إياه على أوراقه المتناثرة على المنضدة ووقوع الحبر على الورقة التي يكتب فيها، وصاح في غضب:

- ما هذا؟! ألا تبصرين؟! تبًا!

ارتجفت الجرثومة ١٢٣ قائلة في ضعف:

- سأنظف هذا الآن.

كادت أن تمس الأوراق، فصاح (آدم) غاضبًا:

- لا تقتربي.

أجابت الجرثومة قائلة:

- أخفض صوتك، إن...

كادت أن تكمل، فقال (آدم) غاضبًا:

- تبًا! يا للوقاحة! تقتحمين غرفتي دون استئذان وتفسدي أوراقي بغبائك!

صمت (آدم) حين دخلت (ميساء) خادمة السيدة (ليما) قائلة:

- سيدي، هل...

لكنها توقفت حين وقعت عيناها على آثار ما فعلته الجرثومة ١٢٣، فأمسكت بشعرها قائلة:

- أعتذر يا سيدي، تلك اللعينة تسبب المتاعب دائمًا.

ثم جذبت خصلات شعرها، وأسرعت في الخروج من الغرفة دون أن يتحدث (آدم) رغم أن تعابير وجهه بدت متعاطفة مع الجرثومة ١٢٣، أما تعابير وجهها ومحاولتها إفلات شعرها من يد (ميساء) تدل على مدى وقاحة المخطئ لأنه لا يعترف بخطئه لكن (آدم) لم ير هذا لقوله بعدما غادرا:

- هذه الجرثومة مختلفة عن البقية، ربما كانت أمي كذلك.

في المشهد التالي

بدا (آدم) على وضعه السابق جالسًا في غرفته، يمسك بيده ريشة وأمامه بعض الأوراق المتناثرة على المنضدة إلا أنه بدا شاردًا، استفاق من جولة الشرود تلك حين سمع صوت قرع الباب المستمر، فقال:

- يمكنك الدخول.

دخلت الجرثومة ١٢٣، تحمل اللوح الخشبي المستطيل نفسه، وفوقه أوعية ممتلئة بالطعام ثم وقفت أمامه، وقد بدا آثار ضرب على وجهها كأنما كانت تخوض جولة ملاكمة حرة، وحين رآها (آدم) تذكر (ميساء) التي جذبت خصلات شعرها، وفطن أن ما ألم بوجهها نتيجة لهذا الموقف ثم حدق إليها، فسألته قائلة:

- لماذا تنظر إلي هكذا؟!

- لأنك تقفين أمامي.

- كلا.

- ماذا؟!

- لا تحدق إلي لأنني أقف أمامك، وإنما لترى ما أمرت به، هل نفذوه بالقدر الذي يرضيك أم لا؟!

- لكنني لم أصدر أمرًا بشأنك.

ضحكت قائلة:

- غريب!

رمقها (آدم) قائلًا:

- ما الغريب؟ ولماذا تضحكين؟!

- لأنك لست مجبرًا على الكذب.

لم يغضب (آدم) بل ابتسم قائلًا:

- أجل، ليس هناك ما يجبرني على الكذب، فلماذا أفعل؟!

- لذلك قلت غريب، ألم تسمعني؟!

- ولذلك أخبرك أنني لم أصدر أمرًا بشأنك.

ثم أشار إلى وجهها ليردف قائلًا:

- لقد دخلت (ميساء) دون أن أناديها.

- تلك هي الكذبة، لقد جاءت حين ارتفع صوتك.

- ربما.. لكنني لم أصدر أمرًا بفعل هذا.

- ولم تمنعها عن هذا بل أمرتها بصمتك أن تفعل.

شحب وجه (آدم) لكنه لم ينطق كأنما اقتنع بكلامها، فأردفت الجرثومة ١٢٣ قائلة:

- أرسلوني بالطعام.

- حسنًا، ضعيه.

وضعته على أوراقه المبعثرة فوق المنضدة، فوقع الحبر على الورق، وباتت الدهشة أكثر وضوحًا على وجه (آدم) لينهض ضاحكًا ثم قال:

- أهكذا تقتصين لحقك؟!

- كلا، لو أردت ذلك، لفعلت بك ما فعلوه بي، أو طعنتك بخنجر، سيدي.. أنت من أمرني بوضع الطعام، وقد فعلت، فما خطأ الجرثومة إن كانت تفعل ما أمرت به؟!

ضحك (آدم) فغضبت الجرثومة لتضع نصل خنجرها - الذي أخرجته من ثيابها - على رقبته قائلة:

- أتسخر مني وتعتقد أنني جرثومة لا تستطيع لكم أو طعن سيد؟! حسنًا، يحق لك هذا لكن أردت فقط أن أخبرك أنني أستطيع أن أفعل، إنك تمتلك عينين ترى بهما وأنا أيضًا، تمتلك أذنين تسمعان وأنف يشم ولسان يتحدث، وأنا أيضًا، لديك مشاعر وأنا أيضًا، تضحك وتبكي وتحزن وتفرح وتبغض وتحب وأنا أيضًا، تقف على قدمين وأنا أيضًا، الفرق أن لونك أبيض ولوني أسود، يا له من فرقٍ شاسع! ترونه فرقًا يجعل لكم الحق في امتلاكنا، رغم ألا ذنب لنا في هذا كما أنكم لا تختارون لونكم الأبيض، لو أن أحد والديك كان جرثومة، وولدت أسود اللون لأصبحت جرثومة مثلي ومثل البقية.

بدا (آدم) مستسلمًا لهذا، لم يقاومها حتى تركته من تلقاء نفسها، وكادت أن تغادر، فأوقفها (آدم) قائلًا:

- انتظري.

توقفت، فقال:

- ألا تخافين أن أخبر أحدًا بما حدث؟!

- كلا.

- لمَ؟!

- لأنك تعلم أنني لم أكن أنوي قتلك وإلا كنت قاومت أو حتى اعتديت علي الآن، مثلما أعلم أنك لست مثل بقية السادة.

- وكيف علمتِ هذا؟!

- لأنك اليوم من خلال حديثنا القصير، أثبت هذا، اعتدت أن يأمرني السادة لكنك ليس مثلهم، أظن أنك منعزل عنهم.

غادرت الجرثومة ١٢٣ دون أن يجيب (آدم) لينتهي هذا المشهد.

بدا عرض المشاهد التالية من قبل الذاكرة مقتصرة على الصور فقط، وبدا ذلك مؤيدًا لرغبة (آدم).. هناك صورة يظهر فيها (آدم) يشير لها لتجلس كي يكملا حديثهما، وأخريات مطابقات للصورة نفسها لكن الحديث مختلفًا كاليوم، وصورة يتشاطران الطعام والشراب، وأخرى تميزها ضحكهما المستمر، وأخرى تبكي محاولًا مواساتها فيضمها إليه، وأخرى يجلسان على الأرض ليستمع إليها، وأخرى يحدث فيها العكس، يتحدث لتستمع إليه في حماسة، وأخرى يبدو أن (آدم) يعلمها فيها الكتابة، وأخرى يهديها فستانًا، وأخرى يلبسها قرطًا أهداها إياه، وأخرى تعطيه زهرة كانت تخبئها في ثيابها، وتتكرر هذه الصور المتلاحقة في مواضع مختلفة ليزداد القرب بينهما، ويمشيا على خطى المعادلة؛ معرفة، فتعود يميزه الانجذاب، فتعلق مفعم بالإعجاب وبعض المشاعر التي تحول العلاقة الاعتيادية إلى خاصة لينمو الحب في داخلنا ويغيرنا، يبدو أن بريد ذاكرة (آدم) لم يعد لديه المزيد من صور تجمعه بالجرثومة ١٢٣ إلا أنه أراد المزيد منه، فاستدعى مشهدًا آخر حيث جلس في غرفته، وعلى المقعد المقابل له، جلس أخوه (أركان) والذي بدا أنه في بداية اللقاء لقول (أركان):

- كأنك تنتظر أحدهم.

- كلا، لمَ تقول هذا؟!

- تبدو متفاجئًا لرؤيتي.

- ألا يحق لي؟ إني أراك نادرًا!

- لم أعد أجد وقتا لرؤية الأهل، لدي مسؤوليات كبيرة، أصبحت (لورد) كما تعلم.

بدت تعبيرات وجه (آدم) متوائمة مع نبرات أخيه الساخرة منه والمتباهية بنفسه، وكاد أن يجيب لكن (أركان) أردف قائلًا:

- لقد نسيت، أعرف أنك لا تعلم، فأنت معتزل الحياة كلها.

- حسنا، ماذا حدث ليزورني (اللورد) في معزلي أم أنك اعتزلت مسؤولياتك تلك؟!

- كلا، لكني هنا بسبب مسؤولياتي تلك.

ابتسم (آدم) ساخرا ثم قال:

- لا تخبرني أنك أتيت لاستشارتي في أمرٍ ما.

أخرج (أركان) من جيبه قرطًا وألقاه على المنضدة أمام (آدم) الذي شحب وجهه حين رآه واسترجع من بريد الذاكرة صورته، لقد أعطى الجرثومة ١٢٣ قرطًا مماثلًا.. ظل (آدم) محدقًا إليه حتى قال (أركان):

- وجدنا هذا القرط في صندوق الجرثومة، وبالطبع اتهمت بالسرقة غير أن تلك اللعينة كانت تثرثر بقصة أخشى أن تكون حقيقية.

ثم أخرج منديلًا من جيبه وألقاه فوق القرط قائلًا:

- انظر ماذا كتب عليه.. (آدم يحب ١٢٣).. إنها تقر أنه أنت وأنك من...

تحدث (آدم) حين أمسك بالمنديل قبل أن يكمل (أركان):

- من أعطيتها تلك الأشياء، أجل، هذا صحيح، ولا شأن لك بهذا.

- تبًا! هذا ما كنت أخشاه!

- أحذرك من إيذائها يا (أركان).

- أنت تهذي يا (آدم).. اسمعني جيدًا، أنا حقًا لا أحرص عليك، يبدو أنك جننت، إنك بفعلتك تلك تقدم على محونا جميعًا من هذه الحياة، ماذا لو كانت تحولت إلى هيئة محكمة الدفاع عن حقوق السادة؟ أجبني.

وقف (آدم) ليصيح قائلًا:

- ماذا فعلت بها؟!

أجاب (أركان) غاضبًا:

- حقًا أنت مجنون! أحذرك من المساس بمنصبي، ولا بد أن يعاقبك السيد (يعقوب).

ثم غادر (أركان) مسرعًا.

انتهى المشهد وبدا (آدم) غير راغب في استقبال المزيد من الذكريات عائدًا من جديد إلى ضجيج الواقع من حوله، والذي بدا أنه لم يتحرك كثيرًا، فما يحدث في ساعات أو أيام أو شهور أو سنوات، وما يصحبه من آثار نفسية متباينة، تركن في أنفسنا سلبًا أو إيجابًا أو ما نظنه ذلك، يعلق في سجلات الذاكرة لتعرض علينا لاحقًا في هيئة صورة أو مشهد قصير أو فكرة أو أثر نفسي أو خبرة، في لحظات يسيرة لا تقارن بمدة حدوثها، ولم يفت (آدم) شيئًا من وقائع تلك المحاكمة لأنه عندما استعرض (آدم) بريد ذاكرته، كانت الجرثومة ١٢٣ قد اتجهت لتقف مكانها في الجهة اليسرى من المنصة، وما زال السيد (ديودتشي) يتحدث هامسًا مع السيد (صبور) والسيد (وافي) وبدا همس السادة حول (آدم) مستمرًا وضجيج العامة مستمرًا كذلك ثم قال الجندي في نبرة متقطعة كي يستطيع الرجل إيصال كلماته إلى تلك الحشود بعدما التزم الجميع الصمت المفعم بالفضول:

- اليوم حقًا تضيع مني الكلمات، وأكاد أضيع وسط زحام المشاعر، ولست أدري حقًا كيف أعبر عن أي شعورٍ منهم.

فضحك (آدم) جعل أعين السادة تتجه صوبه، فنظر السيد (صبور) إلى السيد (ديودتشي) فأشار له بالتوقف لوقوف (آدم) واتجاهه صوب المنصة ضاحكًا وسط علامات تعجب واستفهام وفضول، خالفها وجه السيد (ديودتشي) الذي ابتسم لذلك كأنما تفاءل بفعلته تلك، أما الجرثومة ١٢٣ فحدقت إلى (آدم) لكنها لم تكن تراه، فبدا حافزًا لها كي تستعيد بضعة مشاهد من بريد الذاكرة..

أولها: بدت الجرثومة ١٢٣ برفقة (ميساء) في غرفة السيدة (ليما) والتي كانت تجلس على مقعد أمامه مرآة كبيرة، تأخذ شكل مستطيل مثبتة على الحائط، تنظر إليها متباهية بجمالها ثم نظرت إلى (ميساء) متسائلة:

- هل تدربت جيدًا؟!

- أجل يا سيدتي، كما أمرتني.

ثم ألقت (ليما) نظرة على الجرثومة ١٢٣ قائلة:

- أشعر أنها ستتمكن من (آدم).

- أجل يا سيدتي.

عاودت (ليما) النظر إلى المرآة ثم قالت:

- إن تمكنت من إيهام (آدم) بحبك، فستكونين أول جرثومة منعمة في هذه الجزيرة.

ثم أشارت بيدها لينصرفا، فانحنت الجرثومة ١٢٣.

انتهى المشهد لرغبة الجرثومة ١٢٣، وحدثت نفسها قائلة:

- تلك كانت البداية.

ثانيها: تقف الجرثومة ١٢٣ برفقة (ميساء) أمام غرفة (آدم) لتهمس (ميساء) قائلة:

- هيا، إياك أن تخطئي، لا بد أن يستشيط غضبًا.

- حسنًا، سأفعل يا سيدتي.

ثالثها: حين جذبت (ميساء) خصلات شعر الجرثومة ١٢٣ لتخرجها من غرفة (آدم) ثم أفلتتها بعدما اطمأنت أن (آدم) لم يخرج خلفها قائلة:

- أحسنتِ، الآن أرغب أن تفعلي شيئًا في وجهكِ لينال شفقة (آدم).. أتفهمين؟!

- كيف يمكنني إلحاق الأذى بوجهي؟!

- لا شأن لي، إن لم تفعلي هذا، فسأتولى أنا الأمر، وحينها ستندمين.

- سأفعل يا سيدتي.

رابعها: حين خرجت الجرثومة ١٢٣ مسرعة من غرفة (آدم) لتقف ناظرة إلى الخنجر ثم تقول:

- أخطأت قليلًا في بعض الكلمات التي أملتها علي (ميساء).. تبًا! كان يجب أن أقول (أنت تضحك وتبكي وتفرح وتحزن) بعد كلمة (الفرق) تلك، لكن خشيت أن أنساها، ظللت أحفظها طوال الليل، لا بأس.

ثم ضحكت.

خامسها: حين جلست الجرثومة ١٢٣ في غرفة صغيرة ممسكة بقرط، وقد بدا أنه القرط نفسه الذي أهداه إليها (آدم) لكنها لم تكن تدري أن (ميساء) تنظر إليه أيضًا حتى قالت:

- أيتها الخبيثة، يبدو أننا على مقربة من هدفنا.

ضحك (آدم) قائلًا:

- حسنًا، أردت فقط مساعدتك، يمكنك أن تشير الآن وتقول، انظروا يا سادة، لقد جاء اليوم الذي نرى فيه سيدًا يقف بجوار جرثومة ليحاكمها بتهمة الحب!

كاد (صبور) أن يجيب، فأردف (آدم) قائلًا:

- انتظر يا سيد (صبور) حتى يتمكن الرجل من إيصال كلماتي إلى تلك الحشود.

نظر السيد (صبور) إلى السيد (ديودتشي) الذي قال:

- السيد (آدم) يبدو متعاونًا، حسنًا، لنوفر الوقت، سيد (صبور) بإمكانك استجواب المتهمين أمام الجميع كي تتضح الصورة وتزول الشكوك.

- أيتها الجرثومة ١٢٣، تقدمي إلى وسط المنصة.

تقدمت الجرثومة ١٢٣ لتقف بمفردها وسط المنصة، فبادر السيد (صبور) قائلًا:

- أيتها الجرثومة ١٢٣، هل تعرفين ذاك السيد الذي وقف بجوارك؟!

مشيرًا صوب (آدم).

نظرت الجرثومة ١٢٣ إلى (آدم) ثم قالت:

- أجل يا سيدي.

- ارفعي صوتك.

- أجل يا سيدي، أعرفه، إنه (آدم).

تحدث أحد السادة الجالسين قائلًا:

- يبدو أن الوضع متطور للغاية.. إنها تقول (آدم).

كاد الوضع أن ينفلت، فبادر السيد (ديودتشي) قائلًا:

- أرجو من السادة الثبات قليلًا.

ثم أشار إلى السيد (صبور) فأردف قائلًا:

- منذ متى تعرفينه؟!

- منذ قدمت إلى تلك الجزيرة.

- هل هناك علاقة تربطكما؟!

- ماذا؟!

- أعني هل كان السيد (آدم) يعاملك بطريقة مختلفة؟!

- أجل يا سيدي.

- كيف؟! اشرحي لنا.

- لأنه مختلف عن باقي من في القصر الذي عملت فيه، كان متواضعًا، يرى الجراثيم في مكانة متكافئة مع السادة.

- تحدثي عن معاملته لك فقط.

- كنا نتحدث كثيرًا، اعتدنا ذلك، كنا نقضي أوقاتًا طويلة حتى أصبحت أراه دائمًا وهو كذلك، فأصبح هناك، أصبح هناك...

ثم صمتت برهة لتقول:

- أجل، أصبح هناك مشاعر بيننا.

- هل تحبين السيد (آدم)؟!

- أجل، أحبه.

- هل هو أيضًا يحبك؟!

- أجل يا سيدي.

- كيف علمتِ هذا؟!

- هو من أقر بهذا.

وحين انتقل هذا إلى العامة، ثاروا ليرددوا:

- الموت للجرثومة الملعونة، الموت لـ (آدم).. الموت للجرثومة الملعونة، الموت لـ (آدم).

بدا الوضع خارجًا عن السيطرة لرغبة السيد (ديودتشي) الذي أشار للسيد (صبور) كي لا يتكلم، وبدا وجه (آدم) غاضبًا، ليس لقولهم هذا، فلم يسمعهم بل حدق إلى الجرثومة ١٢٣ مستقبلًا مشهدًا من بريد الذاكرة.. بدا فيه (آدم) عائدًا للبيت المجاور للقصر الملكي لكنه حين دخله، توقف في دهشة لرؤيته السيدة (ليما) تدخل إلى غرفة الطعام ثم حدث نفسه قائلًا:

«ماذا تفعل (ليما) هنا؟!»

تبع (آدم) فضوله فتبعها، ويبدو أنها لم تتأكد من غلق الباب جيدًا، فألقى (آدم) نظرة ليجد السيدة (ليما) تجلس على أحد مقاعد الجهة اليمنى من طاولة الطعام، وفي صدرها يجلس رجل لم يتعرف إليه (آدم) لأنه يرى ظهره ولم يتبين هويته حتى قالت السيدة (ليما):

- ماذا تريد يا (داغر)؟!

- أهكذا نبدأ حديثنا بعد هذا الغياب؟!

لم يتلقَ (داغر) جوابًا، فأردف قائلًا:

- كدت أن أقتل ابن (يعقوب) لكنني تراجعت حين تذكرت أنك أمه.

- تتحدث عن (آدم)؟!

- أجل.

- كلا، إنه ليس ابني، إنه ابن (يعقوب) من امرأة أخرى.

ضحك (داغر) ثم تساءل قائلًا:

- أهذا الذي تركتيني من أجله؟!

- تبًا لك يا (داغر)! لقد حدث هذا منذ زمنٍ بعيد!

- لا أراكِ سعيدة.

- أتريد أن تخبرني أنك لا تعلم أمر زواجه؟!

- كلا، أعلم أنه تزوج أخت اللورد (زهير).. أقصد (زهير) لأنه تنحى عن منصبه، لكن حقًا لم أكن أعلم أنه قد أنجب منها.

- لا تذكرني بذلك.

- حسنًا.

- (داغر).. إياك أن تمس (آدم).

- تبًا! هل يعنيكِ أمره؟

- كلا، لكن أريد أن أنهي (يعقوب) بابنه هذا.

- تنهي حبيبك (يعقوب)!

- لا تقل هذا، أنت تعرف جيدًا أني لا أحبه.

- كلا، لقد تزوجتِ (يعقوب) لتحققي أحلامكِ بعدما فشلتِ في إيقاع ولي العهد - أقصد ملك اليوم -في حبك، أنتِ لم تحبيني يومًا ولا (يعقوب) لكنكِ أحببتِ الملك، وتريدين الاقتصاص منه فقط.

- اصمت يا (داغر).. لا تكمل.

- لو كان حقًّا (يعقوب) من بادر إلى الزواج بك لقتلته منذ زمنٍ بعيد.

- ماذا تريد يا (داغر)؟!

- أخبريني أولًا، كيف ستنهي (يعقوب)؟!

- قمت بإيهام ابنه (آدم) أن أمه جرثومة، ومن ثم أصبح متعاطفًا مع جميع الجراثيم، ناقمًا علينا جميعًا، وانتظرت الوقت المناسب لأضع في طريقه جرثومة تلفت انتباهه ليحبها، وها أنا قد نجحت، وأنتظر الوقت المناسب لأنهيه، وبهذا ينتهي (يعقوب).

- تبًا! إنه تفكير شيطاني، ربما ما زلت أحبك لأنكِ الوحيدة التي تتناغم مع تفكيري.

- لذلك أنت الوحيد الذي أسعى إليه.

أوقف (آدم) المشهد عند هذه الجملة، وبدا متناغمًا مع نداء السيد (صبور) ليقف موضع الجرثومة ١٢٣ بعدما عادت مكانها، زفر (آدم) واتجه ليقف مكانها، فقال السيد (صبور):

- سيد (آدم).. هل تعرف هذه الجرثومة؟

مشيرًا إلى الجرثومة ١٢٣.

نظر (آدم) إليها ثم تساءل ساخرًا:

- ما المعرفة التي تقصدها يا سيد (صبور)؟!

صمت (صبور) برهة ثم قال:

- هل كانت تعمل كما قالت في منزل السيد (يعقوب)؟!

- لا أدري، يمكنك أن ترجع إلى سجلات الجراثيم أو مسؤول الخدم في بيت السيد (يعقوب).

نظر السيد (صبور) إلى السيد (ديودتشي) الذي شحب وجهه ليراه محدقًا إلى (آدم) فقال:

- سيد (آدم).. هذه الجرثومة تدعي أن هناك علاقة خاصة بينكما!

ضحك (آدم) قائلًا:

- سيد (صبور).. لقد تعمدت أن أقاطعك في بداية المحاكمة، وأقف بجوارها كي تروا جميعًا الفرق بيننا، أنا لست جرثومة، أنا السيد (آدم) ابن السيد (يعقوب).. تأتيكم جرثومة تدعي أن سيدًا وقع في حبها، فتصدقونها وتعقدون محاكمة دون وجود أي أدلة على هذا الهراء، الذي انتشر في أرجاء الجزيرة خلال نهارٍ واحد!

توقف (آدم) لوقوف السادة الجالسين ثم نظر خلفه ليجد السيد (يعقوب) والده واقفًا موضع السيد (صبور) ثم قال في نبرةٍ جادة:

- أهذا يكفيكم يا سادة أم أنكم أردتم أن يجاري ابن السيد (يعقوب) هذه المكيدة ويجاري فضولكم أكثر.

ثم نظر إلى السيد (ديودتشي) ليردف قائلًا:

- سيد (ديودتشي).. كونك المسؤول في هذه الساحة، هل تمتلك دليلًا على هذا؟!

شحب وجه (ديودتشي) وقال سرًا: «تبًا يا (ليما)! لقد أخبرتني أنه سيعترف ويغيث فسادًا في هذه الساحة ولا حاجة لوجود دليل، تبًا لك ولابنك ولـ (يعقوب) ولـ (آدم)!»

ثم عاود السيد (يعقوب) قائلًا:

- سيد (ديودتشي).

وقف (ديودتشي) ثم قال:

- لقد كنت واثقًا أنها مكيدة دُبرت للنيل منك يا سيدي، لكن تلك المكيدة امتدت إلى أرجاء الجزيرة، وأي ردٍّ منا أو تجاهل، قد يفسد الأمر أكثر، وبناءً على وجود دعاوى رسمية لعقد المحاكمة، ما كان منا إلا لنفعل هذا.

سكن (يعقوب) لسماعه هذا، فعاود (ديودتشي) قائلًا:

- سيد (يعقوب).. أتفهم الوضع؟

- أجل، لكن في انتظار أن يبلغ ما قلته العامة.

وبالطبع ثار العامة، وعمت الفوضى لكثرة الثرثرة الجانبية ثم رددوا:

- فليحيا السيد (يعقوب).. فليحيا السيد (يعقوب).. فليحيا السيد (آدم).. فليحيا السيد

(آدم).. الموت للجراثيم الملعونين، الموت للجرثومة ١٢٣.

أما السادة، فتباينت تعابير وجوههم، ما بين مرحب بتلك البراءة ورافض لها ومستمتع بالأمر حتى قال أحدهم وبدا من صنف المستمتعين:

- نريد إجراء تحقيق لمعرفة هؤلاء المتآمرين، ولتكن محاكمتهم علنية.

أشار السيد (يعقوب) بورقة أخرجها من جيبه ثم قال:

- سيد (صبور).. أرجوك، اقرأ علينا هذا الأمر الملكي.

تناول (صبور) الورقة وفتحها ليقرأ بعدما هدأ الوضع لعلمهم بقراءة الأمر الملكي:

- من الملك (ألكسندر) إلى السيد (ديودتشي) رئيس المحاكمة، والتي أراها مهزلة أو من الأفضل لكم جميعًا أنني سأعدها مزحة طريفة في عهدنا، لكنها مزحة غير مقبولة شكلًا وموضوعًا، فإن التشكيك في ساعدي الأيمن (السيد يعقوب) ومحاولة النيل منه عن طريق ابنه السيد (آدم) أمر جعلني مستاءً للغاية، لا بد من إنهاء تلك المهزلة فور وصول أمري هذا، وإنني أكلف السيد (يعقوب) بالتحقيق في الأمر ومعرفة أطراف المكيدة، وله حق مطلق في معاقبتهم كيفما شاء بأمرٍ مني أنا الملك (ألكسندر).

نظر (يعقوب) إلى (صبور) قائلًا:

- سلم الأمر الملكي ليطلع عليه السيد (ديودتشي) ثم أعده لي على الفور.

اتجه (صبور) إلى السيد (ديودتشي) ليتناوله، فنظر إليه ليطمئن من وجود الختم الملكي ثم نهض قائلًا:

- بأمر من الملك (ألكسندر) نعلن أن تلك الادعاءات في حق السيد (آدم) ما هي إلا مكيدة.

ثم توقف حين صاح (يعقوب) قائلًا:

- (آدم).. احترس.

فاستفاق (آدم) من شروده، والذي كان واقفًا على يسار السيد (وافي) بجوار الجرثومة ١٢٣ التي أخرجت الخنجر من ثيابها لتجر قيودها مسرعة صوب (آدم) فالتفت (آدم) مسرعًا حين سمع صوت قيود الجرثومة، وأمسك بيدها بينما كان نصل الخنجر على صدره ثم عاد للوراء لإصرارها على النيل منه حتى اتكأ على طاولة السادة رؤساء المحاكمة، وبدا (آدم) مصرًا على المقاومة، ولولا انتباهه في الوقت المناسب لأصبح في عداد الأموات، أسرع الحارسان وأزاحا الجرثومة ١٢٣ عن (آدم) ثم أسرع (يعقوب) ليطمئن على (آدم) اللاهث ثم

قال واضعًا يده على صدره:

- هل أصابتك؟ أنت بخير؟

- أجل، أنا بخير.

وحين اطمأن (يعقوب) على (آدم) أمر الحارسين قائلًا:

- لا بد من نقلها إلى العربة التي يمتلك زمامها الجرثومة العجوز، لا يقم أحد بمساسها حتى أقوم بإجراء تحقيق معها، هيا.

امتثلا الحارسان للأمر واصطحبا الجرثومة إلى حيث أمرهم ثم التفت (يعقوب) إلى السيد (ديودتشي) ومد يده كي يعطيه ورقة الأمر الملكي قائلًا:

- ما رأيك يا (ديودتشي)؟

- هنيئًا لك يا (يعقوب).

- لا بد أن تراجع موقفك يا (ديودتشي).. أنصحك أن تتنحى بدلًا من أن أنهيك بيدي.

- هل تظن أني أترك أثرًا خلفي أم أن لي ابنًا يعيث في الأرض فسادًا؟!

- (ديودتشي).. منذ متى عملت الجرثومة 123 لديك؟! وكم مرة استعملتها قبل أن تضعها في طريق ابني؟!

شحب وجه (ديودتشي) فقال سرًا: «تبًا يا (ليما)! سأقتلكم جميعًا.»

التفت (يعقوب) إلى (آدم) قائلًا:

- هيا لننصرف من هذا المكان الذي يعج بالقاذورات.

سار (آدم) خلف (يعقوب) وهتافات العامة تصحبهما:

- فليحيا الملك (ألكسندر).. يحيا السيد (يعقوب).. يحيا السيد (آدم).. يحيا السيد (آدم).

* * * *

(12)

في غرفة مكتب السيد (يعقوب) يجلس (آدم) على أحد مقاعد الجهة اليسرى، وأمامه تجلس الأميرة (إستين).. يخيم عليهما الصمت، وبدت الأميرة متيقنة من شرود (آدم) فقالت:

- هل أنت بخير؟!

- ماذا؟!

- هل أنت بخير؟!

- أجل، لماذا قدمت إلى المحاكمة؟

- لأنقذك يا (آدم).

ابتسم قائلًا:

- لكنك لم تفعلي أي شيء.

- رغبت أن أفعل في الوقت المناسب كما أخبرني السيد (يعقوب).

- من العربة الملكية خلف المحاكمة!

- أتهزأ بي؟!

- كلا.. كلا، أخبريني بخطة السيد (يعقوب).

- لقد شعر بالخوف حقًا يا (آدم).. جاء إلى القصر محاولًا إقناع الملك بأن يحسم الأمر لكنه كان خائفًا من رد فعلك وحائرًا حتى أنه طلب من الملك أن يقبل أمر اعتزاله لينقذك، وقد كنت أحاول إقناع الملك بذلك أيضًا لكنه أبى، وأخبرته بالسحر الذي أصابك، وأنها شعوذة، كما أخبرته بما فعلته (رتاج) فقد ظننت أني انتهيت من هذا الأمر حينها، فأبى أيضًا أن يقبل أمر الاعتزال.

- يعتزل؟!

- أجل.

- وماذا حدث بعد ذلك؟! ماذا عن الأمر الملكي الذي كان يحمله السيد (يعقوب)؟!

- لقد رحل السيد (يعقوب) وعاد برفقته رجل يدعى، يدعى (زهير).. أجل (زهير).. لقد بدا أنه من العامة لكنه قريب للغاية من الملك والسيد (يعقوب) وقام بإقناع الملك بخطة

مفادها أن أؤدي دورًا، أعلن فيه أنك طلبتني للزواج وأن المراسم ستتم قريبًا، ومع الأمر الملكي يلغى هذا الأمر، كنا نحاول اللحاق بالمحاكمة لكن السيد (يعقوب) تفاجأ برد فعلك، فسكن مكانه ليراقب الوضع كي يتحدث في الوقت المناسب، وبالتالي انتظرت في عربتي.

- ماذا لو اعترفت بحبي لها ودافعت عن هذا قبل أن تحضرا؟!

- أخبرنا السيد (زهير) أن هذا سيترك مجالًا للشكوك والثرثرة لكن الأمر الملكي يمحو كل هذا سواء برغبتهم أم لا.

- كيف هذا؟!

- لقد أردنا إثبات أنك مجنون.

- مجنون؟!

- أجل، رغب السيد (يعقوب) وكذلك أنا، الاعتراف بهذا كي تراودهم الشكوك، وبالتالي تصبح مكيدة، افتعلها أحدهم الذي يعرف أنك مجنون حقًا، وأجبر الجرثومة على ادعاء ذلك.

- هل ظننتم أن هذا سينجح؟! لا بل سيزيد الأمر سوءًا، ربما قالوا أن (يعقوب) يستغل الملك ويدعي جنون ابنه المعترف بجرمه ليفلت من جريمته تلك.

- لم يكن لدينا خيار آخر، فقد كنا نحاول.

- أفهم وضع السيد (يعقوب) لكن لا أفهم موقف أميرة تضع نفسها في مهب الرياح!

وقفت الأميرة وقد بدت علامات الغضب على وجهها ثم قالت:

- لأنك لا تفهم يا (آدم)! أشعر أنك فقط تريد أن تفهم ما تريد وتهمل أي شيء آخر.

maktabbah.blogspot.com

همت الأميرة بالرحيل دون أن تنتظر أي رد من (آدم) فأسرع لإيقافها قائلًا:

- أعتذر، لم أكن أقصد، لا تغادري.

- حسنًا، لا بأس، أحتاج إلى الراحة، لم أنم منذ ليلة أمس، أراك لاحقًا.

- (إستير).

- ماذا؟!

- أشكرك على كل شيء.

ابتسمت (إستير) ثم همت للرحيل، وحين اتجهت لفتح الباب، بادر السيد (يعقوب) إلى

فتحه من الخارج، فابتسم لرؤيتها ثم قال:

- (إستير).. لا أعلم كيف أشكرك حقًّا!

- لا داعي لذلك، سأذهب لأرتاح قليلًا.

- سأصطحبك.

- لا.. رجاءً، سأرحل بمفردي.

- فليفعل (آدم).

ثم رمقه ليفعل، فضحك (آدم) ثم قال:

- سأرفض بالطبع لأني مجنون!

ضحكت (إستير) ثم قالت:

- حقًّا، لا داعي لذلك، أراك لاحقًا.

- حسنًا.

غادرت الأميرة (إستير) وكاد (آدم) أن يلحق بها لكن السيد (يعقوب) أوقفه حين جلس على مقعد مكتبه قائلًا:

- إلى أين؟!

- أرغب في لقاء الجرثومة ١٢٣.

غضب (يعقوب) ثم صاح قائلًا:

- تبًّا! ظننت أنك عدت إلى رشدك.

- لا تسيء الفهم، لقد شفيت من تلك الأوهام.

- أوهام! كيف تبدلت هكذا؟! اسمع يا (آدم).. أحذرك إن كنت تخدعني.

- كلا، فأنا جاد.

- ماذا حدث لك؟!

- لو أنك أتيت لتسألني البارحة لوفرت الجهد والوقت في محاولة إيجاد مخرج من تلك الأزمة، لقد تيقنت أن أمي ليست جرثومة.

- تبًا! لقد كنت أحاول إقناعك أنها ليست جرثومة طوال هذه المدة، ولم تقتنع، فماذا حدث؟!

- السيدة (ليما) هي من أقنعتني أنها كانت جرثومة، وهي أيضًا من أقنعتني أنها ليست كذلك.

- (ليما) اعترفت لك بذلك؟!

- كلا، ليس لي، بل سمعتها تعترف لشخص آخر.

شحب وجه السيد (يعقوب) وقال في تردد:

- تعترف بماذا؟!

- أن أمي ليست جرثومة، وأنها قامت بإيهامي كل هذه المدة، كانت تخدعني وتفتعل دلائل لأصدق ذلك، حتى الجرثومة ١٢٣ هي من وضعتها في طريقي ودربوها جيدًا كي أصدقها وأحبها.

زفر (يعقوب) كأنما كان يتوقع أن يسمع شيئًا أثقل من هذا ثم قال:

- (ليما)! لقد حاولت إقناعك ألا تستمع إليها.

- لكنك لم تخبرني أن شقيق أمي على قيد الحياة.

- تقصد (زهير)؟!

- أجل.

- أسمعت هذا أيضًا من (ليما)؟!

- أجل، ربما لو عرفته لتمكن من إقناعي.

- لم أكن أرغب أن تكبر بلا أم، وكذلك (زهير) لا يعرف والقليل يعرف هذا.

- كيف لا يعرف؟!

- لقد كان منهمكًا وقتها في عمله بالجيش، هذه قصة طويلة، لكن أخبرني مع من كانت تتحدث (ليما)؟! وأين؟!

- (داغر).

- (داغر)! وماذا قالت أيضًا؟!

سكن (آدم) ثم قال:

- لا شيء مهم.

توقف (يعقوب) عن الحديث عندما سمع صوت قرع الباب، فقال:

- يمكنك الدخول.

دخل الجرثومة العجوز قائلًا:

- سيدي.. الجرثومة ١٢٣ في الخارج كما أمرتم.

وقف (يعقوب) ثم قال:

- لم يعد يعنيني أمرها الآن، فقد علمت ما كنت أرغب فيه.

فقال (آدم):

- أرغب أن أحدثها قليلًا.

أجاب (يعقوب) في دهشة:

- (آدم)!!

- أريد أن أفهم شيئًا منها فقط، لا تقلق، إنها المرة الأخيرة.

نظر (يعقوب) إلى العجوز ثم قال:

- حسنًا، أدخلها.

دخل حارس يمسك بيده طرف حبل غليظ، يبدو ملتفًا حول النصف الأعلى من الجرثومة ١٢٣ وقد قيد يديها تمامًا ليلتصقا بجسدها، انتبه (آدم) لدخولها إثر سماع صوت السلاسل الحديدية التي تقيد قدميها لكنها تترك مجالًا للحركة، اتجه (يعقوب) صوب الباب ثم التفت قائلًا:

- سأذهب الآن، إياك أن تذهب إلى (ليما).. سنتحدث لاحقًا.

- حسنًا.

غادر السيد (يعقوب) فحدق (آدم) إلى الجرثومة ثم نظر إلى العجوز قائلًا:

- غادرا.

- سأفعل يا سيدي.

خرج العجوز والحارس، فأعاد (آدم) النظر إلى الجرثومة ١٢٣ التي كانت واقفة على مقربة من باب الغرفة ثم قال:

- لقد انتهت مهمتك، لكنك فشلتِ.

- أجل، إنها المهمة الأولى التي أفشل فيها.

- وما طبيعة هذه المهمات؟! دعيني أخمن، القتل؟

- أجل، قتلت عددًا من السادة.

- لماذا؟!

- لأنني جرثومة.

- تبًا! لقد كنت تكرهين أن تكوني جرثومة!

- لقد أجبرت على أن أكون جرثومة، وعلى القتل والخداع والكذب، تلك الأشياء التي تراها سيئة، كنت أفعلها لأنها عملي.

- لدى السيدة (ليما)؟

- لا، لدى السيد (ديودتشي).

- لقد سنحت لك الفرصة أن تقتليني بضع مرات، فلمَ لم تفعلي؟!

- لأن مهمتي لم تكن قتلك بل إيقاعك في حبي، لم تكن أنت المقصود بل السيد (يعقوب).

أومأ (آدم) قائلًا:

- يبدو أنك جندي مهم لدى السيد (ديودتشي) ليطلعك على أسراره تلك.

- أكثر مما تتخيل، لقد أعد فريقًا من الجراثيم لتلك المهمات.

- لماذا؟!

- لإسقاط أعوان الملك والمقربين منه ثم الملك.

- هل أراد التخلص من الملك؟! تبًا! هل تهذين أم أنك مدربة على قول هذا أيضًا؟!

- كلا، إنها الحقيقة وسترى بنفسك، فقد أخبرنا في حماسة أنه يريد أن يخلص الجزيرة من شرور الملك، كان يطمعنا في وطن، يتسع ليعيش فيه الجراثيم مع أهل الجزيرة.

بدت علامات الدهشة على وجه (آدم) فصمت ثم قال:

- ألهذا السبب أردتِ قتلي؟!

- أي سبب؟!

- لم تستطيعين الإيقاع بالسيد (يعقوب) فتقتلين ابنه من أجل الحلم.

ضحكت الجرثومة ١٢٣ ثم قالت:

- إنك ساذج، ناصع البياض كما كنت، قبل أن أختفي من بيت السيد (يعقوب) كنت أنتوي قتلك بالفعل، ليس لأنني لم أتم عملي معك لكن لأنك لا تستحق أن تعيش وسط هؤلاء.

- هل تحاولين استعطافي؟!

- كلا.

- حقًا! ولماذا لا أستحق العيش؟! لأنني صدقتك، خدعتني جرثومة.

- الجميع هنا لديهم صفات مشتركة؛ غش، ظلم، خداع، ثلاثة لا يفلت منها أحد هنا.

ابتسم (آدم) ساخرًا ثم قال:

- عدا الجراثيم والسيد المنقذ (ديودتشي).

- السيد (ديودتشي) هو منبع كل الشرور على هذه الجزيرة، والجراثيم لا شيء، يمكنكم تحريكنا كما شئتم.

ضحك (آدم) ثم قال:

- تبًا! الآن أصبح منبع كل الشرور؟!

- ما أقوله الآن هو الحقيقة.

- أي حقيقة؟!

- حقيقة الكذبة الكبرى للسيد (ديودتشي).. لقد كنت أخوض كل مهمة في حماسة، أقتل أي سيد يضعوني في طريقه كأنما أقتل عدوًا في ساحة المعركة، لم أكن أخشى أن يكتشف أحدهم أمري ويقتلني، فقد كنت أظن أنني سأموت من أجل تحقيق هدفٍ ثمين، وأن الجميع (جراثيم وسادة) سيذكرونني عندما يسود ما وعد به السيد (ديودتشي).. اغرورقت عينا الجرثومة بالدموع، فنظرت إلى أعلى كي لا ينهمر سيل من الدمع على وجنتيها، فوقف (آدم) ثم اتجه صوب إحدى نوافذ الغرفة قائلًا:

- أكملي.

أكملت والدمع يتساقط من عينيها قائلة:

- شعرت بالسعادة لما حققته، وعندما أخبرني السيد (ديودتشي) أنه اختارني لأقضي على أهم عقبة في طريق الحلم بالتخلص من السيد (يعقوب) شعرت بالحماسة وظننت أن الأمر يسير، فلن أقتل أحدًا، وقاموا بتدريبي جيدًا لكني أدركت أنني قاتلة محترفة.

قاطعها (آدم) مستفسرًا:

- كيف علمتِ بكذب السيد (ديودتشي)؟!

- سمعت (ميساء) تتحدث، وفي القاع تأكدت من ذلك، فقد ألقوني ظنًا منهم أن مهمتي قد انتهت، وأن السيد (يعقوب) سيعتزل، كان يوم المحاكمة إعلانًا لنهايتي.

- القاع!

- أجل، مكان كل الجراثيم عديمي الفائدة من منظورهم.

- إذا كنت اكتشفت ذلك، فلمَ لم تفضحيهم، وأقدمتِ على قتلي؟!!

- لأنك الوحيد الذي صدقني ولا أحد غيرك سيصدق جرثومة، فلا داعي لتلك المهزلة، أنت لا تناسب هذا العالم، لذلك هربت منه واعتزلتهم، ولن تقدر بنقائك هذا أن تواجه هؤلاء الملوثين، ربما كنت أخشى أن تتلوث، فتصبح مثلهم، لا أدري حقًّا! لكن صدقًا كنت أظن أني بذلك أنقذك من هذا العالم الملوث.

التفت (آدم) قائلًا في سخرية:

- هل تودين القول أنك أحببتني حقًّا؟!

- كلا، الملوثون أمثالي، لا يمكنهم الحب.

- كذلك المخدوعون أمثالي، لا يمكنهم الحب.

- لكن يمكنك أن تستفيق من غفلتك تلك، أما الملوث، لا يمكن أن يعود قلبه نقيًا.

زفر (آدم) ثم تساءل قائلًا:

- هل تودين قول شيء آخر؟!

- لن أطلب منك الغفران، لكن احرص على ألا تتلوث.

اتجه (آدم) صوب باب الغرفة وفتحه ليجد العجوز، فانطلق محدثًا نفسه: «لم يعد لي مكان في عالم الخيال، إنها النهاية، أصبحت مجبرًا على هذا الواقع المرير، إنها البداية.»

* * * *

(13)

يبدو أن خبر نجاة (آدم) من تلك المكيدة، لم يصل بعد إلى مدبريها، فقد بدت السيدة (ليما) تجلس في مقدمة طاولة طويلة، وعلى يمينها يجلس ابنها (أركان) وعلى يسارها تجلس زوجته (رتاج) في سعادة، علهم لم يتسرب إلى خيالهم حتى أن الأحداث يمكنها أن تنقلب ضدهم، وبدا أنه اجتماع للاحتفال بنجاح مخططهم والتخطيط للخطوة التالية لقول (رتاج):

- لقد تأخر أبي كثيرًا.

ضحكت (ليما) ثم قالت:

- إذا قدمت على ذبح طائر، فلا بد من الانتظار حتى تطلع روحه لتستطيعي طهوه، هكذا أرى (يعقوب).. سيظل يجاهد ليبقى حيًا.. لكن هيهات أن يفلت اليوم!

قالت (رتاج) في حماسة:

- لا أصدق أننا قد اقتربنا من غايتنا أخيرًا!

تساءل (أركان) قائلًا:

- ما الخطوة القادمة؟!

أجابت (رتاج):

- اليوم للاحتفال فقط.

فقالت (ليما):

- لا وقت للاحتفال، غدًا تصبح أيامنا كلها حفل لا ينتهي.

ثم نظرت إلى (أركان) وسألته قائلة:

- لماذا قلقت فجأة؟! ظننت أن ذلك سيجعلك سعيدًا للغاية.

تنهد (أركان) ثم أجاب قائلًا:

- أخشى أن يصيب (آدم) أذى، فهو في نهاية المطاف أخي، وكذلك السيد (يعقوب) فهو...

قاطعته (ليما) في غضب:

- لقد أخبرتك أن طريقنا هذا، ينبغي أن تبتعد عنه العاطفة، وإن تسللت إليك فستهلك.

- لم أقصد هذا، فقد أردت أن...

قاطعته (ليما) قائلة:

- ابتعد عن إثارة أعصابي يا (أركان).

ثم وضعت يدها على يده الموضوعة فوق الطاولة لتردف في عطف:

- لا تقلق، أخبرتك أنه لن يصيبهما أي أذى، فقط سننال غايتنا.

أفزعهم صوت فتح الباب كأنما هبت رياح عنيفة كادت أن تقتلع الأشياء من مكانها، فدخل السيد (ديودتشي) وتعابير وجهه لا تفسر، وكاد أن يغلق الباب خلفه غير أنه تفاجأ بوجود (داغر) خلفه، فلم يعبأ بأمره واتجه نحو المقعد المقابل للسيدة (ليما) من الناحية الأخرى للطاولة ثم جلس ليعيد النظر إلى (داغر) الذي قام بغلق الباب ووقف ينظر إليهم حتى قالت السيدة (ليما) مبتسمة:

- مرحبًا يا سيد (داغر).. أشكرك لتلبية دعوتي اليوم، اجلس.

أومأ (داغر) ثم اتجه نحو (أركان) الذي وقف ليصافحه ثم جلس بجواره عابسًا..

حدقت (ليما) إلى السيد (ديودتشي) في دهشة لرؤيته عابسًا، لكن (رتاج) بدت غير منتبهة لهذا، فقالت في حماسة:

- لقد انتظرناك طويلًا رغم أننا متيقنين من النتيجة إلا أنني ما زلت أتوق إلى سماعها منك يا أبي العزيز.

تسرب الشك إلى نفس (ليما) لصمت (ديودتشي) فقالت في تردد:

- سيد (ديودتشي).

نظر (ديودتشي) إلى (ليما) قائلًا:

- ماذا؟!

قالت (ليما) في نبرة يملؤها الخوف:

- لم تجب! هل كل شيء يسير كما أردنا؟

قال (ديودتشي) في استنكار:

- ألم تصلكم الأخبار بعد؟!

تساءل (أركان) قائلًا:

- هل أصاب (آدم) أو السيد (يعقوب) أي أذى؟!

ضحك السيد (ديودتشي) ثم وقف ليطرق المنضدة قائلًا:

- السيد (يعقوب) وولده، حقًّا تسأل عن (يعقوب) وولده! ينبغي أن تسأل عن حالي أنا.

بدت علامات الدهشة على الجميع عدا السيدة (ليما) فبدت خائفة ثم قالت:

- ماذا تقصد؟!

أجاب (ديودتشي) في غضب:

- أقصد أن تلك الخطة المحكمة، تلك المكيدة العبقرية، قد فشلت.

تساءلت (رتاج) في ذهول:

- كيف هذا؟! فشلت كيف؟؟

- ذاك اللعين (آدم) لم يعترف بأي علاقة بينه وبين تلك الجرثومة، والأكثر من هذا، أنه تعجب كيف ندعي علاقة سيد بجرثومة!! ثم جاء (يعقوب) بأمرٍ ملكي لينهي تلك المهزلة.

تنهدت (ليما) ثم قالت:

- هل تقصد أن الجرثومة اعترفت بالحقيقة؟!

أجاب (ديودتشي) في غضب:

- كلا، لقد أدت دورها ثم فجأة زادت الأمر سوءًا وأقدمت على قتل (آدم) لتثبت للجميع أن كل ما قيل وشاية، أرادوا بها النيل من السيد (يعقوب).

قالت (رتاج) في يأس:

- كيف هذا؟!

صاح (ديودتشي) في غضب:

- أنا من يحق لي هذا السؤال، كيف حدث هذا يا سيدة (ليما)؟! أخبرتكِ بوجوب قتل (يعقوب).. ما فائدة تلك المهزلة؟!

أجابت (ليما) قائلة:

- هذا يعني أن (آدم) قد علم الحقيقة كلها قبل المحاكمة، لكن كيف؟!

جلس (ديودتشي) ثم نظر إلى (داغر) قائلًا:

- تبًا! لقد جعلت خطتك في يد أحد رجال السيد (يعقوب) وتسألين كيف علم!

كادت السيدة (ليما) أن تجيب غير أن السيد (داغر) فطن لما أراد إيصاله إليه، فقال:

- هل تقصدني يا سيد (ديودتشي)؟!

أجاب (ديودتشي) قائلًا:

- هل تشك في هذا يا سيد (داغر)؟!!

فقالت (ليما):

- أنت مخطئ يا سيد (ديودتشي).. لو لم أثق به لما أخبرته.

- هل تفسرين لي كيف تبدل ابن (يعقوب) فجأة؟! ولماذا لم تخبريني بعلم أحد آخر بمخططنا؟!

- لا أدري كيف! لكني متيقنة من أن السيد (داغر) لا يمكنه أن يخونني!

قال (داغر) في ثقة:

- لو فعلت هذا، فلماذا أجلس بينكم اليوم؟!

ثم نظر إلى (ديودتشي) ليردف قائلًا:

- كما أنني صمت عندما قامت (ميساء) بأخذ جرعات من السم سريع المفعول الذي أعده بنفسي لرغبتها في التخلص من بعض الجرائيم دون الاضطرار إلى اللجوء إلى محاكمة علنية، والأكثر من هذا، موت بعض كبار رجال الجيش فجأة وعليهم آثار هذا السم لكنني كنت أغض الطرف عن ذلك، وادعيت أنه ربما هناك مرض قد تفشى بيننا، أجهل أسبابه، ثم أنني أكره (يعقوب) وهذا شيء لم أنكره يومًا حتى أنني شكوته إلى الملكة منذ أيامٍ قليلة بعدما علمت سر بناء هذا البيت.

بادرت (ليما) قائلة:

- أي بيت؟! البيت المجاور للقصر؟!

أجاب (داغر):

- أجل.

فقال (ديودتشي) ساخرًا:

- ولماذا بني؟!

- إنه يبقي على جرثومة خفية عن الجميع.

سألت (ليما) في دهشة:

- ماذا؟!

ضحكت (رتاج) ثم قالت:

- هل تقصد أن السيد (يعقوب) يخون السيدة (ليما)؟!

أجاب (داغر) قائلًا:

- كلا، ليس الأمر كذلك، لقد كنت أحيانًا أسمع صوتًا يصدر من غرفة السيد (يعقوب) وأتفاجأ أن الباب مغلق وأنه غير موجود في غرفته، وكذلك مع السيدة (ورد) لكنه كان أكثر ما يصادفنا معها، وقد حاولت أكثر من مرة أن أنتزع منها حقيقة ذلك لكن لم أنجح، وعندما جاء (آدم) سمعت صوت امرأة تتحدث داخل الغرفة لكنه لم يكن موجودًا، فقد وجدته في مكانٍ آخر حتى علمت أن السيد (يعقوب) يبقي على جرثومة خفية.

سأله (ديودتشي) قائلًا:

- وكيف علمت هذا؟!

وتساءل (أركان):

- ولماذا يفعل هذا؟!

شرد (داغر) مسترجعًا هذا المشهد من بريد الذاكرة:

ظهر فيه (داغر) جالسًا على مقعد أمامه امرأة ممددة على الفراش، يبدو أنها مريضة، وحين رأت (داغر) قالت في ضعف:

- اخرج، اخرج.

- انظري إلى أين وصلنا! لو أعطيتني ما أريد من الجراثيم لما انتهى بك المطاف هكذا.

- كنت أعلم أنك خلطت شيئًا بدوائي.

- لكنك علمت متأخرًا. لقد جاء إلي ابنك يطلب دواءً، فقلت: لمن؟ للسيدة (ورد)؟ قال: كلا،

إنها تلتقط أنفاسها الأخيرة.. قلت: إذًا لمن؟ فقال: لحفيدها الصغير، فجئت لتتناوله السيدة (ورد).

- ماذا، ماذا، تريد؟!

تنهد (داغر) ثم قال:

- الشر يسري في عروقي يا (ورد).. أردت بعض الجراثيم من فئة الأطفال لأجري تجاربي عليهم لكن السيدة (ورد) رفضت ذلك، أجبرتني على فعل ذلك بصغارنا، ما رأيك أن نبدأ بحفيدك؟!

حاولت السيدة (ورد) أن تقوم لكنها لم تستطع، فقال (داغر):

- لا ترهقي نفسك كثيرًا، بإمكاني سماعك هكذا، أعرف حالتك تلك.

- أرجوك يا (داغر).. لا تفعل.

- ما المقابل؟! كما تعلمين لا شيء في هذه الحياة دون مقابل.

- ما تريده، أعطيك ما تريده؟!

- تتذكرين الأصوات التي كنت أسمعها في غرفتك وكذلك في غرفة (يعقوب).. ما السر الذي تخفيه؟! أخبريني!

- جرثومة.. يخفيها (يعقوب) منذ كانت طفلة صغيرة.

صمت (داغر) ثم قال:

- كيف تنتقل بين غرفتيكما؟!

- باب خشبي في جدار غرفتي وجدار غرفته، وسلم داخلي يصل بين الطابقين.

- لذلك لا يدخل غرفتيكما أحد عدا العجوز اللعين، لكن أخبريني ما خطبها تلك الجرثومة؟ أقصد لماذا تبقون عليها؟!

- لا أدري.. لكنها أوامر السيد (يعقوب).

- هل تخدعينني؟!

- كلا، كلا، صدقني (الجرثومة صفر) ستجدها هناك.

- كيف أصل إلى مفتاح غرفتك؟

- السيد (يعقوب) أو الجرثومة العجوز، دع حفيدي وشأنه.

- حسنًا شريطة ألا يعلم أحد من زوارك المهمين بأنني علمت.

- حسنًا.

نفد صبر الجميع لصمت (داغر) فصاحت السيدة (ليما) في غضب:

- ما أمر تلك الجرثومة يا (داغر)؟!

- إنها (الجرثومة صفر).

بدت آثار الدهشة واضحة على وجه (ليما) وتبادلت نظرات التعجب مع السيد (ديودتشي) ثم قالت دون تفكير:

- (الجرثومة صفر) حية؟!

أجاب (ديودتشي):

- كلا، كلا، لقد ماتت حرقًا.

- هل تأكدت من ذلك وقتها؟!

- أجل.

- ربما كانت جرثومة أخرى.

- كيف؟!

ثم تحدثت (رتاج) قائلة:

- ما هذا؟ لا أفهم شيئًا!

قال (أركان):

- وأنا أيضًا.

تجاهلتهما (ليما) ونظرت إلى (داغر) قائلة:

- (داغر).. هل رأيتها؟!

وقال (ديودتشي):

- صفها لي.

لكن (داغر) بدا شاردًا ليستقبل مشهدًا آخر من بريد الذاكرة:

بدا فيه (داغر) منحنيًا لسيدة، يبدو أن شأنها عظيم لأنها ترتدي تاجًا يزين شعرها البني القصير، والتي قالت في اشمئزاز:

- ماذا تريد أيها الطبيب؟!

اعتدل (داغر) قائلًا:

- أعتذر لإصراري على مقابلة الملكة لكن لا بد أن أراها لإنجاز هذا الأمر.

- ما هو؟!

- لقد كنت دائمًا أتساءل عن سبب بناء هذا البيت المجاور للقصر الملكي.

صمتت الملكة ثم قالت:

- هل جئت لتسألني عنه؟!

- كلا يا سيدتي، لكن علمت سر بنائه، ولا أدري كيف أتصرف!

- وما سره؟!

- سيدتي.. السيد (يعقوب) يخفي جرثومة عن أعين الجميع داخل البيت، لها غرفة مستترة ما بين غرفة السيد (يعقوب) في الأعلى، وغرفة السيدة (ورد) في الأسفل، ولا يراها أحد منذ بناء البيت.

- جرثومة!!

- أجل يا سيدتي.. (الجرثومة صفر).

فزعت الملكة ثم وقفت قائلة:

- (الجرثومة صفر) حية!

- ماذا؟!

- هل رأيتها أيها الطبيب؟! صفها لي.

- إنها جرثومة يا سيدتي.

- أجل، أعلم أنها جرثومة لكن هل هي طويلة أم قصيرة، حديثة السن أم كبيرة؟!

- أظن أنها متوسطة القامة لكن تبدو في العشرينيات.

جلست الملكة ثم قالت:

- متوسطة القامة، نحيلة الجسد، وعيناها واسعتان سوداء اللون، فم متوسط وأنف متوسط وشعرها طويل مجعد، أليس كذلك أيها الطبيب؟!

- لقد رأيتها عندما كانت نائمة لكن أعتقد أن هذا الوصف صائب.

- (الجرثومة صفر) في العشرينيات.

- ماذا؟!

شردت ثم قالت:

- لا شيء، سأتدبر هذا الأمر، وأراك لاحقًا أيها الطبيب.

انحنى (داغر) ثم انصرف.

اكتفى (داغر) بذلك من بريد الذاكرة، لكنه ظل شاردًا وحدث نفسه قائلًا: «ما السر وراء (الجرثومة صفر)؟ كان ينبغي أن ألاحظ من معرفة الملكة لها وأيضًا (ليما) و(ديودتشي) الآن، يبدو أن الأمر أكبر مما تخيلت يا (داغر)!»

استفاق من شروده هذا إثر وقوف السيد (ديودتشي) ليطرق المنضدة في غضب قائلًا:

- (داغر)!

انتبه (داغر) قائلًا:

- ماذا؟!

- هل الجرثومة تلك متوسطة القامة؟

قاطعه (داغر):

- نحيلة الجسد، وعيناها واسعتان سوداوان، أنف متوسط وفم متوسط وشعرها طويل مجعد.

جلس (ديودتشي) وقد بدت آثار الصدمة على وجهه، وكذلك (ليما) فقال (داغر):

- لكنها في العشرينيات من العمر، ولست متأكدًا من لون العين وطول القامة لأنني رأيتها نائمة.

سأل (ديودتشي):

- إذًا كيف علمت باقي هذه التفاصيل؟!

- هكذا أخبرتني الملكة عندما ذهبت لأخبرها.

سألت (ليما):

- وماذا قالت؟!

أجاب (داغر):

- رد فعلها مثل رد فعلكما تمامًا، لهذا أشعر بالدهشة من تلك (الجرثومة صفر)!!

قالت (رتاج):

- نحن أيضًا نريد أن نعلم من تكون!!

ابتهجت (ليما) ثم قالت:

- ابنتها.

فقال (ديودتشي):

- لو أنها ابنة (الجرثومة صفر) حقًّا لاعتدل الحظ.

أجابت (ليما):

- أجل، أجل.

- لا بد أن نتصرف سريعًا.. لقد هددني (يعقوب) أن الجرثومة ١٢٣ كانت تعمل لدي، ومن السهل إجبارها على الاعتراف بكل شيء.

قالت (ليما) في حماسة:

- أجل فلنسبقه، لنستمر في خطتنا، ينبغي أن يُقتل ولي العهد.

- و(يعقوب) وولده.

غضب (أركان) قائلًا:

- رغم كل هذه الألغاز إلا أني أرفض هذا الأمر، وأؤكد رفضي لقتل (آدم) وأبي.

قال (ديودتشي) في غضب:

- تبًا! نكاد نهلك على يديه وأنت ما زلت تثرثر أبي، ينبغي أن تعلم أنه ليس...

بادرت (ليما) قائلة:

- (ديودتشي).. أرجوك، سأتدبر الأمر.

- لا بد ألا نخطئ مرة أخرى.

ثم نظر إلى (داغر) قائلًا:

- سيد (داغر).. ستتولى مهمة إحضار (الجرثومة صفر) حية إلينا دون أن يراك أحد.

أجاب (داغر) قائلًا:

- سأفعل لكن لم أفهم.

- لا وقت لدينا، ينبغي أن نسارع الزمن، غدًا ستفهمون جميعًا كل شيء.

ثم نظر إلى (ليما) قائلًا:

- سيدة (ليما).. أعتقد أنك تعلمين مهمتك.

- أجل، لا تقلق.

- سأتولى أمر ولي العهد.

ثم وقف قائلًا:

- سيد (داغر).. لا بد أن ننصرف خشية أن يأتي (يعقوب) إلى هنا.

امتثل (داغر) لهذا، وخرج مع السيد (ديودتشي).

نظرت (ليما) إلى (رتاج) قائلة:

- ابنتي (رتاج).. اتركينا الآن وأخبري (ميساء) أن تراقب باب البيت حتى إذا جاء (يعقوب) تخبرنا.

- لكن...

- عزيزتي، سأطلعك على كل شيء ترغبين في معرفته لاحقًا.

بدت (رتاج) غير راضية عن هذا لكنها امتثلت للأمر وخرجت، فلما اطمأنت (ليما) لخروجها، نظرت إلى ابنها قائلة:

- بني.. هل سأعيد عليك الأمر؟!

- بل ينبغي أن تخبريني ما لا أعلمه.

- أمر (الجرثومة صفر) هذا شيء ظننا أنه انتهى.

- وماذا حدث؟!

- (الجرثومة صفر) كانت فتاة شابة، قدمت إلى جزيرتنا كأي جرثومة والتحقت لتعمل بالقصر الملكي لكنها كانت ماكرة، استطاعت أن تجذب الملك (ألكسندر) إليها وأصبح هناك نوع من العلاقات الخاصة بينها وبين الملك، علمت زوجة الملك بهذا الأمر، فخشيت على زوجها وعلى مستقبل ابنها ولي العهد، لكن الأمر كان معقدًا، فقد حماها الملك ومنع أي ضرر قد يلحق بها لمدة تجاوزت أكثر من ثلاث سنوات تقريبًا، فلجأت الملكة إلي وإلى السيد (ديودتشي) ثم علمنا مكانها بعد تتبعنا للسيد (يعقوب) وقام السيد (ديودتشي) بحرق منزل السيد (زهير) الذي كانت تختبئ فيه يومها.

- ثلاث سنوات!!

- أجل، فقد كان الملك مصرًا على حمايتها، لم أكن أعلم السبب وراء ذلك لكن يبدو أنها أنجبت منه، ولذلك أقام البيت المجاور للقصر لتعيش فيه ابنته الجرثومة، يا لها من مفاجأة ستذهب الملك إلى حيث يستحق أن يكون!

- ماذا لو أنكرها كما فعل (آدم) اليوم؟!

- كلا، لن يفعل، أعرفه جيدًا.

- لقد كنتِ واثقة من رد فعل (آدم) أيضًا.

- كلا، ليس كـ (ألكسندر).. (آدم) هو من أوقع نفسه بتصرفاته تلك، كان مهيئًا ليقع في الفخ، فهو من ألهمني تلك المكيدة، لقد كان مهيئًا لذلك، وكأي فردٍ إن أدرك أن أحدهم قام بتدبير مؤامرةٍ له ليوقعه، فإنه سيستفيق ليتحاشى الوقوع، أما الملك، فلا يوجد شيء يغير حقيقة جزءٍ منه، كأنك تضع نصل خنجرك على قلبه.

- ما زلت أرفض أن يمس أحدهم أبي، لا تحدثيني عن العاطفة، ولا حتى عن حبه لـ (آدم) أكثر مني.

- (أركان)!

- ألا تخشين أن تدور الأيام ويسعى ابني لقتلي؟! لا أتحمل ذلك!

- كأنك ترفض أن تكون ملكًا، وأن تصبح الرجل الأول في الجزيرة!

- أنا أفعل كل ما يرضيك.

- أنت مثله تمامًا.

- من؟!

- (ألكسندر).

- الملك!! كيف؟!

- كان تاج الملك يسعى إليه بينما يهرب منه مثلك تمامًا.

- لا تقلقي، سأنفذ كل ما تريدينه وأنتقم لك ولعائلتك من العائلة المالكة.

- ما زلت تتذكر ما زرعته داخلك.

- أجل، أذكر تلك القصة جيدًا.

- لكنها المرة الأولى التي أشعر فيها أنك لا تصدقها.

- لا يمكنني أن أكذبك إطلاقًا، لكن حقًا لا أرغب في الملك ولم أشعر بالسعادة عندما أصبحت (لورد).. اعتقد الجميع أن (آدم) فاشل، وكنت أحاول جاهدًا أن أجعله يغار من منصبي واحترام الناس لي، لكن الحقيقة أنني كنت مشتعلًا من الغيظ، فقد كان حرًا، يفعل ما يحلو له في أي وقتٍ وأي مكان، كنت أراه ينعم بحياةٍ هادئة بعيدة عن صخب الحياة، عندما يقرر أن يتزوج سيتزوج من يحبها، لا من تفرضها عليه المنفعة، عندما يقرر أن يعمل، سيعمل ما يحب دون أن ينظر إلى احترام الناس لتلك المهنة.

سألته (ليما) في ثباتٍ قائلة:

- هل تريد أن تتخلى عني؟!

- كلا، لكن هذه الصراعات، أفسدت حياتنا وأفسدت علاقتي بأمي، عندما أراكِ، أشعر أنني ألتقي (لورد) يشترك معنا في تدبير المكائد من أجل السلطة، وددت أن أحيا في هدوءٍ وسط أمي وزوجة تحبني دون أن أكون أداة لتحقيق أحلامها.

- ماذا تعني؟!

- أعني أنه ليس من الضروري أن تنتقم للجد الأكبر لعائلتك الذي سلب جد الملك (ألكسندر) الأكبر ملكه منه، واتخذ من عائلته خدمًا لهم، لماذا نتوارث الحقد والكراهية؟ ماذا لو تبع هذا نزاع وفساد في الجزيرة؟! ماذا لو لم يرحب الناس بي؟!!

وقفت (ليما) ثم صرخت في غضب باكية:

- لاااا.. لاااااا.. لاا يا (ألكسندر).. لاااا.

نهض (أركان) مسرعًا، وحاول أن يهدئ (ليما) ممسكًا بيديها ثم قال:

- أمي أرجوك، سأفعل ما تريدين، اهدئي.

جلست (ليما) بعدما أفلتت يديها منه، وكادت أن تتكلم لولا صوت قرع الباب ودخول (ميساء) التي قالت بعدما التقطت أنفاسها:

- سيدتي، السيد (يعقوب) قادم إلى هنا.

أشارت (ليما) إلى (ميساء) لتقترب منها ثم همست في أذنها، فغادرت مسرعة، ودخل (يعقوب) ليجلس في الجهة المقابلة للسيدة (ليما) قائلًا:

- كيف حالك يا (أركان)؟!

- بخير.. ماذا عنك؟!

- لمَ لم تسأل عن (آدم)؟!

- لقد علمت أنه بخير.

- حقًا، ليس لديك عمل!

قالت (ليما) في غضب:

- (أركان).. أرجوك، اتركنا قليلًا.

امتثل (أركان) وغادر، فقالت (ليما):

- ماذا تريد يا (يعقوب)؟!

- لا شيء، فقط أردت أن أراك تشتعلين غضبًا.

ضحكت (ليما) ساخرة ثم قالت:

- أنت تغضبني يا (يعقوب)!

- ألم يفشل مخططك للإيقاع بي؟!

- ربما كانت خطوة غير موفقة لكن لا أستسلم ما دمت حية.

- ماذا فعل (آدم) حتى تقدمي على فعل هذا؟! لقد تجاهلت أفعالك، وأعذرك في ذلك.

- لم يفعل شيئًا، وأنت كذلك لم تفعل شيئًا!

- أجل، لقد مددت لكِ يدي طوال هذه السنوات، قدمت لك الحماية، أتنكرين ذلك؟!

- كلا، لا أنكر لكن أسعى لأنال حقي.

- حقك!

- أتتناسى ما حدث في الماضي؟!

- لقد كانت طموحاتك تلك سبب معاناتك في الماضي والحاضر يا (ليما).

- طموحاتي، ألا يحق لي أن أحلم وأسعى لتحقيق طموحاتي؟!

- ينبغي للمرء أن تكون أحلامه واقعية.

- أريد حقي يا (يعقوب) وحق ابني.

أجاب (يعقوب) ساخرًا:

- وما قد يكون هذا الحق؟!

- أن يصبح ابني الملك، وأصبح أنا الملكة الأم.

- تبًا! هناك ملك وله ولي عهد هو من سيكون الملك!

- و(الجرثومة صفر).

- ماذا؟! لقد ماتت وانتهى أمرها.

- أجل، لكن ابنتها حية وتشبهها كثيرًا.

حاول (يعقوب) أن يقول في ثبات:

- إنك تهذين!

- في غرفة لها باب خشبي مرفقه بغرفة السيدة (ورد) وهناك سلم داخلي يصلها بغرفة السيد (يعقوب).

احمر وجه (يعقوب) ثم قال:

- حتى وإن كان هذا حقيقيًا، ماذا سيفيدك؟!

- إنه الرمح الذي سأنال به هدفي يا (يعقوب).

زفر (يعقوب) ثم أردف قائلًا:

- ابنك (لورد) وأنت زوجة الرجل الثاني في الجزيرة، يبدو أنك قد نسيت عمل والدك!

وقفت (ليما) وبدا الغضب على وجهها ثم قالت:

- انتهى وقت الكلام يا (يعقوب) ولولا (أركان) لقتلتك حقًا لكن أشكرك لسعيك إلي اليوم لننهي هذه المهزلة ونكمل مخططنا لننال من الملك وزوجته وابنه.

ثم نادت قائلة:

- (ميساء).

دخلت (ميساء) وتبعها عدد من الجنود، قاموا بالهجوم على السيد (يعقوب) وقيد أحدهم يديه خلف ظهره ليصيح في غضب قائلًا:

- ماذا تفعلون؟! أنا السيد (يعقوب).. ستندمون جميعًا، أحذركم.

اتجهت (ليما) إليه قائلة:

- أحذركم أن يصيبه مكروه.. لكن احذروا أن يهرب منكم.

صرخ (يعقوب) قائلًا:

- (ليما).. ماذا تفعلين؟! ستندمين يا (ليما).

* * * *

(14)

ركض (آدم) مسرعًا في مكانٍ واسع ليوقفه صوت أجش قائلًا:

- اقتلوا (يعقوب).. اقتلوا (يعقوب).

يتردد صداه في أذنيه، فيصيح (آدم) محاولًا التقاط أنفاسه:

- أين؟ أين؟

ثم ركض (آدم) ظنًا منه أنه يتبع الصوت، فيوقفه الصوت نفسه قائلًا:

- اقتلوا (الجرثومة صفر).. اقتلوا (الجرثومة صفر).

فيحاول (آدم) معرفة جهة الصوت لكنه لا يتبينه، فيصيح قائلًا:

- أين؟!! أين؟!!

حتى ينتهي صداه في أذنيه، ويعاود الركض إلى أن يوقفه الصوت قائلًا:

- اقتلوا (إستير).. اقتلوا (إستير).

فيعاود (آدم) قائلًا:

- أين؟! أين؟!

ثم يعاود الركض من جديد حتى يوقفه الصوت نفسه قائلًا:

- اقتلوهم جميعًا، جميعًا.

فيدور (آدم) بجسده عله يجد شيئًا حتى رأى ذلك الضوء من بعيد، تبعه (آدم) والصوت يتردد في أذنيه:

- اقتلوهم جميعًا، جميعًا.

ظل (آدم) يركض صوب مصدر الضوء حتى تلاشى فجأة، فتوقف لاهثًا ثم سقط على ركبتيه، فعاد الصوت من جديد:

- اقتلوهم جميعًا، جميعًا.

لكن هذه المرة بدا الصوت قريبًا للغاية، وكاد (آدم) أن ينهض إلا أنه لم يستطع لوجود سيف على رقبته، والصوت نفسه يقول:

- اقتلوا (آدم).. اقتلوا (آدم).

فضحك (آدم) عندما سمع هذا.

فجأة عاد الضوء من جديد ليرى (آدم) السيد (يعقوب) و(إستير) و(الجرثومة صفر) أمامه، وخلف كلٍ منهم رجل لا تظهر ملامحه، يضع كلٌ منهم السيف على رقبة من أمامه، فيعاود الصوت من جديد:

- اقتلوهم جميعًا، اقتلوهم جميعًا.

فترفع السيوف من على الرقاب، ليس عفوًا وإنما لتيسير أداء مهمتهم، فتعلو أصوات الثلاثة المهددون بالذبح في ذعر:

- أنقذنا يا (آدم).. أنقذنا يا...

يقاطعهم ضرب السيوف لرقابهم، فتعجز ألسنتهم عن الحديث ليصرخ (آدم) بعدما أغلق جفونه في ذعرٍ وهلعٍ قائلًا:

- لاااااا، لاااا.

ثم ينظر أمامه لينتفض صارخًا:

- لاااا.

فيجد (الجرثومة صفر) أمامه جالسة ليقترب منها ويضمها بعد فزعٍ قائلًا:

- هل أنت بخير؟!

ثم أمسك رأسها قائلًا:

- أجل، أجل، أنت بخير.

أفلت (آدم) الجرثومة من يديه لتقول في ذهول:

- سيدي، ماذا حدث؟!

زفر (آدم) بعدما أدرك أنه جالس على أحد مقاعد غرفته ثم قال:

- أعتذر، راودني كابوس مزعج.

بدا (آدم) متألمًا بهذا الكابوس البشع، وبدت ذاكرته متناغمة مع هذا الكابوس، فدعمته بهذا المشهد:

إنه المشهد ذاته الذي كان بين (داغر) والسيدة (ليما) فباتت الذاكرة مرسلة بالجزء المناسب في الوقت المناسب إذ استحضرت الجزء الذي قال فيه (داغر):

- لماذا تبوحين لي بهذه الأسرار؟ ألا تخشين أن أفسد كل شيء؟!

- كلا، فأنا أعرفك تمامًا كما أعرف نفسي، كما أعرف أنك ما زلت تحبني.

- ما زلت مغرورة! لماذا تقدمين على إنهاء (يعقوب)؟!

- لأنفرد بـــ (ألكسندر).

- وماذا تريدين من (ألكسندر) بعد كل هذه السنوات؟!

- كل ما يملكه.

اكتفى (آدم) بذلك، وهم بالخروج ليفكر في لقاء الملك، لولا أن صوت (الجرثومة صفر) أوقفه:

- ظننت أنك لن تعود مرة أخرى.

ابتسم (آدم) قائلًا:

- حقًا! ألهذا السبب نمتِ على فراشي؟!

أجابت (الجرثومة صفر) في خجل:

- كلا، كلا، لم أقصد أن أنام هنا، فقد كنت أنتظرك.

- ظننت أنني بعد تلك المحاكمة سأنام أيامًا متتالية، لكن لم أستطع حتى المساء، كان كل جزءٍ مني يرغب في النوم عدا عقلي، بدا نشطًا مرسلًا بأسباب الأرق لبقية الجسد، فكنت أتسكع قليلًا عل الجسد ينهك، فيجبر العقل على الارتكان إلى الراحة.

- ماذا؟!

- لا شيء، لدي بعض الأعمال في الخارج، سأعود قريبًا.

- في هذا الوقت المتأخر من الليل؟!

قاطعهما صوت قرع الباب مرفقًا بصوت أحدهم:

- سيد (آدم).

نظر (آدم) إلى الجرثومة، ففطنت أنها لا بد أن تختبئ، فقالت:

- لا بأس، إنه الجرثومة العجوز.

ابتسم (آدم) ثم اتجه إلى الباب، دخل العجوز وأغلق الباب ثم اتجه نحو الباب السري قائلًا:

- لا بد أن تتبعاني، لا وقت لدينا.

سأل (آدم) متعجبًا:

- ماذا يحدث؟!

اتجه العجوز صوب (آدم) وأمسك يده ثم نظر إلى الجرثومة قائلًا:

- هيا أسرعي.

فأسرعت ودخلت ثم جذب العجوز يد (آدم) قائلًا:

- هيا قبل أن يقضى علينا.

دخلوا الغرفة المستترة، فأحكم العجوز غلقها وأسرع نحو المنضدة ليحملها ويضعها خلف الباب قائلًا:

- أسرعي، افتحي باب الغرفة الأخرى.

اتجهت (الجرثومة صفر) صوب الحائط المقابل لحائط الباب المستتر، وفتحت بابًا مستترًا آخر، فدخلت، وكاد العجوز أن يتبعها حتى قال (آدم):

- لن أتحرك قبل أن أفهم.

زفر العجوز ثم قال:

- (داغر) ومعه بعض الرجال، سمعتهم يتحدثون عن (الجرثومة صفر) وعنك، والسيد (يعقوب) لم يعد بعد من الخارج، المفتاح لا أدري كيف اختفى! هذا يعني أنكما في خطر وينبغي أن نرحل.

تذكر (آدم) صورة (داغر) مع (ليما) فاتجه مسرعًا صوب العجوز قائلًا:

- هيا، فلنسرع.

أحكمت الجرثومة إغلاق الباب خلفهم، فقال (آدم):

- حسنًا، لن يجدونا هنا.

قال العجوز:

- بل سيجدونا لأنهم عرفوا أمر (الجرثومة صفر).

سأل (آدم) في دهشة:

- ولماذا يكترثون لأمر (الجرثومة صفر)؟!! لا أفهم!

أجاب العجوز قائلًا:

- لأنها ليست جرثومة عادية.

- فلنصعد إلى أعلى ثم نخرج لنهرب.

- ذاك اللعين (داغر) ليس ساذجًا، إنه داهية، لا بد أنه قد فكر في هذا.

قالت (الجرثومة صفر) في خوف:

- ماذا سيحدث؟!

أجاب العجوز:

- أخبرتكِ سابقًا أنني ما دمت حيًا، فلن يجرؤ أحد على إلحاق الأذى بك، قد يكون هذا خطيرًا لكن لا مهرب لنا إلا من خلاله.

سأل (آدم):

- ماذا تقصد؟!

- من هنا سيكون الأمر أقل خطرًا، أجل، الطابق الثاني أكثر أمنًا.

ثم اتجه العجوز صوب الحائط المقابل لحائط الباب المستتر، وأخرج خنجرًا ثم فتح بابًا آخر إلا أنه كان يطل على الفراغ، فنظر (آدم) قائلًا:

- إنك تهذي!! هل تريد أن تسقط من هنا؟ سنموت حتمًا.

غرز العجوز سن خنجره في صندوق معلق أسفل الباب الذي فتحه، وحين تمكن من فتحه، خرج منه سلم معد من حبال سميكة، يحتوي بعض الألواح الخشبية، وظل يمتد حتى وصل إلى الأرض ثم قال:

- سنستخدم هذا.

فقال (آدم):

- دعك من هذا، اذهب وأخبر (إستير).. لا بل الملك ليأتوا بالجنود كي يحموننا، هيا أسرع.

- لو كان الملك في حال أفضل منا لذهبت إليه.

- هل أصابه أذى؟!

- إنها أوامره، وإن لم نرحل، فسننتهي وهو قبلنا.

- ماذا تقصد؟! لا أفهم!

تسرب إلى آذانهم بعض الأصوات، فقال العجوز في خوف:

- لا وقت لدينا.. انزل، هيا أتوسل إليك.

نظر (آدم) إلى الجرثومة ثم قال:

- هل تستطيعين فعل هذا؟!

أجاب العجوز:

- أجل، لا تقلق، هي مدربة على فعل هذا.

قالت (الجرثومة صفر):

- سأنزل أولًا.

ثم اتجهت نحو العجوز الذي أمسك بيدها حتى وضعت إحدى قدميها على السلم، ونزلت حتى وصلت إلى نصفه، ونظر (آدم) إليها في ذهولٍ حتى وصلت إلى ما يقرب من الأرض، فقفزت ليشعر (آدم) بالقلق لأنه لم يعتد الأمر حتى أصبحت أصوات الضجة قريبة منهم، يعلوها صوت (داغر) قائلًا:

- يوجد سلم داخلي، أين هو؟ لا أراه! فتشوا جيدًا، لا بد أنه يوجد باب آخر.

نظر العجوز إلى (آدم) ففطن (آدم) أنه لا سبيل أمامه سوى هذا، فاتجه وساعده العجوز ليضع قدميه على السلم ثم قال:

- انزل واحده ثم الأخرى، لا تقلق، الريح ساكن اليوم.

بدا الأمر صعبًا على (آدم).. يملؤه الخوف، فاستغرق وقتًا طويلًا حتى وصل إلى نصفه، وبدا مطمئنًا أكثر لزوال الخطر بنزوله حتى نزل أخيرًا لاهثًا، يشعر بالدهشة لفعله هذا أكثر من نجاته قائلًا في حماسة:

- لقد نجحت.

ضحكت الجرثومة قائلة:

- إنه أمر يسير يا سيدي.

نهض (آدم) قائلًا:

- أجل، أجل، أعلم.

لمح (آدم) قدوم عربة نحوهم، فنظر إلى العجوز ليجده في منتصف السلم لكن أفجعه رؤية (داغر) حين نظر إلى العجوز من أعلى قائلًا:

- هيا، أمسكوا بهم، إنهم يهربون.

بدا أحدهم يستعمل السلم الذي يحاول العجوز اجتيازه، فأربكه حتى ظن أنه على مقربة من الأرض وأسقط نفسه، فصرخ (آدم) قائلًا:

- لاااا.

ثم ركض وكذلك الجرثومة صوب العجوز ليجداه حيًا يتألم لسقوطه على رجله.

كاد (آدم) أن يتكلم حتى فوجئ بالعربة التي لمحها تقف أمامه ليقول السيد (زهير) في عجلة:

- هيا أسرعوا.

ابتهج (آدم) واتكأ العجوز عليه ليصعدوا إلى العربة حينما وصل رجال (داغر) إليهم، فصاح (زهير) قائلًا:

- أيها الجندي، اخترق الحدائق الخلفية.

امتثل الجندي للأمر وانطلق مسرعًا، فلم يستطع رجال (داغر) اللحاق بهم، وصاح أحدهم قائلًا:

- لنخبر السيد (داغر).. لن نستطيع اللحاق بهم ركضًا.

كادوا يفعلون هذا حتى فاجأهم (داغر) على جواده، ومن ورائه جماعة من رجاله، وصاح قائلًا:

- أين هم؟

أجاب أحد رجاله:

- سيدي، لقد جاءت عربة حملتهم واخترقوا الحدائق الخلفية.

فقال (داغر) بعدما أشار إلى رجاله ليلحقوا بالعربة:

- يا لهم من أغبياء!

في العربة بدا الأمر متوترًا لقول العجوز الذي يتألم:

- الحدائق الخلفية ليس لها باب، منتهاها الأسوار يا سيد (زهير).

أجاب (زهير) مبتسمًا:

- يبدو أنك أصبحت طاعنًا في السن حقًا أيها العجوز!

ظلت العربة تسير في المكان الممهد للسير بعيدًا عن الزرع حتى صاح (زهير) قائلًا:

- أيها الجندي، عند حديقة الأشجار القصيرة، انحرف داخلها.

- سأفعل يا سيدي.

كان (داغر) علي مقربة منهم إلا أنه لم يرهم حتى صاح قائلًا:

- فرقوا جماعات في الحدائق، لا مخرج لهم ولا سبيل غير الاختباء، اقتلوا أي أحدٍ منهم يقاوم عدا (الجرثومة صفر).

وبدأ صياحه في الخلاء يصل صداه إلى الهاربين في العربة، فقال (زهير):

- لا تقلقوا.. سننجو.

سأله (آدم) غاضبًا:

- لماذا؟!

أجابه (زهير) في هدوءٍ قائلًا:

- لماذا سننجو؟!

- أجل، ما الفائدة من هذه الحياة إن كانت تعج بالهواء الفاسد؟!

- حسنًا، فلنبحث عن مكانٍ نقي.

كاد (آدم) أن يجيب غير أن العربة توقفت وفتح الجندي الباب ممسكًا بشعلة نار كانت

تضيء له الطريق المعتم قائلًا:

- سيدي، لقد وصلنا إلى الحديقة المقصودة.

فبادر (آدم) إلى مغادرة العربة، تبعته (الجرثومة صفر) واتكأ العجوز على السيد (زهير) حتى تولى الجندي أمره ثم تصدر (زهير) الواقفين قائلًا في همس:

- هيا، لا بد أن تتبعوني.

تسلل (زهير) بين الأشجار القصيرة، وتبعه الآخرون حتى وصل إلى نهاية الحديقة، فوجدوا أنفسهم أمام سور نهائي للحدائق ليقول (آدم):

- هل ترغب أن نتسلق السور؟

أجاب (زهير) دون أن يلتفت إليه مخرجًا خنجره من ثيابه:

- أرجو ألا نلجأ إلى هذا الاقتراح، وأكون قد أصبت الهدف.

ثم أخرج قطعة خشبية رقيقة قائلًا في حماسة:

- ها نحن ذا.

ثم أخرج مفتاحًا كبيرًا من جيبه واستعمله ليفتح بابًا خشبيًا مستترًا في زي حائط، فقال (آدم):

- تبًا! هذا البيت لا يوجد فيه شيء على حاله!

نظر إليه (زهير) قائلًا:

- أسرعوا بالخروج، أيها الجندي، أعطني الشعلة.

maktabbah.blogspot.com

ولما اطمأن لخروجهم، ألقى الشعلة في الحديقة لتحترق وخرج مسرعًا ثم اتجه صوب عربة أخرى، بدا أنها تنتظرهم وركبوا جميعًا لينطلقوا.. بعد مدة يسيرة، توقفت العربة في حديقة منزل عتيق، وحين نزلوا، حدق (زهير) إلى (آدم) متسائلًا:

- هل تدري لمن هذا البيت؟!

زفر (آدم) ثم قال:

- أجل أعلم، إنه لأمي، هكذا قال السيد (يعقوب).

بدا باب البيت مفتوحًا، والضوء يفصح عن وجود حركة داخله، فاتجهوا جميعًا إليه، وظل

الجنديان أمام البيت بعدما أغلق أحدهما بابه.

تفاجأ (آدم) لرؤية (إستير) والتي أسرعت صوبه قائلة:

- هل أنت بخير؟!

- (إستير)! ماذا تفعلين هنا؟!

كادت (إستير) أن تجيب إلا أن صوت أقدام تهبط على الدرج، قطعت حديثهما، وخصوصًا أنها لم تكن لشخص عادي بل كان الملك (ألكسندر) وحين انتبه العجوز الذي كان جالسًا على آخر الدرج، حاول النهوض حتى أوقفه الملك بعدما فطن أن شيئًا ألم به قائلًا:

- ماذا أصابك أيها العجوز؟!

- لا شيء يا سيدي، سأكون بخير.

زفر الملك ثم جلس إلى جوار العجوز بعدما ألقى نظرة عابرة على الجميع قائلًا:

- اجلسي يا (أفين) بجوارنا لتتضح لهم الصورة.

نظر (آدم) إلى (إستير) في دهشة ثم تفاجأ بذهاب (الجرثومة صفر) صوب الملك، فقال (زهير):

- (ألكسندر).. ماذا تفعل هنا؟! ماذا لو تتبعك أحدهم؟!

أجاب الملك قائلًا:

- لا تقلق، لم يتتبعني أحد، لكن هذا المكان لن يمثل الأمن لمدة طويلة.

زفر (آدم) ثم قال:

- لا أفهم أي شيء! هل يشرح لي أحد السادة ما يجري هنا؟! ويخبرني أين أبي؟!

أجاب (زهير) قائلًا:

- ماذا تريد أن تعلم؟!

قال (آدم) مشيرًا إلى (الجرثومة صفر):

- من تكون لتثير كل هذه الضجة؟! من تكون ليصبح أمرها سرًّا؟! من (أفين)؟!

أجاب الملك قائلًا:

- أنا أجيبك يا سيد (آدم).. (أفين) بلغة السادة والعامة تعني (الجرثومة صفر) وبلغة السيد

(يعقوب) تعني الأمانة، وبلغة (زهير) تعني ضحية الجريمة، وبلغة العجوز تعني الحياة، أما لغة السيدة (ليما) والملكة، فتترجمها (الفرصة الذهبية).. لكن إذا بحثت عن المعنى الحقيقي للاسم، فإنه يعني (الحب).

ثم زفر الملك ليردف قائلًا:

- في أحد الأيام، كان هناك رجل أبيض البشرة قد التقى جرثومة، لم يكن هذا اللقاء طبيعيًا كما نعهده، بل كان لقاء قلبين لم يفرقا بين اللون أو المكانة، ذاب كل شيء حين التقيا لكن القانون والسادة لم يوافقوا أبدًا، ولأن الضحية دائمًا تكون الجرثومة، فقد لقت مصرعها، أما الرجل، فهو يحدثكم الآن عن تلك الأعجوبة، وأما (أفين) فهي نتاج هذا اللقاء، هي (الجرثومة صفر) وهي الأمانة التي تحملها صديق وفي، وهي ضحية جريمتنا كما يقول (زهير) وهي الحياة بالنسبة للعجوز لأنها حفيدته، وهي الفرصة الذهبية ليتخلصوا من الملك ويستولوا على العرش لأنها بلغتي أنا (ابنتي).

ضحك (آدم) ثم قال في ثبات:

- أعتذر يا سيدي، لم أكن...

قاطعه الملك قائلًا:

- لا عليك.

قالت (إستير):

- لا أصدق أن أمي ستفعل هذا!

أجاب (زهير):

- بل يحق لها هذا.

سأل العجوز محدقًا إلى الملك:

- هل انتهى الأمر يا سيدي الملك؟!

- الجواب لدى (زهير).

قال (زهير):

- كلا، كل شيء سيكون بخير لكن خارج هذه الجزيرة.

سأل (آدم) قائلًا:

- إلى أين؟!

- إلى أي مكانٍ آخر، يتسع لنا جميعًا.

قالت (إستير):

- لكننا كنا ندافع عن هذه الجزيرة ونخشى أن يأتينا الطغاة، ماذا يحدث لو ارتحلنا نحن إليهم؟!

زفر الملك ثم قال:

- فلتبقوا في البحر، إن جاءتكم أنباء بأن الوضع أصبح أكثر أمنًا، فلا بد أن تعودوا، وإن لم يأتكم فلترحلوا.

قال (آدم) في غضب:

- ولماذا لا نبقى، وندافع عن أنفسنا؟!

أجاب الملك قائلًا:

- إذا كان الملك لا يملك شيئًا لنفسه، فكيف تضمن ذلك؟!

- إذا كان المقصود هو (الجرثومة صفر) فلنخفيها حتى تستطيع أن تعود إلى سيطرتك من جديد.

- المعضلة لا تركن عند (أفين) فحسب، الموضوع أثقل من ذلك.

- كيف؟!

قال (زهير):

- (ليما) و(ديودتشي) لن يتركا الأمر يا (آدم).

- فليأمر الملك بقتلهما كي نشعر بالاستقرار، ماذا يفعل اثنان بالملك؟!

أجاب الملك:

- جميع رجالي في الجيش، ما بين ميت ومأسور، والبقية خاضعة لـــ (ديودتشي).

- الشعب سيقف بجواركم يا سيدي.

- كلا، لن يحدث ذلك.

- لماذا؟!

وقف الملك غاضبًا ثم قال:

- لأنك لو أخفيت (أفين) لن تستطيع إخفاء (أركان).

قال (آدم) في دهشة:

- (أركان)!! أخي؟!

أجاب (زهير) قائلًا:

- كلا، إنه مثل (أفين) تمامًا.

قالت (إستير) في ذهول:

- هل، هل تقصد أنه أخي أيضًا؟!

أجاب الملك قائلًا:

- أجل.

- كيف؟!

- لا شأن لكم بهذا.

ضحك (آدم) ثم قال:

- لا شأن لنا! سيدي، نحن من ندفع الثمن الآن!

- ربما لن يلحق (إستير) أذى إن بقيت، لكن أنت و(أفين) فلن يحدث.

- وما علاقتي بهذا؟!

أجاب (زهير) قائلًا:

- إن أمسكت (ليما) زمام الأمور، فلن تتواني في إلحاق الأذى بك، وكذلك الملكة، ليس لشخصك لكن لأنك ابن (يعقوب).

- ابن (يعقوب)! حقًا، وأين هو إذًا؟!

- لا أحد يعلم حتى الآن.

قال الملك:

- لن أجبر أحدًا على الرحيل لكن أتمنى أن ترحلوا جميعًا.

قاطعهم صوت قرع الباب، فقال (زهير):

- ما الخطب أيها الجندي؟!

أجاب صوت من الخارج:

- سيدي، إنه السيد (فلو) يستأذن للدخول.

دخل السيد (فلو) وتقدم صوب الملك ثم انحنى قائلًا:

- سيدي.. أنتظر أوامرك.

سأل (زهير) من خلفه:

- هل نفذت ما اتفقنا عليه يا (فلو)؟!

- أجل يا سيدي، السفينة جاهزة، يوجد على متنها نفر من الجنود البحارة ومؤن تكفي مدة طويلة.

نهض الملك ثم اتجه صوب (فلو) ليصافحه قائلًا:

- أنا حقًّا أشكرك يا سيد (فلو).. يمكنك أن ترحل معهم إن شئت.

- إلى أين يا سيدي؟!

أجاب الملك قائلًا:

- فلتسأل الراحلين إذًا.

انحنى (فلو) قائلًا:

- سأفعل يا سيدي.

رجع الملك بضع خطوات للوراء ليمسك بيدي (الجرثومة صفر) ثم ضمها إليه قائلًا:

- أعتذر عن كل ما ألم بك جراء أفعالي، لكن ربما يشفع لي حبي لك ولأمك، أرجو لك السلامة، تذكري دائمًا أنك (أفين) ولست (الجرثومة صفر).. لقد تأخر وقت إعلان الحقيقة لكن هذا لحمايتك.

أجهشت (الجرثومة صفر) بالبكاء، فجفف الملك دموعها قائلًا:

- لا بد أن تكوني قوية.

ثم تركها واتجه نحو (زهير) ليصافحه قائلًا:

- قم بحماية ابنتي يا (زهير).

- لا بد أن تأتي معنا يا (ألكسندر).

- لقد سئمت الهروب، جاء وقت الحساب يا صديقي، لو أن ابنتي في خطر، فولدي أيضًا في خطر أكبر.

- ستكون الخاسر الوحيد يا (ألكسندر).

ابتسم الملك قائلًا:

- هون عليك، هذا سيريحني.

حاول الملك أن يجذب يده خشية أن يغلبه الدمع المحبوس في عينيه لكن (زهير) جذبه إليه وضمه ثم بادر الملك بالانسحاب واتجه صوب (إستير) - التي ارتمت بين ذراعية باكية - قائلًا:

- سأشتاق إليك كثيرًا يا (إستير) لكنه خيارك، لا أعلم كيف تنظرين إلي الآن! لكن لا بد أن تعلمي أني أحبك.

ثم أزاحها عن صدره ليردف قائلًا حين وضع وجهها بين كفيه:

- (إستير).. عديني أن تساندي أختك (أفين).. هل ستفعلين؟!

- أجل أعدك.

- لا بد أن تكوني قوية.

ثم تركها الملك لينظر إلى (آدم) لكنه تذكر العجوز، فرجع إليه ليصافحه قائلًا:

- أتمنى أن تغفر لي وقاحتي طوال هذه السنوات أيها العجوز.

نظر إليه العجوز قائلًا:

- أنت أب طيب لكن نظام ملكك كان فاسدًا بما يكفي لنهاية كل طيب لا يصلح له حتى لو كان الملك ذاته.

جذب الملك يده قائلًا:

- صدقت أيها العجوز.

ثم نظر إليهم حتى تخطى (آدم) الذي يقف على مقربة من الباب ثم التفت إليهم قائلًا:

- حتى لو استقر الوضع هنا، أنصحكم ألا تعودوا، أبحروا إلى مكانٍ يحتويكم جميعًا، خوضوا المغامرة بروح مرحة وألقوا كل ما يؤرقكم هنا خلف ظهوركم، لكن أرجو ألا تنسوني، أتمنى لكم رحلة أكثر أمنًا.

كاد أن يغادر لكنه رجع صوب (آدم) وأمسك يده قائلًا:

- تعال معي.

انساق (آدم) لذلك، وتبع الملك المطبق على يده حتى أصبحا خارج البيت، فأفلت يده حين اتجه إلى الجنديين اللذين ينتظران خروج الملك ثم قال:

- هيا، فلنرحل.

امتثلا الجنديان لأوامر الملك وركضا صوب العربة أمام البيت، فهم أحدهما بفتح الباب، وكان الآخر واقفًا بجوار الجوادين، كاد الملك أن يتحرك لكنه نظر إلى (آدم) قائلًا:

- هيا يا سيد (آدم).. تعال معي، إن عثر عليك أحد الناقمين علينا، فستصبح في خطر خصوصًا أن مكان (يعقوب) مجهول.

حدق إليه (آدم) في دهشة، فابتسم الملك قائلًا:

- ألا تريد البقاء؟!

أجاب (آدم) في يأس:

- لا أدري!

- إنك تريد أن تجبر على هذا لتسوغ لنفسك أنك تعاني.

- ماذا؟!

- اسمع يا (آدم).. أنت تحدث نفسك سرًا، وتتساءل: «ما ذنبي لأتحمل نتائج أفعال رجلٍ آخر؟ ما ذنبي الذي اقترفته لأعيش طوال حياتي في مكانٍ فاسد؟ لماذا لا أعيش في هدوء؟! أعمل ما أحب وأتزوج من أحب، لماذا أدفع ثمن اختيارات أبي؟!» أليس كذلك؟!

كاد (آدم) أن يجيب لكن الملك أردف قائلًا:

- لا، لا تجيب، أنا أفعل عوضًا عنك لأنني ما زلت أسأل الأسئلة نفسها يا (آدم).. لقد حلمت بحياة هادئة، أعمل فيها ما أحب وأتزوج من أحب ولا أدفع ثمن أخطاء أبي وأجدادي، عشت تائهًا حائرًا طوال حياتي، قررت في مرحلة من حياتي أن أبحث عمن تحبني وتتقرب مني

لنفسي لكنني اصطدمت بواقعٍ مرير، لا يمكنني تغييره.

ثم زفر الملك ليردف قائلًا:

- لم يكن لي رفاهية الاختيار في أي شيءٍ إطلاقًا، يعتقدون أن الملك الرجل المرفه الوحيد، فهو يمتلك زمام كل شيءٍ لكن ذلك كان يمثل لي سجنًا، يقف على بابه جندي ليعد أنفاسك، إذا تكلمت فلتتكلم كملك، وإذا أردت أن تبتسم فلتكن ابتسامة ملكية، لو أكلت فلتأكل بطريقة ملكية، أن تتزوج بأمرٍ ملكي يليق بالملك المنتظر، حتى الأنفاس المتطايرة منك، لا بد أن تكون ملكية.

قاطعه (آدم) قائلًا:

- جاءتك الفرصة لتغيرها، فقد ملكت زمام الأمور.

ضحك الملك ثم قال:

- أن ترغب في حياةٍ مختلفة، فهذا يتعلق بشخصك، أما إن أردت أن تغير حياة وعادات وتقاليد الآخرين، فلن تستطيع حتى لو كنت ملكًا، فستصبح مهمتك، الحفاظ عليها، أما إن كان من يتولى زمام الامور، يزفر فسادًا، فإن المعركة ستكون مع ذاتك لتبقى على قدرٍ قليل من الإنسانية.

قال (آدم):

- لكن...

فقاطعه الملك قائلًا:

- دعك من هذا الامر، فقد حدث ما حدث، كنت صائبًا أم لا، فلن تستطيع أن تغير أي شيء، الآن لا بد أن تختار، ولو كنت مكانك لما ترددت في الهرب إطلاقًا، وليتني فعلت حينما كنت شابًا ناقمًا مثلك، ولتدرك يا (آدم) نتيجة المغامرة والثرثرة بالتغيير و... و... قد أثبتت فشلها في هذا المكان، وها أنا ذا أمامك مثال.

- ماذا عن أبي؟!

- لا تقلق على (يعقوب) إطلاقًا، فقد عاش حياته يحاول إرضاء الجميع، يحاول كسب جميع المواقف، إنه رجل وفي، أظنه الوحيد الذي سيكون بخير، فإن تولى (أركان) زمام الامور فسيحفظ حمايته له ولأمه طوال هذه المدة، وإن كان ولي العهد، فستحفظ له الملكة وقوفه بجوارها لتتزوج بي كما أمر والدي الملك.

- ستدعهم يتصارعون على الملك!

- لم يعد لي رفاهية الاختيار.

- تستطيع يا سيدي، أن تنهي (ليما) و...

قاطعه الملك قائلًا:

- ليعتزم (أركان) على القصاص مني، وحينها ستكون النتيجة نفسها، سيقدم أحدهما على إنهاء الآخر.

- سيدي، هل ستكون بخير؟!

- أجل، الآن أختار يا (آدم).. اخترت أن أكون أبًا، وكل ما يعنيني الآن، الحفاظ على أبنائي وليس ملكي.. أتمنى لك حياة سعيدة خارج هذا السجن، وأتمنى أن تحافظ على ابنتي إن أردت هذا.

ثم مد الملك يده للمصافحة، فقال (آدم):

- سيدي، إن لم تستطع أن تكون ملكًا صالحًا، فأنت أب، يتمناه الجميع.

ابتسم الملك ثم اتجه نحو العربة والتحق بها ليغادر.

كاد (آدم) أن يعود للداخل مرة أخرى حتى تفاجأ بخروج السيد (زهير) الذي اقترب منه قائلًا:

- ظننت أنني وحيد في هذه الجزيرة، لم أكن أعلم أنه سيظهر لي ابن أخت في نهاية العمر!

ابتسم (آدم) قائلًا:

- كيف جهلت هذا الأمر؟!

- لأن حياة المغامرة أخذتني بعيدًا.

- مغامرة!

- أجل، عندما تزعمت صد المغيرين علينا بأسلحة لم نعهدها من قبل رغم قلة أعدادهم.

- حلمت أن أصبح مثلك عندما أكبر لأغوص في أعماق هذا البحر الممتد من حولنا.

- جاءتك الفرصة لتفعل هذا، لأرافق ابن أختي.

- كيف كانت؟!

كاد السيد (زهير) أن يجيب لولا سماع صوت فتح الباب من خلفهم وخروج السيد (فلو) ثم تبعته الجرثومة صفر (أفين) حين اتكأ عليها العجوز، وخلفها (إستير).. فقال (فلو):

- سيدي، ينبغي أن نسرع، سنبحر من الجهة الشرقية.

أجاب (زهير) في دهشة:

- لماذا؟ سيكلفنا هذا وقتًا طويلًا!

- سيدي، لا يمكننا أن نبحر أمام أعين الجنود في الميناء، فسيفضح أمرنا ويسهل عليهم تتبعنا والإمساك بنا جميعًا.

أومأ (زهير) قائلًا:

- حسنًا، فلنبحر في اتجاه غير معهود، هذا سيكون أكثر أمانًا من طريق الطغاة، لكن هل سترافقنا يا (فلو)؟!

- لا يمكنني أن أترك (شيار).

- حسنًا، أشكرك...

قاطعه (فلو) قائلًا:

- لا يا سيدي، لم أكن أقصد هذا، بل أقصد أن (شيار) تنتظرنا في السفينة، أرجوك أن تصحبنا.

- لا بأس، كلما زاد عددنا كان أفضل.

- هناك عربتان يا سيدي، أمام بوابة البيت الخارجية.

- حسنًا، هيا فلتبدأ رحلتنا.

تصدرهم (آدم) وتبعته (إستير) لتسير معه، خلفهما العجوز يتكئ على (الجرثومة صفر) ومن ورائهم السيد (فلو) والسيد (زهير) تاركين خلفهم معركة ضارية ضد الملك غير أن ذلك لم يكن يؤرقهم جميعًا، فبدت رهبة المغامرة والخوف من الغد غير المتنبأ بملامحه، ورجفة قلب تعزف على أوتار الفراق، وهزة عقل يخشى التغيير، والكثير من الأفكار والمشاعر المتناقضة في داخلهم، حتى السيد (فلو) والسيد (زهير) بدا القلق في أعينهما لأن هذه المرة الأولى التي يقتحمون فيها البحر في عشوائية، لن يكون لهما سبيل للرجوع مرة أخرى، غير

أن ذلك كله كان سبيل الأمان من النيران المشتعلة خلفهم.

* * * *

(15)

في اليوم التالي، بدت الشمس مرسلة على استحياء بعض أشعتها الملتهبة لتساعدنا على رؤية بضعة مشاهد رغم حدوثهن في جنح الليل خفية، فبدا كل مشهد يتوارى من الآخر ليعلن هذا الفائز من بين هذه الأنفس المتناحرة والذين اجتمعوا في مشهدٍ واحدٍ رئيسي، يتأهب للحدوث ليعلن نتيجة هذه المشاهد الليلية، تتصدر المشهد، الملكة الذي يزين التاج رأسها جالسة في شموخ، إلى اليسار منها تجلس السيدة (ليما) دون تاج لكنها تبدو عازمة على اقتناصه اليوم من الملكة لأنها تجلس في ثباتٍ وثقةٍ مفعمة بالحماسة، تتدلى من عينيها المتعطشتين لرؤية ما سيحدث للملك الذي أعدت هذه الحشود من العامة والسادة من أجل ما أشيع حول مقاضاة الملكة لرجلٍ نبيل من العائلة الملكية، فتوافد السادة والعامة بغزارة غير معهودة من قبل على مثل هذه المحاكمات، فبدت المقاعد غير كافية لاستيعاب السادة، فظل العشرات منهم وقوفًا خلف المقاعد ليشاطروا العامة من خلف صف من الجند تلك الحماسة لرؤية تلك المحاكمة الملكية، وعلى الرغم من هذه الحشود إلا أن الهدوء بدا مسيطرًا على الموقف، وحدقت العيون إلى السيد (ديودتشي) الذي صعد لتوه إلى المنصة وبرفقته اللورد (وافي) و(أركان) - ابن السيدة (ليما) - ثم جلسوا على المقاعد المعدة لمن يتولى زمام المحاكمة، بدا الجميع مترقبًا بدء المحاكمة إلا أن هذا لم يحدث، فعادت الأصوات الهامسة من جديد، وبدت الملكة أول من تسرب إلى داخلها القلق، فاتجهت نحو (ليما) هامسة:

- لماذا تأخر (ألكسندر)؟ أخشى ألا يأتي!

أجابت (ليما) في ثقةٍ قائلة:

- أيتها الملكة، ينبغي أن تثقي بي أكثر من ذلك، تذكري فقط ما وعدتك به، فعندما أقول شيئًا، لا بد أن يحدث.

بدت الملكة شاردة على إثر هذه الكلمات مستقبلة أول المشاهد:

حيث دخلت غرفة كبيرة - يبدو أنها تنتمي إلى أحد القصور الفارهة فوق هذه الجزيرة - وقد بدا أنها غرفة مكتب، تقف (ليما) ناظرة من إحدى نوافذها ليسيطر عليها الشرود ثم استفاقت حين سمعت صوت غلق بابها، فالتفتت منحنية لرؤيتها الملكة التي التقطت أنفاسها ثم أسرعت إليها (ليما) وأمسكت بيديها قائلة:

- أيتها الملكة، هل أنت بخير؟

- أجل.

ثم أفلتت يديها وصرخت لتحاول منع دموعها من السقوط قائلة:

- لاا، لاا.. لست بخير.. (الجرثومة صفر) ما زالت تعكر صفو حياتي، ظننت أنني ربحت لكنها باتت عنيدة للحد الذي تبقى فيه حية في العشرينيات.

فطنت (ليما) لما تسمعه لكنها حاولت إخفاء هذا، فقالت في مكر:

- ماذا؟! كيف هذا يا سيدتي؟! لقد أنهيتها بيدي هاتين، ألا تذكرين ذلك؟! سيدتي، يبدو أنك مرهقة و...

قاطعتها الملكة حين جلست قائلة:

- ابنتها، كنت أتساءل عن سبب بناء هذا البيت.

ثم زفرت لتردف قائلة:

- لقد بناه لتشاركني ابنتها ملكي.

- تبًا! ابنتها! هذا يعني أن الملك أراد أن...

صمتت (ليما) فرمقتها الملكة قائلة:

- ماذا أراد؟!

- أراد أن يخدعنا جميعًا.

ثم ضحكت قائلة:

- ربما قام بتقديمها للمجتمع، وأعلنها ابنة له، وربما ما هو أكثر.

- لا يستطيع.

- ما الذي يقلق الملكة المتسامحة إذًا؟!

- لا تسامح بعد اليوم، ولو غفرت للجميع، فلن أغفر لتلك اللعينة وابنتها! فلتقتل كما فعل بأمها، لنحرق البيت بمن فيه جميعًا، هؤلاء الخونة!

- هذا أمر يسير، لكن...

- ماذا؟!

- هل سيعتبر الملك هذا أمرًا عاديًّا؟!

- ماذا تعنين؟!

- (الجرثومة صفر) كانت أمرًا شاذًا، وكان لا بد أن يقضى عليها، لكن ابنتها هي ابنة الملك الآن، فهي عنده مثل (إستير) تمامًا.

ثم جلست أمام الملكة لتردف قائلة:

- سيقضي الملك علينا جميعًا، ولن يتردد.

- هل تريدين أن أتركها؟!

- إطلاقًا، تركها يهدد العائلة بأسرها، ماذا لو علم السادة بأمرها؟

نهضت (ليما) واتجهت لتقف خلف الملكة ثم وضعت يديها على التاج ونزعته من رأسها قائلة:

- هذا ما سيحدث، سيصبح الأمر هينًا لكل الطموحين والناقمين والطامعين لينالوا هذا التاج، ما انتظرته طوال هذه السنوات، سيضيع هباءً.

بدت الملكة مقتنعة بهذه الكلمات، فقالت في وهن:

- وماذا أفعل؟!

- فلتعزل الملكة الملك وينتهي الأمر، أنت تنتظرين منذ سنوات ليعتلي ولي العهد الملك. وتتملكين زمام الأمور، ما فائدة الانتظار إذا أتتك الفرصة الآن لتقتنصي حلمك وتنتقمي في آنٍ واحد؟!

- ألن يقوم الناقمون باستغلال الوضع؟

- لن ندع الفرصة لأحد ليفعل، أنا معك والسيد (ديودتشي).

ثم أعادت التاج على رأسها لتردف قائلة:

- وما دمت معك، فلا داعي للقلق.

استفاقت الملكة من شرودها، وتفاجأت أن (ليما) ما زالت شاردة، لم تنتبه هي الأخرى لهذا حتى قالت الملكة:

- (ليما).. هل أنت بخير؟!

انتبهت (ليما) فقالت في تردد:

- لا، لا شيء، لا تقلقي، كل شيء سيسير حسبما خططنا.

- أين (الجرثومة صفر) إذا؟! لمَ لا أراها؟!

- إنها في قبضتنا، حين يصل الملك ستمثل أمامكم.

يبدو أن الملكة قد استحسنت هذه الكلمات، واكتفت بإيماءة.

كادت (ليما) أن تتابع شرودها حتى قاطعتها (رتاج) - زوجة ابنها - التي تجلس بجوارها قائلة في همس:

- ماذا ننتظر؟! لم أعد أتحمل!

- أيتها البلهاء، تحدثي في ثبات.

- ترى ماذا قال لك الملك أمس عندما انفرد بك؟! أعني ربما تأخره يفصح عنه شيء مما قاله، أخشى أن يفاجئنا!

قالت السيدة (ليما) في حنق:

- اصمتي وترقبي ما سيحدث فقط وإلا سأحسب رأسك هذه مع الرؤوس الأخرى المتطايرة اليوم.

أومأت (رتاج) واكتفت بقول:

- حسنًا، حسنًا.

بدت السيدة (ليما) متوائمة مع ما قالته (رتاج) فقالت سرًا: «ما قاله الملك.»

ثم استعادت المشهد ذاته الذي أرادت (رتاج) أن تعرف تفاصيله، علها أرادت أن تنفرد به للمرة الثانية:

بدت فيه متفاجئة بدخول (ميساء) إحدى غرف منزل السيد (يعقوب) دون أن تقرعها، فإذا بالسيدة (ليما) التي تتصدر الغرفة - والتي بدا أنها غرفة للطعام لكنها تحولت إلى غرفة للاجتماعات أو المؤامرات - تصيح في غضب قائلة:

- ما هذا يا (ميساء)؟!!

كادت (ميساء) أن تجيب غير أن صوت الملك قاطعها قائلًا:

- هذا أنا.

انحنت (ميساء) ثم تنحت جانبًا، اتجه الملك صوب المقعد المقابل لـ (ليما) وجذبه ثم جلس ليقول محدقًا إلى السيد (ديودتشي) الذي كان جالسًا على يمين السيدة (ليما):

- هل قمتما بنزع التاج من رأسي دون علمي، أم أنني قطعت مخططاتكما للنيل من هذا الهدف؟!

يبدو أن (ديودتشي) فطن لقول الملك، فهب واقفًا لينحني قائلًا:

- سيدي الملك، اغفر لنا هذا، فإن تشريفكم لنا في منزل السيد (يعقوب) وابنه زوج ابنتي لهو شرف، لا يمكننا استيعابه.

كاد الملك أن يجيب غير أن (رتاج) - التي فعلت مثلما فعل أبوها احترامًا للملك - قالت:

- سيدي الملك، أرجوك، أرغب أن أقدم لكم بعض...

كادت أن تردف غير أن الملك أوقفها بقوله:

- لا بد أن تنصرفا، أود الحديث إلى السيدة (ليما).

يبدو أنهما امتثلا لأمر الملك، وهما بالخروج حتى أوقفهما صوت الملك قائلًا:

- سيد (ديودتشي).. قد لا يتسنى لي أن أحظى بشرف مقابلتك مرة أخرى لأسألك عن شيءٍ يحيرني.

التفت (ديودتشي) إلى الملك، وابتسم ابتسامة، يغلب عليها المكر قائلًا:

- تحدث يا سيدي.

- جميع من يحاولون الإطاحة بي، أفهم موقفهم جيدًا، إن لهم المسوغات والحجج المنطقية، لكن ماذا يكون مسوغ رجل مثلك ليفعل هذا؟! ما الذي تطمح إليه في مثل هذا العمر؟!

- سيدي، أنا لا أفهم!

- لكني أفهم.

ثم أشار بيده لينصرفا.

ارتبكت (ليما) لنظرات الملك إليها، فصاحت قائلة:

- (ميساء).

التفتت إليها (ميساء) وكادت أن تتكلم لكنها بادرت قائلة:

- اقتربي من الباب، لا تبتعدي.

زفر الملك ثم ابتسم ساخرًا مما سمع، وقال:

- أتخافين؟! إنها لأضحوكة!

- كلا، أنت لا تخيف أيها الملك، فقط أخشى أن يسمع ابني (أركان) ما ستقوله.

- ألم تخبريه الحقيقة بعد؟! أتمنى أن يكون له رأي مخالف لك عندما يعلم.

- أنا أخاف على ولدي أكثر من أي شخص آخر، ولذلك لم أخبره بعد لكن أعتقد أنه قد حان الوقت، لا ليعلم فقط بل ليأخذ حقه المهدور طوال هذه الأعوام.

بدت علامات الاستنكار على وجه الملك، فقال في غضب:

- عن أي حقٍّ تتكلمين؟!

- أنت تتناسى يا (ألكسندر).. تناسيت أنه كان يجب أن أكون الملكة وولدي هذا هو ولي العهد، لولا ما فعلته، ما وصلنا إلى هذا أبدًا.

- كلا، أمثالك لا ينبغي لهم أن يرتقوا إلى مثل هذه المكانة، وما فعلته كان صائبًا، ولولا أن قدر لك أن تنجبي طفلًا، ينتمي إلينا، ما بلغتِ ما بلغتيه الآن مهما فعلتِ.

بدا وجه (ليما) متوائمًا مع الحزن أكثر من الغضب، فقالت حين حاولت ألا يسيطر عليها، فيبدل قوة صوتها لنبرة يملؤها الضعف ورعشة جسد تسيطر عليها حين تقدمت برأسها إلى الأمام، ونظرت نحو الأسفل خشية أن يغلبها الدمع، فقالت لاهثة:

- منذ أن تركتني وفعلت ما أمره والدك الملك بأن تتزوج غيري، وأنا أتساءل: لماذا؟! ظننت حينها أنك تخشى أن يضيع منك الملك، لكن بعد (الجرثومة صفر) أيقنت أنني ما زلت أجهل السبب.

رمقها الملك قائلًا:

- حقًّا تتساءلين؟!! هكذا نحن البشر، نحاول دائمًا أن نهرب من حقيقتنا، وحقيقتك التي عرفتها هي من أبعدتك يومًا عما تسعين إليه الآن.

صاحت (ليما) في غضبٍ قائلة:

- أنت الذي لم تفِ بوعودك لي!

- ذاكرتك هشة للغاية، لقد طلبت منك أن نترك الجزيرة ونرحل سويًا لنحفظ حبنا بعيدًا عن الملك، لكنك أنت من رفضتِ، قلتِ في هدوء: «فلتتزوج من رغب فيها الملك، وبعد

وفاته، تعلني زوجة رسمية» لتصبحي ملكة، أنا لم أعنيكِ إطلاقًا، ولو كنت أحد العاملين بالقصر مثل والدك، ما نظرتِ إلي حتى، وهكذا ولدك.

زفر الملك ثم أردف قائلًا:

- تزعمين أنك تخافين على ابنك، كلا، أنت تخافين على نفسك وحلمك بأن تكوني السيدة الأولى، لا بأس، إن لم تصبحي الملكة كزوجة، فلتصبحي كأم، يا للوضاعة!

حاولت (ليما) أن تقول في ثبات:

- على الأقل لست في وضاعة (الجرثومة صفر) وما طمحت إليه من حق.

كادت أن تكمل لكنه قاطعها في غضبٍ حين قرع بكلتا يديه المنضدة قائلًا:

- من تكونين لتقارني نفسك بـ (الجرثومة صفر).. أتظنين أن الفارق بينكما هو اللون؟! لقب الملكة لم تكن تسعى إليه بل هو من كان يطمح لأن ينال هذا الشرف، عله يغفر له بعض نواقص الدهر الذي أصابته بفعل أمثالك، ولو أن الناس تعقل لرغبت في توليتها زمام الأمور محلي أنا.

ثم أرخى ذراعيه وأعاد ظهره للخلف قائلًا:

- لقد كانت تحمل قلبًا يتسع للجميع و...

صمت الملك مبتسمًا كأنما يراها حقًّا ثم قال خشية أن يتساقط الدمع من عينيه:

- تظنون أنكم قتلتوها، لكنكم لا تعلمون أنها ترافقني في كل مكانٍ أذهب إليه، انظري، إنها تقف بجوارك.

فزعت (ليما) لما سمعت، ونظرت إلى يمينها ثم رمقته قائلة:

- يبدو أنك فقدت عقلك!

ابتسم الملك ثم قال:

- كلا، ما العجيب فيما أقول؟ أنتم قتلتم (الجرثومة صفر) لكنكم لم تقتلوها في قلبي، لا تزال حية معي في كل مكانٍ أذهب إليه، ولولا أنني أشعر بوجودها لاقتصصت منكم جميعًا.

صمت الملك برهة ثم نظر إلى (ليما) التي حدقت إليه ليردف قائلًا:

- سأفصح لك عن حقيقة، لا يمكن أن يدركها أمثالك، البعض يكفينا منهم ذكرى مرورهم في حياتنا، إنها تكفي لنبقى طوال حياتنا ممتنين لهم، حتى وإن كانوا عابرين، هؤلاء أنت

وأمثالك، لا تلحظونهم حتى وإن التقيتم لأنهم يفعلون ما يفعلون دون أن ينتظروا حتى كلمة شكر، أما تجار العلاقات، فإنهم يحسبونها جيدًا حتى الكلمات المتطايرة من أفواههم، فإن كلمة إطراء واحدة منهم، يريدون مقابلها قصائد من المدح والثناء، لهذا لا يمكنهم أن يشعروا بمدى روعة البعض لأنهم يفكرون فيما سيجني من ورائهم فحسب.

تبدل وجه (ليما) وقالت في حنق:

- تجار العلاقات! هل تعني أنك لم تكن تحبني؟!

- أما زلتِ تتساءلين؟! هناك فارق بين أن تتوهم أنك تحب وبين أن تحب حقًا، ولا أخفي عليك أنه لولا هذا الوهم، ما شعرنا بمدى روعة الحقيقة مهما جنينا من قسوتها.

صاحت (ليما) غاضبة:

- ماذا تريد الآن يا (ألكسندر)؟!!

- لا أريد شيئًا، أنت من تريدين!

- ما أريده سأنتزعه منك على مسمع ومرأى من الجميع.

- حسنًا، فلتفعلي.

- عجبًا! ألا يثير هذا غضبك؟!

- كلا، أنت تعلمين أن أمر الملك هذا لم يكن يغريني من قبل، ومن بعد، كل ما يعنيني الآن، أبنائي، وها أنا جئت إلى أحدهم.

- ماذا تريد منه؟! هو لن يتأثر بأي كلماتٍ منك، إنه ليس هنا، ولن يعود اليوم.

- أتدرين الخطأ الذي ارتكبته حقًا؟! أني ظننت أن بقاء أمه إلى جواره سيكون عوضًا له عن...

كاد الملك أن يكمل لولا أن قرع الباب ودخول (ميساء) قاطعه، فدخلت وانحنت ثم قالت:

- سيدي الملك، أعتذر عن المقاطعة، السيد (أركان) في الخارج.

أومأ الملك موافقًا، فنظرت (ميساء) إلى السيدة (ليما) التي وقفت فور سماعها هذا، فصاح الملك في غضبٍ قائلًا:

- ماذا تنتظرين أيتها البلهاء؟!

أسرعت (ميساء) إلى الخارج، فدخل (أركان) وانحنى للملك قائلًا:

- أعتذر عن تأخري.

كادت (ليما) أن تكمل المشهد غير أن هذا الجندي الذي وقف لتوه على المنصة، أعلن قائلًا:

- فلينتبه الجميع، فلينتبه الجميع، جلالة الملك سيشرفكم.

ابتهجت الملكة لهذا، وقالت في حماسة:

- جيد يا (ليما).. لقد جاء بالفعل.

ابتسمت (ليما).. ليس لما سمعت، وإنما لما سيحدث ثم أومأت وهمت واقفة مع الجميع إثر ما أعلن عنه عدا الملكة بين الحشود المتجمعة أسفل المنصة و(أركان) على المنصة.

انحنى الجميع للملك الذي صعد لتوه إلى المنصة لكنه لم يعبأ بتلك الرؤوس المنحنية، فنظر إلى يساره ليرى (أركان) الذي حدق إليه هو الآخر، وهم بالوقوف في تأنٍ حين استرجع هذا المشهد بينه وبين الملك، بدا في منتصفه أو في نهايته، عله أراد أن ينتهي كل شيءٍ سريعًا ليربط الحاضر بما أدى إليه من الماضي ظنًا أن ذلك يستعجل مستقبلًا يتماشى مع ما يرغب فيه..

بدا فيه (أركان) جالسًا إلى يمين السيدة (ليما) ينظر أمامه غير ملتفت إلى الملك الذي بدا أنه فرغ من حديثه كله، فقال (أركان) في هدوء:

- أنت تهذي أيها الملك، ورغم هذا تريح ضميري فيما يحدث.

ثم نظر إليه ليردف قائلًا:

- لقد ظننت أنني أغتصب حقًا ليس لي، أما وقد علمت أنه حقي بل أقل من حقي، لقد عشت طوال هذه السنوات ناقمًا على (يعقوب) لأنه يميز (آدم).. أما الآن، فأنا أعذره وأعذر أمي وأقدر كل ما تفعله.

كاد الملك أن يجيب لكن (أركان) أردف في غضبٍ قائلًا:

- الابن الأكبر له الحق في الملك، وأنا الابن الأكبر، ولن أفرط في حقي.

زفر الملك ثم قال:

- أنا لم أنكر هذا، لم أفعل قط، ولو فعلت لأصبحت في عداد الأموات، وما انتظرت هذه اللحظات.

قاطعه (أركان) قائلًا:

- ماذا تريد الآن؟!

- أبنائي، أعني لا أريد أن أفقد أحد أبنائي أثناء صراعهم على هذا الملك.

هم (أركان) واقفًا ثم نظر إلى الملك ليقول:

- من يملك هو من يحكم يا جلالة الملك، وأنا أملك الجيش والملك وأبناءه، والحق أيضًا.

نهض الملك غاضبًا ثم قال:

- ماذا تعني؟!

ابتسم (أركان) ساخرًا ثم قال:

- أما عن الجيش، فهو خاضع لــ (ديودتشي) وجميع رجالك المخلصين قد تبخروا، أما عن الملك، فهو يقف أمامي الآن صاغرًا، يسقط ملكه بين يديّ، يتوسل إلى ابنه الغير رسمي كي يرحم باقي أبنائه المدللين طوال هذه السنوات؛ الأميرة (إستين) وولي العهد، كم انحنيت أمامهما في الماضي! أما عن الحق، فهو ما حفظته لـ (الجرثومة صفر) طوال هذه السنوات، يا للخيبة يا (أركان)! جرثومة عاشت مرفهة طوال هذه السنوات! أما حقي، فسأختطفه غدًا أمام الجميع.

صاح الملك في غضبٍ قائلًا:

- أنت تريد إراقة الدماء فحسب.

- دماء من؟! جميع أبنائك في قبضة يدي الآن، فإن كنت كما تزعم حريصًا عليهم، فلنرى هذا غدًا.

اكتفى (أركان) بهذا، فمال برأسه إلى الأسفل احترامًا للملك ثم وضع الملك يده اليمنى على جبينه ليحدث نفسه قائلًا:

- ما أسوأ أن تقع كرامتك بين أيدي اللئام! يتقاذفونها فيما بينهم كالدمية، يا لقسوة هذا الشعور!

زفر الملك واستجمع شجاعته ثم اتجه نحو الطاولة التي يقف أمامها (أركان) بتوجيه أحد الجنود ليجلس موضع السيد (ديودتشي) الذي تنحى جانبًا إلى يسار الملك، خلفه حارسان، وحين أشار أحد الجنود بيده، اعتدل الجميع وعادوا إلى وضعهم السابق عدا اللورد (وافي) الذي وقف بجوار السيد (ديودتشي).

ترقب الجميع ما يحدث خصوصًا أن الكثير من الجنود التفوا حول مقاعد السادة كي يعود

العامة للوراء أكثر، تنهد الملك حين لاحظ هذا ثم قال هامسًا ليسمعه (أركان) و(ديودتشي):

- لا بد أن ننهي هذه المهزلة، سأعترف بك يا (أركان) وأجعلك ولي عهدي مقابل أن تسلم لي أبنائي.

كاد (أركان) أن يجيب لكن (ديودتشي) قال:

- الأمر ليس سهلًا هكذا، إنك تهذي!

ثم أشار بيده إلى الجندي كي يبدأ.. امتثل الجندي لهذا الأمر وأشار بيده كي يلزم الجميع الهدوء ثم قال في نبرةٍ عالية حتى يتسنى للرجل الذي ينقل الحديث إلى العامة أن يسمعه:

- انتباه، انتباه، يجب على الجميع الإنصات جيدًا لهذا، باسم الملك (ألكسندر) تقام هذه المحاكمة الاستثنائية، نرجو من السادة والعامة الالتزام بالهدوء التام، وألا يغادروا المحاكمة إلا بعد انتهائها.

وحين انتهى من قول هذا، صعد إلى المنصة جنديان يحملان البنادق، ومثلهما وقفا خلف السادة وسط دهشة السادة والعامة على السواء.

همست الملكة إلى (ليما) في دهشةٍ قائلة:

- ما هذا يا (ليما)؟! جنود الحدود الصاعقة! ومن يحمي الحدود؟!

- سيدتي، نحن نستولي على العرش، وكل قوة هذه الجزيرة في هذا العدد المحدود من الصواعق الذي اغتصبناه من الأعداء، إن العرش دون هذه القوة سيؤدي إلى التمرد.

كادت الملكة أن تجيب لكن صوت السيد (ديودتشي) الذي وقف موضع الجندي المعلن أوقفها قائلًا:

- هذه المحاكمة استثنائية، إن لم تكن فريدة من نوعها، وهي بناءً على طلب الملكة، ونحن لا نملك أي أخبار عن مضمونها، لذلك ستخبرنا الملكة، أيتها الملكة.

انتهى (ديودتشي) من حديثه، وبدت الملكة مستعدة لتبدأ إلا أنه قد جال في خاطرها شيء، فجلست مسرعة قائلة في همس:

- (ليما).. لم يأتِ ولي العهد بعد.

- سيدتي، سيأتي في الوقت المناسب.

ثم أشارت (ليما) إلى الملكة لتذهب، وبدا أن الملكة تثق بالسيدة (ليما) فصعدت إلى

المنصة ووقفت موضع السيد (ديودتشي) - الذي عاد إلى مكانه بجوار الملك - فقالت في قلق:

- أيها السادة.

ثم سكنت قليلًا محاولةً أن تستجمع قوتها لتقول سرًّا: «اهدئي.. من أجل ابنك، لا بل لتقتصي لكرامتك التي أهدرت طوال هذه السنوات.»

فأردفت في ثقةٍ قائلة:

- أيها السادة، بل الجميع هنا، ربما تشعرون بالدهشة من موقفي هذا، أو ربما تترقبون أكثر، لا بأس، لكن قبل أن أزيل عنكم هذه الدهشة، أود منكم جميعًا أن تستمعوا جيدًا إلى هذه القصة لتجيبوا على ما سأطرحه عليكم من تساؤلات في نهايتها.

لم تعبأ الملكة بهمس السادة، وأردفت في تأنٍ لتصل كلماتها إلى العامة قائلة:

- كأي فتاةٍ في مقتبل العمر، حدثها والدها عن الزواج بشاب، لا يمكن أن ترفض أي فتاةٍ في هذه الجزيرة الزواج به لأنه ينتمي إلى العائلة الحاكمة، وهذه الميزة تكفي لغض البصر عن أي شيءٍ آخر، ومن ثم لم يكن لديها أي مسوغ للرفض، وبالفعل تم الزفاف بمباركة الجميع إثر مباركة الملك ذاته له، يشوبه قدر من الحسد الطبيعي سواء من الفتيات أو عائلاتهم، لكنهم لو علموا ما حدث بعد ذلك لأشفقوا عليها، لقد ظنت أن الحياة فتحت ذراعيها لتستقبلها كي تلقي تحت قدميها كل مباهجها، ظنت أن طريقها ممهد بالأزهار، ولم تدرك أنها تخفي أسفلها جمرًا، و...

كادت الملكة أن تكمل لكن تحدث أحد الجالسين قائلًا:

- وماذا؟! أيتها الملكة، نرجو الاختصار وعرض الأمر.

بدا الاضطراب على ملامح الملكة لتجوب بعينيها المكان كي تتبين - مع الملتفتين مثلها - هوية المتحدث حتى نهض شاب وانحنى قائلًا:

- عذرًا أيتها الملكة، تعرفين أبي.

ثم أشار إلى رجلٍ يجلس بجواره متكئًا على عصاه، يبدو من لحيته وشعره الذي يكسوه الشيب أنه طاعن في السن، والذي بدا غير عابئٍ بالنظرات المستنكرة لفعله، فصاح حين تثاءب قائلًا:

- يبدو أنكم دعوتموني لمساعدتي على النوم، حسنًا جلالة الملكة، فلتكملي الحكاية، وماذا

حدث لتلك الفتاة البريئة؟!

همس السادة الجالسون حتى قال أحدهم:

- أنا أجيبك، ربما قامت جرثومة تسكن القصر الملكي بغرز خنجر في قلب تلك البريئة!

شاطره صوت آخر، يغلب عليه السخرية:

- لا عجب، فملكنا متسامح معهم للحد الذي يجعلنا نترك أعمالنا لنحضر تلك المحاكمات!

بدا الوضع متوترًا، وبدت (ليما) قلقة، فحدثت نفسها قائلة: «لولا ضعفك يا (ألكسندر) ما تحدث هؤلاء بهذه الجرأة في حضرتك، لكن لا بأس، كل هذا سيتبدل قريبًا.»

ثم نظرت إلى (ديودتشي) الذي حدق إليها، فأشارت إليه ليتحدث، ففطن لهذا ثم وقف قائلًا:

- أيها السادة، إن مثل هذه التصرفات لا تليق بكم، وهي غير مقبولة في حضرة الملك والملكة، نرجو الهدوء كي لا يحدث ما يسوءكم.

مشيرًا إلى جند الصاعقة، وبدا أن الجميع فطن لذلك، فسكن الوضع مرة أخرى، وتنهدت الملكة لتحدث نفسها قائلة: «أخشى أن تعيق هذه الأفاعي طريقي.»

ثم أردفت قائلة:

- هكذا نحن تغرنا ظواهر الأمور تارة، وتستدرجنا أهواؤنا تارة أخرى، وفي كلاهما نغتر كثيرًا ظنًا منا أننا نحيط بكل شيء يدور حولنا ونملك كل شيءٍ في آنٍ واحد، لكن لا تجزعوا لهذا، إن الحقيقة دائمًا ما تصفع الظنون البريئة، وهذا ما سترونه الآن.

رمقت الملكة العجوز الذي أحدث الجلبة منذ قليل ثم أردفت قائلة:

- نعم أيها السيد، لقد أصبت، الخنجر هو ما أصاب تلك الفتاة، في منتصف قلبها تمامًا، لكنه كان خنجرًا خبيثًا للحد الذي جعله يستقر في القلب دون أن يقضي عليه، فقط يثقله ويمنع كل محاولة لإنقاذ هذا القلب من بركة الألم التي افتعلها، ليس لطبيعة الخنجر القاسية، وإنما لأن الرامي كان يسكن محل الخنجر سابقًا، أما الخنجر، فإنه أقبح ما يقدمه لك أحدهم من شعور، لا يغادرك أبدًا.

زفرت الملكة حين حاولت حبس دموعها ثم قالت ناظرة إلى الملك:

- أعني بالخنجر، الخيانة! أما الفتاة، فهي أنا!

صاح العامة لكن الملكة لم تعبأ بهذا قائلة:

- اليوم أقف بينكم احترامًا للقانون لأختصم (الجرثومة صفر) زوجة الملك (ألكسندر) الغير رسمية!

لم تعبأ الملكة بتلك الضجة التي انفلتت على إثر ما قالته، ونظرت إلى الجندي الواقف خلفها ثم أشارت بيدها ليصعد إلى المنصة جنديان، تتوسطهما امرأة متوسطة القامة، لا يستدل على شيءٍ من ملامحها لأن وجهها كان مغطى بكيس من القماش لكن بدا أنها تنتمي إلى فئة التأنيث من ردائها، وبدا أن الملك أول من كشف هويتها حين رآها رغم وجهها المغطى مسترجعًا هذا المشهد من بريد الذاكرة:

بدا أنه يدعم أو يكمل المشهد ذاته الذي استرجعه (أركان) عندما شاهد الملك، فقد بدا فيه الملك يحدث (أركان) في قلقٍ قائلًا:

- ماذا تعني بأن جميع أبنائي في قبضة يدك الآن؟

أجاب (أركان) قائلًا:

- أعني أن خطة هروبهم من هنا قد فشلت، لقد تتبع رجالي السفينة التي اتجهت صوب الجهة الشرقية كما تتبعوا الراحلين حين ارتحلوا من البيت المهجور الذي زرته منذ قدومك إلى هنا، أردت أن أتسلى معكم قليلًا لتشعروا بالأمان والطمأنينة لكن طالما أنا من يتحكم في زمام الأمور، فلا طمأنينة.

اكتفى الملك بهذا، وكاد أن يهم بالوقوف تعاطفًا مع ابنته لكن صوت (أركان) أوقفه قائلًا:

- لا تقلق أيها الملك، ابنتك بخير، هذا لحمايتها، أنت تريد أبناءك وأنا أريد العرش، حسنًا، ها أنا أثبت لك أنني لا أريد الدماء، سأسلم لك جميع أبنائك سالمين بعد أن أتولى العرش، وهذا الغطاء حفاظًا عليها حتى تستطيع أن تعيش بعد هذه المحاكمة، إن حكم عليها بالموت فلنفعل لكن بأخرى.

صمت الملك برهة ثم قال:

- أرجو أن تصدق القول، وإلا لن يقتلك أحد غيري.

ابتسم (أركان) ساخرًا.

لما اطمأنت الملكة لوقوف صاحبة الغطاء، ورأت الحارسين في موقعهما على يسار المنصة، صاحت الملكة قائلة:

- لن يتسنى لأحد قطع حديثي اليوم.

صمتت برهة ثم أردفت قائلة:

- الآن، فلنسقط نظراتكم السطحية لتلك القصة المسلية، أجل أعني ما قلته تمامًا، الملك (ألكسندر) تزوج بجرثومة وجميعنا يعلم أنه أنجب منها، لذلك نتجمل نحن النساء ونقول أنها زوجة غير رسمية، وما فقدت صوابي لأختصم تلك الجرثومة اليوم، فقد لقت حتفها منذ أعوام، وقد ظننت أن هذا من شأنه أن يسكن جرح قلبي قليلًا لكن أن نعلم اليوم وبعد كل هذه السنوات أن هناك أميرة من فئة الجراثيم، يا للمهزلة! أنا اليوم لا أقاضيها بصفتي زوجة، وإنما بصفتي ملكة وأم ولي العهد، دائمًا كنا نظن أن الجراثيم هم منبع كل شر، أما أن نرى أحدنا أبًا لجرثومة، فهذا يجعلنا نراجع حساباتنا، لن أوافق أن يكون للجراثيم مكانة غير مكانتهن المعهودة.. مهما حدث.

ثم صاحت الملكة ناظرة إلى الملك:

- هل تنكر هذا يا جلالة الملك (ألكسندر)؟!

زفر الملك ثم نهض محدقًا إلى (الجرثومة صفر) ليقول:

- كلا، لا أنكر هذا.

كاد الملك أن يكمل لكن أحد الجالسين، هتف قائلًا:

- فليسقط الملك (ألكسندر).

وردد السادة ثم العامة من خلفه، فبدا أن أمر عزل الملك ليس من شأن العامة، وإنما تشبه بفعل السادة، فأشار (ديودتشي) إلى أحد جنود الصاعقة الملتفتين إليه ليقوم بإطلاق رصاصة كي يهدأ الوضع تمامًا.

ابتسم الملك ثم قال:

- أجل، فليسقط (ألكسندر).

ثم انكب ضاحكًا ليردف قائلًا:

- لقد ضربت لنا الملكة مثلًا رائعًا لأنكم تأخذوا قشور الأمور وتتركوا جوهرها، ولعل آثار هذا المثل لا تزال جلية على وجوهكم، حافظوا عليها قليلًا بعد، أقتص لكم منها علكم تحفظون هذا الأمر لي، وأضرب بالملكة المثل أيضًا، إنها تظن أنها تمتلك زمام الأمور وتعلم كل شيء.

زفر الملك ثم أردف قائلًا:

- خنجر آخر جديد أيتها الملكة، أتمنى هذه المرة أن تستجمعي قواك حتى لا يتمكن منك، ويحدث ما يفجعنا.

شعرت الملكة بالفزع، فأشفق عليها الملك قائلًا:

- لا أنكر أن لي ابنة من جرثومة، ولن أسوغ موقفي هذا، فلتظنوا كما تشاءون ولتصدروا أحكامكم كما تريدون، فإن هذا لن يغير الحقيقة، ولن يغير حكمكم أيضًا مهما حدث، وعلى إثر إعلان الحقائق، فإن لي واحدة أخيرة أيضًا، ينبغي أن تعلموها.

كاد الملك أن يكمل كلامه لكنه سمع صوت دوي على المنصة، فبدا الاضطراب على الجميع، واتجهت الأنظار المترقبة إلى مصدر الصوت، وبدا للبعض كأنه جندي منهك من مشقة الطريق، وللبعض الآخر أنه قد اختل توازنه، فسقط فجأة، وحين وقف، فزع الجميع لمنظره لأن ثيابه يكسوها الدماء، وبدا أنها لا تزال حديثة، فكان بعضها يتساقط على أرض المنصة، صرخ في فزع حين نظر إلى الملك قائلًا:

- سيدي، إنهم قادمون، إنهم قادمون.

شعر الجميع بالفزع، وعلت الأصوات حتى صاح (ديودتشي) الذي هب واقفًا:

- من أيها الأبله؟ ماذا يحدث؟!

لم يحتمل الجندي الوقوف أكثر من هذا، فجثا على ركبتيه قائلًا في ضعف:

- الطغاة يا سيدي، لقد أبادونا.

بدا أن الملك أول من استشعر الخطر، فسقط جالسًا كأنما كان يركض لمسافة طويلة، أما السادة، فقال أحدهم:

- فلنسرع لنحتمي ببيوتنا.

كاد البعض أن يستجيب لهذا لكن صياح الملكة قد أفزعهم، فقد صعد إلى المنصة عدد من الرجال، وكذلك أسفل المنصة، وقاموا بتطويق السادة من جميع الأرجاء ليفزع الجنود الصاعقة، فلم يجرؤ أحدهم حتى على إطلاق رصاصة لأن هيئة هؤلاء الرجال غير معهودة، فقد كان لون بشرتهم يميل إلى الأحمر، ويرتدون قبعات، يكسوها الريش، وثياب من الجلد أسود اللون، ويحملون صاعقات بدت أكثر تقدمًا مما يمتلكه جنود الجزيرة، وبدا الجميع محاولًا النجاة بنفسه عدا الملك ظل مشغولًا بأمر (الجرثومة صفر) فأسرع تجاهها ليجذبها

نحو الطاولة ثم أجلسها إلى جوار (أركان) الذي جثا على ركبتيه أسفلها، وبادر الملك إلى نزع غطاء رأسها بعدما حل قيودها قائلًا:

- (أفين).. هل أنت بخير؟!

رمقه (أركان) محدثًا نفسه: «أجل إنها بخير، إنهم جميعًا بخير أيها الملك.»

ثم حفز هذا ذاكرته لاستعادة أحد المشاهد:

بدا فيه (آدم) و(إستير) و(أفين) والجرثومة العجوز، والسيد (زهير) مطوقين بالجنود من جميع الأرجاء رغم أنهم كانوا يتأهبون لركوب السفينة إلا أنه بدا أن الجنود كانوا في انتظارهم، فأفسدوا عليهم مخططهم للهرب، وبدت علامات الخوف على وجوههم جميعًا، فصاحت (إستير) قائلة:

- أنا الأميرة (إستير).. ما هذا الذي تفعلونه؟

غير أنها لم تلق ردًا، فكادت أن تتجه إلى أحد الجنود المحاصرين لهم حين صاحت قائلة:

- أنت.

إلا أن (آدم) أمسك بيدها قائلًا:

- (إستير).. اهدئي، إن أردنا الخروج من هذا المأزق، ينبغي أن نهدأ أولًا لنتدبر أمرنا.

اقترب السيد (زهير) من (آدم) وكاد أن يهمس لكن أحدهم تحدث من خلف الجنود قائلًا:

- لماذا تأخرتم كل هذا الوقت في الطريق يا (آدم)؟!

maktabbah.blogspot.com

تنحى أحد الجنود عن موقعه ليتمكنوا من رؤية المخاطب لهم، فشاهدوا (أركان) الواقف أمامهم، وحين رآه (آدم) هم بالذهاب إليه، فأوقفه أحد الجنود بسيفه ليبتسم (أركان) ساخرًا ثم قال:

- لطالما كنت متهورًا يا (آدم).

- ماذا تريد؟!

تقدم (أركان) صوب (آدم) وأشار إلى الجندي ليبتعد قائلًا:

- جئت لأودعك يا (آدم).. أعلم أنك لست أخي لكنها الحقيقة الوحيدة التي لم أتقبلها، بيننا ذكريات وأشياء، لا يمكن لروابط القرابة أن تصنعها يومًا، إنه شيء أقوى من روابط الدم، وأثمن عندي من تاج الملك.

كاد (آدم) أن يتحدث لكن (أركان) أردف قائلًا:

- لا يا (آدم).. مستحيل أن أتراجع، لا تجادل، فلقب الملك لي اليوم لكن لا أريد الدماء.

ثم أشار إلى رجل، طويل القامة، ممتلئ قليلًا، عندما تراه تظن أنه أحد أقارب (إستير) فقد كانت ملامحه تشبهها كثيرًا، وحين رأته، فزعت لهيئته، فقد كان مقيدًا بالحبال وفمه مغطى بقطعة من القماش، كادت أن تهرول إليه حين صاحت قائلة:

- أخي.

لكن أحد الجنود أوقفها بسيفه، فقال (أركان):

- لا تقلقي أيتها الأميرة، سيرافقكم في رحلتكم تلك لكن أنصحكم ألا تفكوا قيده إلا بعدما تتأكدوا من أنه لا مجال لأن يعود أحدكم، إنه صديقي وأنا أعرفه لكن إن عاد، فلن يجد صديقًا بل ملكًا، لن يوافق أن يقترب أحدهم من ملكه!

صمت (أركان) برهة ثم أردف قائلًا:

- إن قررتم العودة يومًا، فستجدون ملكًا شرسًا، لن يبقي على شيء، ولن يترك تلك الظنون العفنة كي تشكك في ملكه، فأنا لا أرحب بكم.

خيم السكون على الجميع ثم تحدث (زهير) قائلًا:

- حسنًا أيها الملك، لا بد أن نرحل.

أشار (أركان) إلى جنوده ليفسحوا لهم الطريق كي يصعدوا إلى السفينة، وكان ولي العهد أول من حُمل إليها بواسطة جنديين رغمًا عنه، أما البقية، فقد لحقوا به برغبتهم، وبدا أن السيد (زهير) هو الشخص التالي لكنه نظر إلى (آدم) الواقف بجوار (أركان) فصاح قائلًا:

- (آدم).

انتبه (آدم) فأشار (زهير) للرحيل، زفر (آدم) ثم قال:

- سألحق بكم.

نظر (أركان) إلى (آدم) ومد يده للمصافحة، فنظر إليه (آدم) قائلًا:

- ماذا عن (يعقوب) والملك؟

زفر (أركان) ثم قال:

- لا أعلم، لكن لا أظن أن ينالهم سوء، أحدهم أب زائف والآخر حقيقي! لكني أبغضهما.

- لماذا يا (أركان)؟ لا...

قاطعه (أركان) قائلًا:

- لأني أحب أمي، فلولاها ما بقيت أنا، لقد كنت تعاني من قسوتها، وكذلك أنا عانيت من قسوة (يعقوب).. فكما تحفظ (يعقوب) الآن، أحفظ (ليما).

فبسط (آدم) ذراعيه، وضم (أركان) قائلًا:

- لم تصبح ملكًا بعد، وما زال لدي حق معانقتك رغمًا عنك، أرجو أن تصبح ملكًا عادلًا.

بدا أن (أركان) قد رغب في هذا العناق أكثر من (آدم) فأطبق عليه بذراعيه قائلًا:

- كنت أكره عناقك هذا عندما كنا صغارًا لكن الآن أقدر قيمته.

ثم ابتعدا، فقال (آدم):

- إياك أن تصبح مثل (ألكسندر) وتتزوج باثنتين غير (رتاج).. إنها لن تتوانى في تمزيق أشلائك وتوزيعها على الفقراء، ولن تجد مثل (آدم) ليحنو على أبنائك ويرافقهم في رحلة انتحارية.

ابتسم (أركان) قائلًا:

- حسنًا، ارحل.

بدا هذا المشهد الذي استرجعه (أركان) معادلًا لتمكن الملك من تخليص الجرثومة من قيودها لكنه حين أزاح غطاء رأسها، فزع لرؤية وجهها، إذ كانت فتاة أخرى غير (الجرثومة صفر) فاتجه الملك صوب (أركان) وأمسك بتلابيبه قائلًا:

- اصدقني القول أيها الملك الصغير، أين ابنتي؟!!

ابتسم (أركان) ساخرًا ثم قال:

- لا تقلق، أنا الخاسر الوحيد بين أبنائك، حتى ابنك (ألكسندر) السابع عشر (ولي العهد) ألحقته بهم، لقد نجوا وهلكنا نحن، أصبحوا يشعرون بالطمأنينة، وأصبحت الجزيرة ترتعد خوفًا.

كادت هذه الكلمات أن تخفف قليلًا من حدة ما يحدث غير أن رؤية الملك لرجلٍ من الغزاة، يدفع الملكة التي لا تزال واقفة موضعها - عل أثر الصدمة قد جمد كل شيء فيها ليطمئنها قليلًا أو ربما ليليق بقدر توقعها الذي تحطم تحت قدميها في لحظاتٍ يسيرة، لا تقرب حتى

ساعات قليلة سبقتها من القلق ناهيك عن سنوات يلمع فيها نجم واحد، تتابعه من بعيد، وما إن تخطت كل الصعاب لتتمكن من القرب منه حتى تحول إلى جمر ملتهب، ما إن اقتربت منه حتى أرسل شيئًا من لهيبه الحارق المنذر بالهلاك - أسرع الملك فأمسك بها قبل أن تفقد توازنها وتسقط على أرض المنصة، فقال حين حدقت إليه:

- هل أنت بخير؟ حسنًا، لا تقلق...

كاد الملك أن يكمل لكنه أفلتها من بين يديه محدقًا إلى الرجل الذي دفع الملكة لتوه إذ كان يجر بيديه قيودًا ممتدة لتجمع بضعة أفراد في أسرٍ واحد من أقدامهم، أما أيديهم، فلقد كانت مقيدة من الخلف؛ إنه (آدم) وقد بدا أن وجهه ينزف، يليه السيد (زهير).. يليه ولي العهد، يليه الأميرة (إستير).. يليها السيد (فلو) ثم أخيرًا السيدة (شيار).. تبعهم رجل يطبق على زمام أمرهم من الناحية الأخرى، تبعهم في الظهور على المنصة (الجرثومة صفر) والجرثومة العجوز، وقد اشتركا في قيدٍ واحد، خلفهم رجل من الغزاة يوجههم.

كاد الملك أن يتجه صوبهم غير أن عددًا من الغزاة صعد إلى المنصة، وبدأ كل واحدٍ منهم يضع السلاح على رأس جميع من على المنصة بعدما أجبروا على افتراش الأرض ووضع أيديهم على رؤوسهم، وبدت المنصة أكثر تنظيمًا من دونها، فجُمع من كانوا عليها سابقًا في صفٍّ واحد جنبًا الى جنب في الجهة اليسرى من المنصة، وعلى رأس كلٍّ منهم، نذير بالهلاك في أي لحظة.

* * * *

في المقابل الجهة اليمنى (آدم) ورفاق قيده على يساره، و(الجرثومة صفر) والعجوز على يمينه، وبدا أن التنظيم سمة بارزة في هؤلاء الغزاة إذ كانوا ينظمون السادة أسفل المنصة، ويوجهونهم إلى الجلوس على مقاعدهم برتيب عشوائي، ولم يتبين لهم أي لهجة بعد، فكانوا يتحدثون بأسلحتهم تارة، وبأيديهم تارة أخرى ليصبح الفزع السمة الغالبة على الجميع عدا السيدة (ليما) إذ كانت الوحيدة التي لا تزال ثابتة في موقعها، ربما يبدو للبعض أنها تتناغم مع المقولة التي تضع الإنسان موضع الجبال، وتضع ما يواجه من صعاب موضع الرياح، فمهما اشتدت لا تستطيع أن تنال منه غير أن الأمر وإن بدا للناظرين جبلًا شامخًا، فإنه لا يمنعه أن يحوي داخله بركانًا، يتأهب للانفجار في أي لحظة.. لا تزال جالسة في موقعها غير أنها كانت ساكنة تمامًا، تحدق إلى الفراغ، ملامح وجهها تبدو طبيعية، لا تعرف رد فعلها حيال ما حدث على عكس بقية السادة، أما العامة، فإن كثرتهم كانت مسلكًا رغم فزعهم أيضًا للهرب، وإن كانت العشوائية تغلب عليهم علها فلتة من فلتات الحياة للجموع التابعة بأن تنعم بقدر من الحظ ولو كان ضئيلًا أو غير متوقع فضلًا عن أنه يصبح في مثل هذه

الحال داعيًا لقلب الصورة من وضع الناقم الحاسد للفئة المترفة إلى الامتنان للشقاء والبؤس الذي رافقهم طوال حياتهم لتسكينهم في هذه الفئة، غير أن الحياة بتاريخها الحافل بالعبر، تهمس لنا «إياكم والاعتماد على الحظ العابر، فقد يخفي خلفه عاصفة، لا تدري متى تنتهي، وأن الحياة لا يمكنها أن ترسل بأنوارها إلى أناس تعايشوا مع الظلام واتخذوه مسكنًا.. خصوصًا إن كانت ظلمات مخزية، فالفقر وإن عد ظلمة، فهو مع عزة النفس وحفظ الكرامة، يغني صاحبه عن أموال الدنيا كلها، وأموال الدنيا كلها لا تغني عن كرامة المرء وعزة نفسه مهما تباهت بالمغريات دونهما للنفس، فإنها تهوي به إلى الهلاك ولا ترفعه.»

وقد بدت هذه الظلمات التي سكنوها معززًا لهؤلاء الغزاة الذين جاءوا من الخلف، وظلت عملية السيطرة للغزاة أكثر سهولة للوهن الإنساني نظير تلك الطلقات المتطايرة فوق رؤوسهم لتتلاقى مع هذه الظلمة كي تعلن الخضوع وإن كان عشوائيًا مضطربًا، أفجع بعضهم بسقوط أفراد منهم حتى يتسنى للغزاة الخضوع التام، فشرعوا في عملية التنظيم الخاصة بهم في شكل جماعي لكل حامل صاعقة، يستطيع في سهولة السيطرة عليهم، وللأحصنة والعربات - التي بدا أنهم استولوا عليها من الجزيرة - الفضل في إتمام ذلك بسهولة.

بعد مرور بضع لحظات، بدا الغزاة على المنصة وفي الساحة، يطلقون طلقات من صواعقهم علها إشارة النصر لكن صعد رجلان آخران منهم إلى المنصة، وفعلا مثلما فعل البقية، يحمل أحدهما علمًا أحمر اللون، يتوسطه دائرة سوداء، وحين رفعه إلى أعلى وبدأ التلويح به، توقف الجميع عن إطلاق النيران، وبدأ الترقب والفزع على الجميع.

لحظات وصعد رجل، بدا أنه زعيم هؤلاء الغزاة لنظرته المتعالية حين أومأ موافقًا رجاله ثم نظر إلى اليسار حيث الملك، وحين رآه، اتجه صوبه ووقف أمامه، فقام أحد رجاله من خلفه بتوجيه الملك إلى الوقوف، فقال الرجل ساخرًا:

- The king

ثم ضحك وتبعه رجاله من بعده، لم يعبأ الملك بتلك السخرية ولا بتلك الكلمة التي لم يفهمها، وإنما كان ينظر إلى (آدم) في غضب، والذي كان يبادله النظرة نفسها لكنها عبرت عما أراد الملك قوله، عله أراد أن يقول: «لماذا؟!» فبدت عودة (آدم) مع أبنائه هزيمة أكبر من تلك التي يحاسب عليها كملك مهزوم، لا كأبٍ خاسر!

ثم حدث نفسه قائلًا: «كيف؟! كيف عدتم إلى هنا؟! لماذا؟!! لو نجوتم لما اكترثت لما يحدث هنا! لماذا يا (آدم)؟!»

شعر زعيم الغزاة بالدهشة لأن الملك لم ينتبه إليه، والتفت لينظر إلى حيث اتجه ببصره

ليجده محدقًا إلى (آدم) والذي بدأ ينظر إلى الملك نظرة تلتمس الغفران ليجيب داخله: «معذرةً أيها الملك، لم نستطع رؤية الغزاة يدنسون وطننا دون أن نعود إليه، أشواك أوطاننا أحب إلينا جميعًا من جناتٍ، نظل فيها تائهين طوال حياتنا، ما قيمة أن تغترف من نعم، تعطى لك منة أو ذلة؟! إنها لا تعادل نضالك دفاعًا عن أرضٍ تمتلكها حتى لو كانت جرداء، أيها الملك، إن ظننت أننا قد فضلنا الهلاك هنا، فهذا أحب إلينا، فلنمت مرفوعي الرأس دفاعًا عن شرفنا ووطننا.»

ثم بدأ بريد الذاكرة يدعم (آدم) بمشهد من على سطح السفينة، ولقد بدا دليلًا يقدمه عقل (آدم) للملك حين قال:

- الآن سأعود، من يرغب في إكمال مغامرته، فليكمل، ومن يرغب في العودة معي، فليسرع.

ثم قال بعدما اكتفى بهذا القدر من بريد ذاكرته:

لم أجبر أحدًا أيها الملك، جميعهم فضلوا العودة، لقد فضلنا الوطن، نعم هذه الجزيرة وطننا، وستبدأ مغامرتنا من هنا، حتى تعود حرة كما كانت، الآن تبدأ جزيرتنا فصلًا جديدًا، لا فرق فيه بين أمير وسيد، ولا بين سيد ورجل من العامة، ولا بين رجل من العامة وجرثومة، الآن والآن فقط، ذاب كل شيءٍ أمام حرية الوطن.

* * * *

مكتبة بيت الحصريات
www.maktabbah.blogspot.com

أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والنادرة والجديدة

مكتبة بيت الحصريات أسم على مسمى